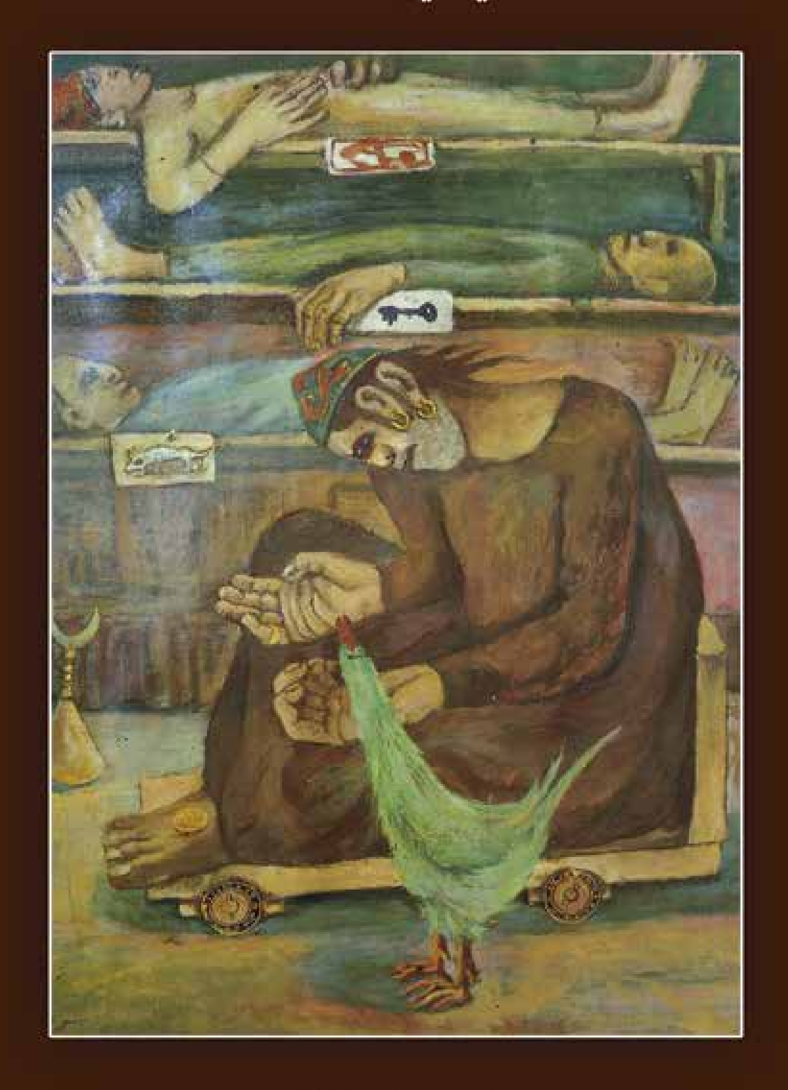
كتاب الدوحة

لطائف السَّمَر

في سكان الزُّهرة والقمر

ميخائيل الصقال



تقديم: نبيل سليمان

لطائف السمر في سكان الزُّهرة والقمر
أو
(الغاية في البداءة والنهاية)

ميخائيل الصقال

تقديم: نبيل سليمان

كتاب الدوحة 20

يوزع مجاناً مع العدد 63 من مجلة الدوحة يناير 2013

لطائف السمر في سكان الزُّهرة والقمر
أو (الغاية في البداءة والنهاية)
ميخائيل الصقال

الناشر :
وزارة الثقافة والفنون والتراث - دولة قطر
رقم الإيداع بدار الكتب القطرية :
الترقيم الدولي (ردمك) :

إخراج وتنفيذ : القسم الفني - مجلة الدوحة
لوحة الغلاف: عبد الهادي الجزار - مصر

فهرس الكتاب

تقديم: نبيل سليمان 7

مقدمة المؤلف 21

الباب الأول 23

الفصل الأول: في ترجمتي 25

الفصل الثاني: في ترجمة والدي 28

الفصل الثالث: في رؤياي لوالدي 29

الفصل الرابع: في المريخ 33

الفصل الخامس: في الزهرة 33

الفصل السادس: في المدن والطرق 34

الفصل السابع: في الدور 36

الفصل الثامن: في النظافة 37

الباب الثاني 39

الفصل الأول: في العبادة 41

الفصل الثاني: في المعابد 41

الفصل الثالث: في الصلاة 42

الفصل الرابع: في الأعياد والصيام والحج 44

الفصل الخامس: في قضاة الزهرة ونزولنا إلى الأرض 47

الفصل السادس: في بعض الرؤساء بالأرض 49

الفصل السابع: في خطيئات سكان الزهرة 53

الفصل الثامن: في الأحكام الحقوقية 55

الفصل التاسع: في العقاب 57

الفصل العاشر: في القتل العدواني 61

الفصل الحادي عشر: في القتل الديني 62

الفصل الثاني عشر: في القتل الحربي 63

الفصل الثالث عشر: في القتل السياسي والمدني العقابي بالأرض 63

الفصل الرابع عشر: في لو علم المحكوم ما كان عليه لاجتنب الآثام 63

الفصل الخامس عشر: في عذاب زحل 64

الباب الثالث 67

الفصل الأول: في المحاماة بالأرض 69

الفصل الثاني: في قضاة المحاكم الأرضيين 70
الفصل الثالث: في الوصاية بالأرض 71
الفصل الرابع: في الحروب والمذابح والفظائع بالأرض 72
الفصل الخامس: في السجون والمنافي 77
الباب الرابع 81
الفصل الأول: في الطلق والولادة وتربية الطفولة 83
الفصل الثاني: في التربية وواجبات الوالدين بالأرض 85
الفصل الثالث: في مدراس وعلوم سكان الزهرة 88
الفصل الرابع: في أنَّ آفة التلميذ بالأرض مدرسته ودروسه وفي التربية أيضاً 89
الفصل الخامس: في اللغة 94
الفصل السادس: في المطابع 96
الفصل السابع: في علماء الأرض وحالة الإنسان الأولى فيها 97
الفصل الثامن: في الشعر والشعراء 103
الباب الخامس 115
الفصل الأول: في بنات الهوى أو الغواني 117
الفصل الثاني: في العذرات والمنتديات أي أماكن القهوة 118
الفصل الثالث: في التلهي بالزهرة 118
الفصل الرابع: في منتديات وملاهي الأرض 119
الفصل الخامس: في المآكل 122
الفصل السادس: في الأطباء وواجباتهم وفي السكر 122
الفصل السابع: في العفاف 126
الفصل الثامن: في الاختلاط والمعاشرة بالأرض وفي الرقص 127
الفصل التاسع: في الأزياء وأضرارها وفي النسائج 131
الفصل العاشر: في البائنة والفتيات 134
الفصل الحادي عشر: في التمويه والطلاء والخضاب 138
الفصل الثاني عشر: في اختيار الزوجة 141
الفصل الثالث عشر: في الخطبة والحب والغيرة والمهر والجهاز 142
الفصل الرابع عشر: في الملابس والحلي والهدايا من الزهر 144
الفصل الخامس عشر: في البضع والاقتران والعرس 145
الباب السادس 147
الفصل الأول: في طبقات العباد 148
الفصل الثاني: في الزراعة والفلاحة بالأرض وفي القرى وعيشها 148
الفصل الثالث: في الآلات والأدوات النقلية والزراعية وغيرها من مخترعات سكان الزهرة 151
الفصل الرابع: في حرف سكان الأرض 154
الفصل الخامس: في البيع والشراء 155

الفصل السادس: في التجارة ... 156
الفصل السابع: في الربا ... 156
الفصل الثامن: في طمع سكان الأرض ... 157
الفصل التاسع: في الحسد ... 158
الباب السابع ... 159
الفصل الأول: في الرجل ... 161
الفصل الثاني: في المرأة ... 163
الفصل الثالث: في الأصدقاء بالأرض ... 164
الفصل الرابع: في الأعمار والموت والزهرة ... 166
الفصل الخامس: في الأحزان ... 168
الباب الثامن ... 173
الفصل الأول: في وجود الله تعالى وخلقه الخلق ... 175
الفصل الثاني: في الأديان ... 176
الفصل الثالث: في توحيد الأديان ... 178
الفصل الرابع: في قولهم لو كانت الأديان كلها من الله تعالى لما اختلفت في الاعتقاد ... 179
الفصل الخامس: في قول بعضهم إنَّ الأديان قوانين وضعها عقلاء البشر ... 180
الفصل السادس: في المجوسية والوثنية ... 181
الفصل السابع: في التقمص ... 182
الفصل الثامن: في التشاؤم ... 182
الفصل التاسع: في المعتوهين والمشعوذين ... 184
الفصل العاشر: في الكافر والمكابر ... 185
الفصل الحادي عشر: في النجس ... 187
الفصل الثاني عشر: في التوجع والطلق ... 187
الباب التاسع ... 189
الفصل الأول: في الأرض وقدمها ... 191
الفصل الثاني: في كيف خلق الله تعالى الخلق ولماذا ... 191
الفصل الثالث: في قولهم خير للإنسان أن لا يخلق ... 192
الفصل الرابع: في قول بعضهم إنَّ الله تعالى يخلق الحسن وينهانا عنه ... 192
الفصل الخامس: في قول بعضهم إنَّ الإنسان يلتمس من الله تعالى ما يحتاج إليه فلا يرد عليه ... 193
الفصل السادس: في قول بعضهم إنَّ الله تعالى يحكم على زيد مثلاً بأن يفتقر بعد غنى وعلى عمرو بأن يغنى ولا يفتقر ... 193
الفصل السابع: في قول بعضهم إنَّ الإنسان ضعيف تستعبده شهواته ... 195
الفصل الثامن: في كشف السر والختام ... 195

الريادة الروائية النهضوية:
(لطائف السمر..) لميخائيل الصقال أنموذجاً

كما القاهرة، وربما أكثر من بيروت، كانت حلب القرن التاسع عشر بؤرة نهضوية في الفكر والأدب والفن. وقد اشتهر من تلك البؤرة بخاصة عبد الرحمن الكواكبي (1848 ـ 1902) وفرنسيس المراش (1837 ـ 1873) في تلك الفترة، كما بين ظهرانينا أيضاً، منذ أخذنا نجدّ في إثر (النهضة) عقب هزيمة 1967، ولا نزال. وإذا كان آخرون قد عُرفوا في تلك الفترة أيضاً (رزق الله حسون وجبرائيل الدلال وعبد الله المراش...) فقد كان ولم يزل حق ميخائيل الصقال في أن يعرف مغمطاً، شأنه شأن أبيه الأديب الرائد المجهول: أنطوان الصقال. وبالأب نبدأ:

أنطوان الصقال (1824 ـ 1885):

في صدر رواية (لطائف السمر في سكان الزهرة والقمر...) يترجم ميخائيل الصقال لأبيه، فيعدّه «أحد رجال النهضة الأدبية في هذه الأمصار»، ويذكر الابن ومن ترجم سواه للأب، أن أنطوان الصقال كان شاعراً، وله شأو في الهندسة والموسيقى. وكان يتقن إلى العربية: السريانية والتركية والإنكليزية، كما كان الترجمان الأول لقائد الحملة الإنكليزية في حرب القرم (1854 ـ 1856). وقد عمل في مالطة مدرساً ومصححاً لغوياً لما كان يُطبع فيها من الكتب العربية، كما كتب بأسماء مستعارة في صحف ومجلات شتى. أما الأهم فهو ما يؤكده قسطاكي الحمصي في كتابه (أدباء حلب ذوو الأثر في القرن التاسع عشر) من أن لأنطوان الصقال «كتاب الأسهم النارية، وهو رواية ضمّنها

بعض الوقائع المحلية. وله رواية أخرى لم يصلنا اسمها». أما محمد راغب الطباخ فيكتب في الجزء السابع من مصنفه (إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء) أن أنطوان الصقال كان «شاعراً مجيداً له ديوان شعر وروايتان، إحداهما غرامية أخلاقية نحا بها نحو حكايات ألف ليلة وليلة، وهي حكاية إحدى ملوك الصين المسماة بالقاهرة مع الحسن البصري نجل الملك عبد الرحيم». وقد دفعت هذه التوكيدات بشاكر مصطفى إلى أن يكتب في مصنفه (محاضرات عن القصة في سورية حتى الحرب العالمية الثانية) أنه يكاد يرجح أن أنطوان الصقال «هو أول كاتب للقصة في سورية إن لم يكن في العرب» إذا ما أسعفت المصادر في المستقبل بذكر تاريخ روايته.

لقد طال القول بأن رواية (زينب ـ 1914) لمحمد حسين هيكل (1956 ـ 1999) هي أول رواية عربية. ثم جلجل القول برواية فرنسيس المراش (غابة الحق ـ 1865)، ثم جلجل القول برواية (وي.. إذن لست بإفرنجي ـ 1859) لخليل الخوري (1836 ـ 1907) وبذا انتقلت الريادة الروائية بعد القاهرة، من حلب إلى بيروت، فهل يعيدها أنطوان الصقال إلى حلب؟

ميخائيل الصقال (1852 ـ 1937):

كما ترجم لأبيه بإيجاز، يترجم ميخائيل الصقال لنفسه أيضاً في صدر روايته (لطائف السمر...). وإلى ذلك أضيف أن أعماله المنشورة هي:

1ـ رواية (لطائف السمر في سكان الزهرة والقمر أو الغاية في البداءة والنهاية) وقد صدرت في القاهرة عام 1907. وسوف نكتفي لذكرها بـ (لطائف السمر..).

2 ـ كتاب (العبر) ـ 1911.

3 ـ ديوان شعر ـ 1925.

وله مخطوطات ذكرها قسطاكي الحمصي في كتابه (أدباء حلب ذوو الأثر...) وذكرتها عائشة الدباغ في كتابها (الحركة الفكرية في حلب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ـ 1972)، والمخطوطات هي:

* طرائف النديم في تاريخ حلب القديم.
* لطائف الحديث في تاريخ حلب الحديث.
* مذكرات ميخائيل الصقال.
* رسالة في النحل.
* رسالة في التشريح.

ولعل من المفيد أن أضيف الإضاءتين التاليتين إلى ترجمة الكاتب:

أ ـ كما عمل ميخائيل الصقال في التعليم وفي المحاماة والقضاء، عمل في الصحافة مع عبد الرحمن الكواكبي في جريدة الشهباء التي صدرت في 1877/5/10، وعاشت سنة ونيفاً بلا انتظام، إذ عطلها الوالي ثلاث مرات قبل أن يحجز على مطبعتها ويضعها تحت المراقبة. لكن الجريدة عادت إلى الظهور، وظهر فيها اسم ميخائيل الصقال. ويرجح جان داية في كتابه (صحافة الكواكبي) أن اسم الصقال وُضع صورياً على الأعداد التي صدرت قبل تعطيل الجريدة نهائياً، بينما كان الكواكبي فيها كما كان من قبل، ولكن سراً، اتقاءً لشر الوالي. غير أن موسى بيطار الذي يرجح في تقديمه للطبعة الوحيدة منذ عام 1907 لرواية (لطائف السمر.. ـ 2006) أن مشاركة الصقال في (الشهباء) لم تكن صورية، وأنه فيما قبل هذه المرحلة من عمر (الشهباء) كان يترجم الأخبار والمقالات عن الإنكليزية والفرنسية. وقد كتب بيطار فيما بعد أن فرنسيس المراش كان وسيط ميخائيل الصقال إلى الثقافة الفرنسية التي يجهل لغتها. وينقل بيطار عن جريدة المصباح البيروتية في 1883/3/29 أن تهمة خطيرة قد لفقت بحق جماعة من أدباء حلب في مقدمتهم الكواكبي والصقال. والتهمة هي اختلاس أموال الشيخ عباس النجفي القرشي الذي كان يعمل في جريدة (الجوائب) في الآستانة، وجاء حلب مريضاً. أما الأهم فهو أن ميخائيل الصقال وعبد الرحمن الكواكبي قد افترقا نهائياً بعد جريدة (الشهباء)، فلماذا؟

ب ـ في عام 1897 قصد ميخائيل الصقال ملجأ المفكرين والأدباء الشوام واللبنانيين من العسف العثماني، أعني: القاهرة. وبعد عشرين سنة من العمل الصحافي في جريدة (الشهباء) أصدر الصقال بمشاركة أصدقاء في القاهرة مجلة أسبوعية علمية مصورة هي (الأجيال). وبعد سنتين قفل الصقال إلى حلب، فلماذا؟

كتاب العبر:

في عام 1907 عاد الصقال إلى القاهرة ليطبع روايته (لطائف السمر..). وفي عام 1911 أصدر كتابه (العبر) وقد ذكر في المقدمة أنه أخذ فيه مأخذ (الشعر القصصي)، وأعرب به «عن أحوال الكون وتقلباته وشؤون الشرق وعباداته وأمور الدنيا وأدوار الحياة»، ودبّج كل ذلك برواية «غرامية تهذيبية».

على غرار ما سبق (العبر) في (لطائف السمر..)، كما سنرى، أوقف الكاتب الفصول (1 ـ 11) على الدعوة إلى الإخاء والمساواة والنهضة الاقتصادية والعلم، وعلى مهاجمة

الساسة وأعداء الإصلاح وتسييس الدين، كما ذكّر بمجد الشرق، وحدد مفهوم الدين وأسباب تقدم الغرب.

أما الفصول 12 ـ 18 فقد سردت (الرواية الغرامية التهذيبية) وهي قصة يوسف وسعدى التي أصر والدها على أن يزوجها من غني شحيح، فأصابت الحمى يوسف، ووقع في الهذيان سبعين يوماً، حيّر خلالها الأطباء. ولما بلغ سعدى خبره التقته، وتجدد الحب، فعوفي يوسف، واندفع في عمله حتى أصاب النجاح وبلغ الشهرة، فندم الأب كما ندم زوج سعدى الذي أوصى قبل موته لها بثروته وبزواجها من يوسف. وقد تزوج العاشقان، لكن الهذيان عاد إلى يوسف إثر غرق ابنه. وبموته، ثم موت سعدى، تنقفل (الرواية الغرامية التهذيبية). أما كتاب (العبر) فقد أوقف الفصل (19) على رد الصقال على من سلقوا بنقودهم روايته (لطائف السمر...)، كما أوقف الفصل الأخير (20) على هجاء السلطان عبد الحميد، وبذا، حُق في الكتاب وصف شاكر مصطفى له كخليط عجيب.

لطائف السمر:

بعد ترجمة الكاتب لنفسه ولأبيه، يحدّث عنوان (في رؤياي لوالدي) أنه كان قد التمس وعداً من أبيه عندما دنت ساعته أن يتجلى له بعد الرحيل، ليخبره بما سيرى ويعلم. وحين بلغ الابن التاسعة والأربعين، بعد ستة عشر عاماً من وفاة والده، وبالضبط: بعد ظهر يوم 1901/8/16، جلس وحيداً يفكر في الكون والخليقة، حتى حار في أمره. وإذ أغفى عاين والده مقبلاً في بهاء ونور لا يستطيع بشر وصفهما، ليفي بوعد التجلي بعد الموت، أي لتبدأ الرواية.

قبل ذلك كان الكاتب قد حدد لروايته علامات فارقة ثلاثاً: أولاها تعيّن النسب البلاغي الكلاسيكي للرواية في طلاوة المجاز وحلاوة الاستعارة وملاحة المرسل ولطف الكناية وحسن التورية، والثانية تعيّن النسب العجائبي للرواية مما يتجلى في دعوة الكاتب للقراء: «فأقبلوا عليه تجدوا فوائد وآداباً ألقاها عليّ والدي بعد رحيله عن هذه الدنيا فكانت عجباً عجاباً». والحق أن العلامة الثالثة تتصدر هذه الدعوة، وتتحدد بما يتلوها: «وتجدوا فيه من الحكم والمواعظ ما لابد منه للحكيم والواعظ»: إنها علامة التربية والفكرنة.

لعبة الحلم بين روايتين:

بالحلم إذن بدأت رواية (لطائف السمر...)، وبهذه (اللعبة الفنية) ستنهض إلى أن تبلغ الخاتمة بيقظة الحالم. وهنا أحسب أن على المرء أن يذكّر برواية فرنسيس المراش (غابة الحق ـ 1865) والتي حمل فصلها الأول هذا العنوان (الحلم). وكان المراش قد ختم مقدمة روايته بأنه ظل كفريسة ترتعد بين مخالب الانفعالات «إلى أن أخذتني سنة المنام وانفتح لدى أعيني مسرح الأحلام».

بلعبة الحلم تبدأ (غابة الحق) إذن وتقوم، وباليقظة تأتي الخاتمة: «ولما فتحت أجفاني وجدت نفسي مضّجعاً على فراش النوم تحت سماء اليقظة». وبلعبة الحلم أيضاً تبدأ (لطائف السمر..) وتقوم، وباليقظة تأتي خاتمتها: «فانتبهت والليل مظلم وفكرت: ما هذا يا ربي! أكلُّ هذا منام؟ إن في الأمر لعجباً. ثم شرعت أكتب هذا الكتاب».

والأمر كذلك، تذهب المقارنة بين اللعبة الكبرى للروايتين إلى تأثير رواية المراش في رواية الصقال. غير أن ما عدا هذا الوقوع لـ(الحافر على الحافر)، يمايز بين الروايتين بقوة. وهنا قد يجلجل قائل، بما قد يبدو من تناظر أو تصادٍ بين أفكار الروايتين (الفكريتين)، وبالتالي ما قد يبدو من تأثير لأفكار المراش في أفكار الصقال. غير أن أمر التأثر والتأثير هنا أكبر من ذلك. فالأفكار التي تشغل رواية الصقال، كما سنرى، هي مما شغل النهضويين بعامة، من سبق منهم الصقال ومن جايله ومن تلاه. وعلى هذا النحو هو القول بتجنيس كل من المراش والصقال لروايته بـ(الكتاب)، وهو ما أحسبه قادماً من التراث السردي، ولسوف تتواصل أصداؤه بعد قرن أو أكثر. فعلى سبيل المثال، هو ذا جمال الغيطاني يجنّس روايته (التجليات) بـ(الكتاب)، وهو ذا صلاح الدين بوجاه يجنّس روايته (النخاس) بـ(الكتاب)، ومثلهما أيضاً فعل واسيني الأعرج في عنوان روايته (كتاب الأمير)...

أما ما يمايز بين روايتي الصقال والمراش، ففي رأسه أن الأليجورية جاءت سمةً كبرى لرواية الثاني، بينما جاءت لماماً في رواية الأول. فلكي يتحاشى المراش أذى الرقابة والقمع، لجأ إلى الرموز، بينما ندَر أن فعل الصقال ذلك، ومنه أن المركبة البرقية قد مضت بوالده بعد الوفاة إلى مدينة القضاة في السماء الثالثة، حيث رأى القاضي الأوسط وفوق رأسه كلمة (الحق)، وعلى يمينه القاضي الذي فوق رأسه كلمة (العدل) وعلى يساره القاضي الذي فوق رأسه كلمة (الحكمة)..

وفي رأس ما يمايز بين روايتي الصقال والمراش أيضاً تأتي درجة النشاط التخييلي

الأعلى في رواية الأول، كما سنرى. واللافت أن التخييل، ومعه السوانح الأليجورية، قد جاءا في إهاب من التعيين والترهين (مخاطبة راهن الكاتب)، بخلاف رواية المراش التي دأبت على التجريد مرة والمخاتلة مرة، والنأي عن التعيين والترهين مرةً بعد مرة.

الفضاء الروائي:

يسأل ميخائيل الصقال أباه: «أيجوز لي أن أسألك: هل نحن في الأرض أم في الزهرة؟ فقال: لسنا في إحداهما، وإنما نحن بينهما، لأنه لا يُسمح لي بأن أعود إلى الأرض سجن العاصين والمخالفين، ولا يؤذن لك في الدخول إلى الزهرة لأنها مقام الأبرار الصالحين».

في هذا البرزخ، وفيما يحدّث الأب، ترسم المخيلة الفضاء الروائي: كواكب الزهرة والمريخ وزحل والأرض، أما القمر فهو الغائب الحاضر بحسب مشيئة المخيلة، ولعله لذلك لم يتسمَّ إلا في عنوان الرواية. والمهم في هذا الفضاء هو الزهرة أولاً، والأرض ثانياً. ومن مفردات الفضاء في الزهرة نعدد مدينة التكفير والمدينة العظمى: مدينة القضاة، والمعبد الأكبر... أما من مفردات الفضاء الأرضي فنعدد المدارس والسجون والمحكمة العمومية والمدن والطرق والبويرس والمقاهي والمراقص...

في الفصل السادس وعنوانه (في المدن والطرق) ـ من الباب الأول من الرواية ـ تبدأ المقارنة بين عالم الأب وعالم الابن، بين عالم الفضاء الكوكبي وعالم الفضاء الأرضي، إذ يخاطب الأب ابنه «أما مدنكم في الكرة الأرضية فقد غصت بكم وضاقت عليكم حتى ضاقت أخلاقكم». وعلى هذا النهج ستمضي الرواية، بينما يتوالى هتك الأرضيّ ونقده وتعريته وهجاؤه، مع رسم الطريق إلى البديل كما هو متحقق في الفضاء الكوكبي. وهكذا تتمحور الرواية على هذا النحو:

1 ـ محور الدين:

يتناول الباب الثاني من الرواية ـ الكتاب العبادة والمعابد والصلاة والصيام والأعياد والحج. كما يخص (القتل الديني) بالفصل الحادي عشر من الباب الثاني، والذي يبدأ بقول الوالد: «إن من الجنايات الفظيعة التي يتأسف على ارتكابها سكان الزهرة ويعجبون من الإقدام ويتألمون منها تألماً عظيماً جناية القتل الديني». ويختم الوالد هذا الفصل بقوله: «أما الذي يقتل وهو يحسب أنه يقرّب قرباناً لله تعالى فَيُعَدّ قاتلاً ويُعاقَب، ويُعاقَب معه ذاك الذي أغواه وأمره عقاباً لا أشد منه ولا أقوى، وهو لا يخرج من زحل إلا بعد خروج آخر سجين بعشرين ألف سنة، وبعد ذلك ينقل إلى المريخ لا يكلمه أحد فيه، ولن

يدخل الجنة». وإذا كان المحور الديني سيظل يتلامح في الرواية، فقد أفردتْ له أيضاً الباب الثامن وعنوانه: (في وجود الله تعالى وخلقه الخلق). وقد توزعت الفصول هنا بين توحيد الأديان والرد على من يدّعي أنها قوانين وضعها عقلاء البشر، وبين المجوسية والوثنية والشعوذة والكفر. وعلى نحو ما تخاطب به الرواية يوم كاتبها ويومنا بعدها بأكثر من قرن، في الباب الثاني، تفعل أيضاً في الباب الثامن، كما في تساؤل الوالد: «ماذا أبتغي من المتدين بديني والذاهب مذهبي إذا لم يكن على صلاح؟ ماذا أبتغي منه وهو يؤذيني ويضرني ويترقب عثاري؟»، وكما في مخاطبة الوالد للقارئ: «اعقلْ يا هذا وأدركْ أن الدين وُجد لخير الإنسان ونفعه، فكيف تجعله لضررك وتعاستك وتعاسة غيرك بتحزّبك وجهلك وبلاهتك؟». ولعل ما يتوج محور الدين في الرواية هو التسبيحات الأربع التي صاغتها على نحو شعاري في: المحبة ـ الصدق ـ العفة ـ التواضع.

2 ـ محور القضاء:

إذا كانت رواية (غابة الحق) قد وضعت الفيلسوف موضع الفقيه، بالقرب من مجلس الملك، فقد أحلت (لطائف السمر) القضاة في المحل الأول. ومن المعلوم أن ميخائيل الصقال عمل في المحاماة، كما كان عضواً في المحكمة التجارية المختصة بالدعاوى الأجنبية في حلب، وذلك كممثل للقنصلية الإنكليزية، ولعشرات السنين. وسواء أكان لذلك أثر عميق أم عابر في تتويج (لطائف السمر...) للقضاء، فقد أفردت صدرها لكل ما يتصل به: القضاة والمحامون والسجون والعقاب والأحكام والحقوق... وفي الفصل الثامن من الباب الثاني يبرز بجلاء أثر المهنة في الحالات التي تفترضها الرواية وفي أحكامها.

لقد جعلت الرواية للقضاة رأس الهرم الطبقي في مجتمع الزهرة في الباب السادس، بينما جعلت للصناع والزراع الطبقة الثانية. وفي المجتمع الأرضي ظلت الطبقة الثانية كما هي، وخصت (السوقيّ) بالطبقة الثالثة، بينما جعلت الطبقة الأولى للملوك والعلماء والكهنة والقواد والحكام وأرباب السياسة «وكل محام صادق». وبالعودة إلى الباب الثالث نجد أن الفصل الأول كان من نصيب المحامين، بينما كان الفصل الثاني من نصيب القضاة. والفصلان يخاطبان الأرضيين، أي المجتمع الذي عاصره الكاتب، وهو الخطاب الذي يبدو وكأنه قد كتب خصيصاً ليومنا.

يحدد الأب آفة الحقوق في مجتمع الابن، أي في المجتمع السوري مطلع القرن العشرين ـ ومن بعد إلى ما بلغنا من القرن الحادي والعشرين ـ بالمحامين، إذ يزداد

التزوير والاحتيال بازديادهم. وإذا كان المحامي لا يصير محامياً إلا إذا كان عالماً متبحّراً في العلم، فإن أكثر المحامين في ذلك الزمن ـ أم في هذا الزمن؟ ـ أكلةٌ لأموال اليتامى والأيامى والأرامل. ويخصّ الوالد بالتعنيف المحامين الذين تعينهم المحاكم للدفاع عن المتهمين، مما يذكّر بالمحامين الذين تعيّنهم في زمننا محاكم أمن الدولة أو المحاكم العسكرية، حيث يكون المحامي على المتهم، وليس معه أو عنه.

بصيغة السؤال الاستنكاري يسأل الوالد المحامين: «أأنتم أنصار الحق؟ أأنتم المصابيح النيرة التي يستنير بها الحكام؟»، ثم يخاطبهم: «أنتم مبدأ الطمع واللصوصية. أنتم منشأ اللوم ومعدن الفساد. أنتم مصدر الإغراء ورأس الاحتيال وسبب الخصام. أنتم منبع الشر وجرثومة المكر وواسطة الغدر ومادة الفتك. أنتم أصل الظلم وفرع البغي ومنجم الباطل. أنتم الفظاظة ونهاية الدمار. وأنتم الذين أخجل من أن أخاطبكم بقولي لكم: أنتم».

وليس نصيب القضاة الأرضيين من هذا الهجاء بأقلّ من نصيب المحامين. فالوالد يخاطب القضاة بقوله مثلاً: «يا أيها القضاة الذين لستم على شيءٍ من العلم والعقل: لماذا تعرضون نفوسكم للذل والإهانة...؟ وإني لا ألومكم يا أكثر الأعضاء لأنكم بلْهٌ لا تعقلون».

3 ـ محور الإصلاح الاجتماعي:

ليس ما تقدم في الدين أو القضاء إلا من قبيل الإصلاح العميم الذي تنشده (لطائف السمر...). سوى أن التبويب هو ما جعل للدين فصولاً وللقضاء فصولاً، ولسواهما فصولاً، منها ما يتعلق ببنات الهوى والعذرات (مجالس القوم) والمنتديات والمقاهي... وعبر ذلك ينهى المصلح الروائي عن القمار والسكر والحِداد والندب والكحول والتدخين، ويضرب المثل بمتع التلهي في الزهرة، حيث لا ملاهي، بل إقبال على البيت والأسرة والأهلين الأقربين.

ومن فصول الإصلاح الاجتماعي أيضاً ما يتعلق بالأطباء، حيث تتبدى الثقافة العلمية العميقة للكاتب ـ وهذا ما سيتبدى أيضاً في مظانّ أخرى من الرواية كما سنرى. وكما سلق لسان الوالد المحامين والقضاة، يسلق الأطباء الأرضيين، إذ يخاطب ابنه بأن أكثر هؤلاء مجربون وممتحنون، لا مداوون، وبأنهم هم الطاعون، وهم الأمراض الفاتكة، ونقرأ: «ما أكثر الأطباء عندكم فهم القتلة، هم سفاكو الدماء الطاهرة التي ائتمنوا عليها. هم أعداء الإنسان».

يتركز الخطاب الروائي الإصلاحي في (لطائف السمر...) بخاصة فيما يتعلق بالمرأة. فقد خصت الرواية الملابس والحلي والهدايا بفصل، وخصت بفصلٍ التمويه والطلاء والخضاب (المكياج بلغة هذه الأيام)، وكان للطلق والولادة وتربية الطفل فصل، ولاختيار الزوجة فصل، وللعفاف فصل، وللبضع (المهر وعقد النكاح) والعرس فصل، وللاختلاط والمعاشرة والمراقصة فصل. ويذكّر الفصل التاسع من الباب الخامس وعنوانه (في البائنة (الدوتا) والفتيات) برواية خليل الخوري (وي.. إذن لست بإفرنجي) ـ 1858. وهي التي انتزعت لقب الرواية العربية الأولى من رواية فرنسيس المراش (غابة الحق).

تتتوّج هذه التفاصيل بما سيلي في الفصل الأول من الباب السابع، وعنوانه (في الرجل)، حيث يوصي الوالد بالأحادية، بمعنى إخلاص الرجل لزوجته والكفّ عن العلاقات خارج المؤسسة الزوجية، كما يوصي بالمساواة بين الجنسين، مثلما هو الأمر في الزهرة، حيث النساء كالرجال، بل هنّ مكرَّمات أكثر منهم. وقد جعل الوالد من منزلة المرأة معياراً للحضارة والإنسانية، إذ قال «إذا نزلتَ على قوم وأردت أن تعرف منزلتهم من المدنية الحقة، فسل عن نسائهم، فإن كنّ مثلهم في الحًقوق، فقد بلغوا من الحضارة والإنسانية المنزلة الرفيعة، وإلاّ فارحلْ عنهم». ويخصّ الوالد الرجل بالخطاب، جرياً على نهج النصح والموعظة،فنقرأ: «لا تذلّ امرأتك» أو: «إذا ظلمت امرأتك فقد ظلمت نفسك».

من الخيال العلمي:

تحاول (لطائف السمر..) ألا يفوتها شأن من شؤون الإصلاح كافة. ولذلك تخص بفصل الزراعة والفلاحة والحياة القروية، إنْ في الأرض أو في الزهرة وإذا كانت الفلاحة والزراعة في الزهرة خير الحرف، فالرواية تدعو بحرارة إلى الهجرة إلى الريف الأرضي، حيث الراحة والسلام والسرور والابتهاج، بل وحيث «الخلاص من رؤية الحكام الجائرين» والحرية المشروعة. وتعلن الرواية نزوعها النباتي المقرون بالدعوة إلى الرفق بالحيوان: «أقلّوا أكل اللحوم شيئاً فشيئاً حتى تستغنوا عنها فتقوى أبدانكم». ومن أجل تحديث الزراعة والنهوض الاقتصادي ينشط الخيال العلمي في الرواية أيّما نشاط. ففي الزهرة تسمّي الأليجورية العالم أردوم (أي: إرادة الله) الذي وَلَد القاضي مجدوم (أي مجد الله) الذي استنبت فاكهة جديدة. ومن الآلات والأدوات النقلية والزراعية وسواها، اخترع سكان الزهرة المركبات النورية (الضوئية) التي تسير بسرعة النور

(الضوء)، واخترعوا السابر، وهو الآلة التي تبصر ما في باطن الأرض والبحار، واخترعوا الآلة التي تعدِّل الهواء الحار والبارد للزرع (الكونديشن؟) فلا خوف من الصقيع والجليد والسموم والحرور. كما اخترع سكان الزهرة آنيةً تختلف أحوال السائل فيها باختلاف ألوانها، واخترعوا آلات وهو لكل عين (تبصر ولكل أذن لا تسمع، (والسماع) آلة «سلكية نسمع بها من بلاد بعيدة ما نريد إلا أسرار الناس ـ والمخاطب، وهو آلة لا سلكية أيضاً تضعها على الأرض وتضغطها، فتخاطب من تريد أينما كان. وها هو الإبداع العلمي والتكنولوجي قد حوّل نبوءات المخيلة الروائية إلى حقائق، عقداً فعقداً طوال قرن مضى، ولعله سيحوِّل ما تبقى من تلك النبوءات ـ ومنها ما سيلي ذكره ـ في وقت غير بعيد من القرن الحادي والعشرين.

يؤشر هذا النشاط التخييلي ـ بعد ثقافة الكاتب العلمية ـ إلى ما للعلم من شأو في أطروحات الرواية ومن ذلك ما يجيب به الأب على التماس الابن أن يعلمه كيف كانت حالة الإنسان الأولى في الأرض، وما ينصّ عليه الأب من أن آفة العلم هي الجاهلات من النساء، وما يدعو المرأة إليه في قوله: «تعلمي ليرى الرجال عظمتك».

ولا تفتأ الرواية تلح على العلم في المدرسة والتربية. وبالقدر نفسه هو توكيد الرواية على العقل. فالعلم والعقل عنوانان رئيسان للفكرية الروائية لدى ميخائيل الصقال، والتي تنسرب في سائر المنظومات الإصلاحية التي تتداولها الرواية، كما بدا فيما سلف، وكما يلي أيضاً فيما تسميه بالقتل العدواني والقتل السياسي والمدني العقابي في الأرض، أو ما ترسله في الرؤساء والرئاسة، وكذلك في التجارة والرباء والكثير من المسائل النفسية والأخلاقية كالتشاؤم والطمع والأحزان والحب والغيرة والحسد والاعتراض على الأحكام العقابية، مما تعدد الرواية من (خطيئات سكان الزهرة).

الخيال الألف ليليّ:

سيكون من الغبن بحق الخيال في (لطائف السمر..) إذا لم تدقق النظر في الفصل السادس من الباب الرابع، وعنوانه (في المطابع)، حيث تتنبأ الرواية بما صدقته ثورة الاتصالات والتكنولوجيا، وبما لا تزال تسعى إليه. غير أن الخيال في (لطائف السمر..) هو أيضاً خيال (ألف ليليّ)، نسبة إلى (ألف ليلة وليلة). ومن ذلك هو النوم في النوم، حين يقول الأب للابن: «نم قليلاً واسترح إلى أن أعود إليك، ثم مضى، فنمت، ولكن أيعلم القارئ ماذا رأيت؟». فالابن الذي يحلم في نومه بعد ظهيرة يوم 1901/8/16، نام في النوم، وحلم في الحلم بما يجيب به على سؤاله للقارئ: رأى نفسه يطوف في مدينة

القضاة، ورأى أباه عند قاضي القضاة يطلب لابنه (ثمرة اللذة) كي ينجو من الجزاء بعد نجاته من الأرض. فآكل هذه الثمرة لا تُغلَق في وجهه أبواب مدينة القضاة. ولما عاد الأب، أي لما انتهى الحلم الذي في الحلم ـ بالاحرى: حلم الحلم ـ رأى الابن بيد أبيه غصناً نضيراً يحمل ثمرتين شهيتين ـ أي لذّتين ـ كلٌّ منهما بحجم بطيخة، ولونها: كما تشاء. إن أردت الزرقة وذكرتها، ازرقّت الثمرة، وإن أردتها حمراء احمرّت... فإن لم تعيّن لوناً أبصرتَ لوناً بهيجاً لا تعرف له اسماً. ونقرأ: «فأخذ والدي ورقة من الغصن فإذا هي سكينٌ ماضٍ، وقشّر به لذة من اللذتين، وقطع قطعة، وناولني إياها، وقال لي: إن كنت تريد أن لا تأتثم فكلْ من ثمر اللذة».

في الخيال الألف ليليّ يتأسس ما في الرواية من الخيال العلمي. وعلى الرغم من أن نصيب الخيال يظل متواضعاً بالقياس إلى نصيب الفكرية، إلاّ أن هذا (اللعب) هو علاقة روائية مميزة لصنيع ميخائيل الصقال في (لطائف السمر...) ومن ذلك ما جاء في الشعر والشعراء، حيث عرّب الأب نثراً قصيدة في المحبة والمحبوبة لفتح الله النحاس الحلبي، وحيث أنشد الأب من شعره فتحيّر الابن، وفكر في سره: «لقد طال هذا الحلم» فأدرك الأب السرّ وسأل: «ما بالك مللتني؟»، فخجل الابن، لكنه قال: «أراك تنشدني من شعري الذي نظمته بعد موتك». ولئن كان الأب سيرد» طمعتْ نفسك في شعري فلا بأس عليك إذا ادعيته» لكنه سيضحك ويقرّ بأن ما ينشده هو من شعر الابن، فهل هي الإشارة اللعبية هنا إلى أن الأب والابن واحد، وإنما اشتق ميخائيل الصقال من نفسه راوياً للرواية هو أبوه أنطوان الصقال؟

على الرغم من هذا النشاط التخييلي يفتقد موسى بيطار في تقديمه لطبعة 2006 من (لطائف السمر) الخيال الخصيب الذي يحلق بقارئه تحليقات خفاقة الجناح في كل أرجاء الكون، كما يفتقد الخيال الوثاب الذي يقفز قفزات واسعة في دنيا فسيحة الأرجاء. ويعلل موسى ما يراه من اختلال فني في الرواية بانغماس الصقال بالواقع وهنا يبدو لي أن تقديراً لاختلال صائب، بعكس تعليله وفي غير التحليق في أرجاء الكون، والقفزات الواسعة في الدنيا، وهو ما تحقق في الرواية، من المريخ إلى حلب أو ألبوريس. أما الاختلال فيتلامح في إثقال المتناصات الشعرية الطويلة على الإيقاع السردي، الغزارة الفكرية التي أصابها الرهق كما أصابت الرواية بالرهق منذ الباب السادس حتى النهاية.

اللغة:

في الزهرة، بحسب الأب، لغة واحدة لا ثانية لها، والكلام لا يحتاج التأويل، والناس لا يتنافسون في الألفاظ والمعاني، بل في المباني. وإزاء هذا (المثال اللغوي) تردد (لطائف السمر...) الدعوة إلى اللغة الواحدة في الأرض، سبيلاً إلى توحيد الأديان والبشر، فـ«تعدد اللغات يحدث البلبلة». وعلى الرغم من ذلك يمتدح الأب اللغات الأجنبية، وهو كان يتقن الإنكليزية، مقابل انتقاده المرير للغة العربية ولتعليمها في المدارس. فاللغة العربية، كما يتنبأ الأب، ستمسي لغة متروكة، ولو لم تكن من اللغات الدينية لصارت تشبه اللغة القبطية التي أمست لغة قديمة مهجورة. أما علّة العربية فتكمن في صعوبتها وفي استغلاق قواعدها على فهم الطلاب. يقول الوالد: «ومن البلية عندكم أن القارئ لا يشتهي أن يراجع كتاب لغة لكثرة ما فيه من الشروح والنقول والآراء والأقوال والروايات والحكايات المملة والمختلفة والمتناقضة». ويمضي هذا النقد إلى الترجمة، فيقول: «أما العربي المتأنق في الألفاظ فلا تروقك معانيه إذا نقلت إلى غير لغته كما راقتك قبل نقلها». ولدرء ذلك يدعو الوالد إلى تأسيس جمعية من جميع البلاد العربية لتكون مرجعاً في الترجمة والتعريب، ولتكشف المخبأت في اللغة.

على مستوى لغوي آخر، يتعلق بلغة (لطائف السمر..) نرى الوالد في ختام الرواية يوصي ابنه بأن يثبت كل ما سمعه منه في كتاب يطبعه لتعم الفائدة. وفي الوصية: «إني أريد أن لا تكتب بلغة عالية كما يفعل أكثر العرب فيحبسون تآليفهم عن العامة مع أنها أولى بها من الخاصة، فقلت: أخشى أن أجمع بين العامي والفصيح فلا أدرك الغاية. فقال: اكتب الكلام والعبارات التي دارت بيننا نفسها، وهي لغة قريبة من الفهم ما خلا بعض كلمات لا بد منها فاجعل لها شرحاً». وقد شرح الابن ما ندر من المفردات، فالمعاظلة نادرة في الرواية. وإذا كانت تؤشر إلى المكنة اللغوية القاموسية للكاتب، ففي الرواية ما يؤشر بقوة إلى تأثر الكاتب المسيحي بالأسلوب القرآني في الوعظ، على غرار هذا المثال الذي يذهب إلى أن القضاة لا يتقوفون أحداً في المجالس ولا يستهجون، أي لا يركب واحدهم رأسه، ومن هذه الصيغة (...ون) كثير جداً.

•••

ما كادت (لطائف السمر..) تصدر حتى أخذت السهام ترشقها، وقد بلغت حدّ تكفير الكاتب بدعوى التجرؤ على المؤسسة الدينية، ولما تضمنته من نقود ومن اقتراحات تتعلق بالحياة الروحية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية... ولأن ميخائيل الصقال كان

يتوقع ذلك الهجوم على روايته وعليه، فقد استشار آخرين فيها قبل الطباعة، وهذا ما جعله يهمّش الفصل السابع من الباب الثامن بنفي إيمانه بالتقمص أو التناسخ، إلى أن يقول مخاطباً القارئ: «فكل ما يمر بك مما لا يطابق الدين القويم إنْ هو إلا خواطر شعرية سانحة، ورُبَّ شعر في نثر ونثر في شعر، والمقصود هو تهذيب الأخلاق وتفكهة القارئين». وقد ردّ الصقال في كتابه (العبر) على من سلقوه وسلقوا روايته، فكتب أنه قد بلغه في القاهرة أن جماعة من المتحذلقين، وبينهم مراوغون ومنافقون، عابوا الرواية ـ الكتاب وتنقصوا الكاتب وكفّروه، والتمسوا من سيد عظيم مطاع أن يمنع قراءة الكتاب ـ الرواية، فقال لهم: «إن الكتاب رواية خيالية وأنتم تريدون أن تجعلوا الخيال جسماً والمجاز حقيقة، وهذا خطأ مبين. فلما سمعوا كلامه تخاذلوا وارعووا».

إنها المحنة القديمة الجديدة التي تتلاشى، مهما يكن من أمرها، ليبقى الفكر والفن النقديين، كالذي قامت به رواية (لطائف السمر..)، وهو ما يجعل حضورها اليوم أكبر ضرورة وإلحاحاً. ومن أجل ذلك تأتي هذه الطبعة في سلسلة الكتاب الشهري لمجلة (الدوحة).

نبيل سليمان

المصادر:

1 ـ ميخائيل الصقال: لطائف السمر في سكان الزهرة والقمر أو الغاية في البداءة والنهاية، ط1، القاهرة 1907.

2 ـ كتاب العبر: المطبعة المارونية، ط1، حلب، 1911.

المراجع:

1 ـ جان داية: صحافة الكواكبي، مؤسسة فكر للأبحاث والنشر، ط1، بيروت 1984.

2 ـ شاكر مصطفى: محاضرات عن القصة في سورية حتى الحرب العالمية الثانية، معهد الدراسات العربية، ط1، القاهرة 1957.

3 ـ فرنسيس المراش: غابة الحق، دار رياض الريس، ط2، لندن 1989.

4 ـ قسطاكي الحمصي: أدباء حلب ذوو الأثر في القرن التاسع عشر، المطبعة المارونية، ط1، حلب 1925.

5 ـ عائشة الدباغ: الحركة الفكرية في حلب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، دار الفكر، ط1، بيروت 1972.

6 ـ محمد راغب الطباخ: إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، المطبعة العلمية، ط1، حلب 1926.

مقدمة المؤلف

نحمد الله تعالى جزيلاً. بكرة وأصيلاً[1]. ونشكره عدد أنفاسنا على ما علّمنا وأوصى. حمداً وشكراً نتقرب بهما إلى عرشه الأقصى. ونسبّحه تسبيحاً طويلاً. تعظيماً له وتبجيلاً.

أما بعد، فهذا كتاب فيه من طلاوة المجاز وملاحة المرسل وحلاوة الاستعارة، ما يهذب الأخلاق ويروض النفوس وينقّي الضمائر. وفيه من لطافة الكناية وحسن التورية ورقّة الإشارة، ما ينوّر البصائر ويرقي الأفكار ويطيّب السرائر: سميته بالغاية في البداءة والنهاية: فأقبلوا عليه تجدوا فيه فوائد وآداباً ألقاها علي والدي بعد رحيله عن هذه الدنيا فكانت عجباً عجاباً. وتجدوا فيه من الحكم والمواعظ، ما لابدّ منه للحكيم والواعظ.

وقد قسمته إلى تسعة أبواب:

الباب الأول يشتمل على ثمانية فصول.

الباب الثاني يشتمل على خمسة عشر فصلاً.

الباب الثالث يشتمل على خمسة فصول.

الباب الرابع يشتمل على ثمانية فصول.

الباب الخامس يشتمل على خمسة عشر فصلاً.

الباب السادس يشتمل على تسعة فصول.

الباب السابع يشتمل على خمسة فصول.

الباب الثامن يشتمل على اثني عشر فصلاً.

الباب التاسع يشتمل على ثمانية فصول.

1- ـ الأصيل: الوقت بعد العصر إلى المغرب أو العَشِيُّ.

البـاب الأول

الفصل الأول
_ من الباب الأول _
في ترجمتي

أنا ميخائيل بن أنطون الصقال، ولدت بجزيرة مالطا في اليوم السادس عشر من شهر آب، سنة اثنتين وخمسين بعد ثمانمئة وألف ميلادية.

فلما أفطمتُ[1] رحل بنا والدي إلى مدينة حلب فجعلها محطَّ رحاله. وفي السنة العاشرة من عمري أقرأني اللغة العربية فأجهدت النفس في درسها حتى أصبت منها سهماً. ثم وجدت من نفسي ارتياحاً إلى النظم والنثر فراوحت[2] بينهما، أوصل ليلي بنهاري إلى أن اعتلّ بدني من الإجهاد.

وبعد هذا اتخذت الإقراء حرفةً لي، فأخذ بعض الناس يُعيّرونني، لأنهم يعدّونها دنيئةً تحطّ من قدر صاحبها، فتركتها كرهاً عني لا اختياراً لأنها من أشرف الحِرَف وأعلاها منزلة. ولكنَّ الناس لا يعلمون أنَّ الأستاذ الصادق يهذّب الأخلاق ويؤدّب النفوس ويعدّ للمستقبل رجالاً صالحين مثقفين، يدخلون المجتمع الإنساني فيصلحونه بمعارفهم وآدابهم.

على أنني لم أنقطع عن المطالعة، وقد ازددت رغبة في الشعر حتى أحسنت نظمه

1 ـ أفطم الرضيع: دخل في وقت الفطام وحان له أن يفطم.

2 ـ رَاوَحَ بين العملين: تناول هذا مرةً وهذا مرة.

وصرت أُحسب في عداد شعراء هذا الزمان. غير أني لم أقبل جائزة، وقد حذوت بذلك حذو والدي.

وفي أواخر سنة 1896 رحلت إلى الديار المصرية، فرأيت في مدينة الإسكندرية أخلائي وأصدقائي السادة نقولاكي وعزيز وباسيل سميان يريدون أن يصدروا من مالهم مجلة بمساعدة الكاتب الفاضل السيد يوسف شلحت، فاختاروني مديراً فأنشأنا مجلة «الأجيال» الشهيرة في مدينة القاهرة. ولكنني بعد أن مارستها زهاء سنة ونصف دُعيت إلى حلب فلم أرَ إلا إجابة الداعي.

أخلاقي

لقد منّ الله تعالى عليّ فخلقني دمث الخلق حسن السلوك محباً للوطن ودوداً غيوراً ثابتاً على رعي الولاء. أؤثر صديقي على نفسي وأدرأ عنه الشبهات ما استطعت. لا أقبل فيه لومة لائم. أتغاضى عن زلته وأكتمها كتماناً شديداً حتى يعتقد من نفسه أنني لم أنتبه إليها وأحمل على النفس ضيمها. أخفض له جناحي وأجتهد في مجاراته، كأنَّ خلقي من خلقه فلا أخالفه إلا فيما لا يجمل بنا، وأنا في ضمن هذا لا أغفل عن نصحه بعبارات رقيقة يُشربها ذوقه فلا ينفر مني بل يرتاح إليّ ويأنس بي. ألازمه أيام شدته وأواسيه وأعزّيه. إذا قصدني قاصد قدَّمتُ حاجته على حاجتي لا أبتغي منه عوضاً، فإذا عانيت في معاونته مشقة خفيتها عنه لأني أعتقد أنَّ التعاون فرض على بني الإنسان لا مِنَّة لهم فيه.

لا أطمع في حطام الدنيا ولا أرغب في التفرد بالمنفعة. أقنع باليسير. لم أجعل للحسد في قلبي محلاً، فكلما أثرى إخواني ابتهجتُ بثروتهم وتمنيت لهم الزيادة.

لا يهمني من دنياي غير الفقير، فكنت أساعده وأسعى في تخفيف مصيبته بقدر الاستطاعة، فإذا تمكنت من معاونته وإفادته بتّ ليلتي مسروراً كأنني في زهرة الدنيا ونضارتها. إذا رأيت يتيماً أو عجياً أو لطيماً أو أيماً أو أرملة[1] أو غريباً بائساً اغتممتُ.

أُقْدِمُ إذا بدا لي وجه النجاة، فإذا أقدمتُ لا أنثني، أصبر على وثبات الأيام بشجاعة وثبات وأعلّل النفس بأنَّ الدنيا ليست بذات قرار فلابدَّ لي من فراقها إلى أحسن منها.

1 ـ اليتيم من الناس: من فقد أباه ولم يبلغ الحلم. فإن مات الأبوان فهو لطيم، وإن ماتت أمه فهو عجيّ، والأيم: من لا زوج لها بكراً أو ثيباً، والأرملة: المحتاجة أو المسكينة.

وأعتقد أننا خلقنا للعذاب فيلزمنا أن نوطد النفوس على معاناة الشدائد والمكاره، وإلا قتلنا الغمّ.

أكره النميمة وأسعى في إخماد نار الفتنة فأقرّب القلوب المتنافرة. أمقت البطالة، أكتم السرَّ كأني قد نسيته، فأصبحت من حذر الإفشاء قليل الكلام لئلا يفيض الصدر على غير انتباه مني، فرأيت السكوت أكتمَ للسر لأنَّ المكثار يعثر وهو لا يدري. لا أدخل مداخل السوء لئلا أتهم بنقيصة.

أريد من الإنسان العمل الحسن فلا يخطر ببالي معتقده. أقبلُ العذر وأحبّ الصفح والحلم، وأمّا الذين غلبت عليهم أهواؤهم فاعتادوها، والذين جُبلوا على خلقٍ ذميم فأرثي لمصابهم ولا أؤاخذهم بل أتمنى لهم الإصلاح والخير، لأنهم لو استطاعوا لجعلوا نفوسهم أحسن الناس فلا تصدر أفعالهم إلا عن أخلاقهم.

لا أجد في الكريم الحسن الطبع مزية له تذكر فإنَّ خلقه الذي فُطر عليه (من غير أن يكون له به فضل) يلائمه ويساعده على الحسنات. إنَّ الفضل العظيم لمن قمع نفسه وأكرهها على اجتناب السيئات إذا كانت من سجيته.

مساوئي

لقد كبرتْ عليّ نفسي فصار الإباء فيّ عظمة. فإذا لسنني[1] أحد وأزرى بي نفرت وكدت أعدو طوري وشتمته، بيد أنَّ شتمي لا يستحيا من استماعه.

ما ندمتُ على شيء في حياتي قدر ما ندمت على لطمة رجل مسن استخفّ بي، فلم تمر على اللطمة دقيقة حتى شعرت بخطائي فصبرت بعد هذا على إهانته وسبه اعترافاً باعتدائي عليه، فأردت أن أصون نفسي من الإهانة فأهنتها بشراستي. والذي يؤلمني أنَّ الرجل لم يكن ليقوى على ضربي فيتشفّى من غيظه فتركته منكسر القلب.

ومن هذا القبيل إذا جادلتُ واستعان المجادل عليَّ بالمواربة والمماحكة غضبت، فأضعت برهاني بغضبي وانتهى بي الغضب إلى الخصام.

إذا أعلمني أحد أقاربي أو أحد أصدقائي أنَّ زيداً اعتدى عليه ثرت من غير أن أتروّى حتى لا يستطاع تسكيني، فإذا تُركت بضع دقائق عدتُ إلى الحلم.

1 ـ لسن فلاناً: أخذه بلسانه وذكره بالسوء.

الفصل الثاني منه
ـ في ترجمة والدي ـ

وُلد والدي في اليوم الثالث من شهر آذار 1824. كان يعرف من اللغات العربية والسريانية والإنكليزية والتركية معرفة تامة تكلماً وكتابة، ويعرف كثيراً من العلوم والفنون العصرية أَلقيتْ إليه من مدارس مالطا ومن عين ورقة بلبنان ومن حلب.

وكان ناثراً محسناً بارعاً فصيحاً. قوي الحجة مسموع الكلمة. صادق الرواية. رزين المجلس. وكان شاعراً مجيداً له ديوان شعر وروايتان.

وكان صياداً ماهراً وموسيقياً أطرب بأكثر المطربات العربية والأعجمية وفنونها في إيقاع حسن، ومهندساً اشتهر بالأعمال اليدوية.

وكان باراً بأهله وجيرانه، عُرف بالنزاهة في معاملاته. وذُكر أيضاً بالأمانة ورد الحقوق إلى أربابها، فإذا حكم عدل وأنصف غير متردد. يحب المساواة. اجتهد في إزالة خرافات كثيرة من عقول كثيرين. وهو أحد رجال النهضة الأدبية الأخيرة في هذه الأمصار فرغّب أهلها في المعارف وحبّب إليهم المجلات العلمية والجرائد فتثقف كثيرون منهم.

وقد كان رصيناً ثابت العزم سبّاق غايات. لا يبارى في مضمار، ولا يستصعب صعباً، إذا طلب أدرك غير هياب ولا محجم.

شهد مواقع من حرب القرم سنة 1854، وهو الترجمان الأول لقائد الجيوش الإنكليزية حينما قامت بريطانيا العظمى تتنصر للدولة العثمانية العلية. وفي الجملة كان من الرجال الذين لم يقدرهم الزمان حق قدرهم.

لما دنت ساعة والدي الأخيرة سألته عن معتقده فأجاب: إنني أعتقد بل أشعر من وجودي بأنَّ الله تعالى موجد للكائنات وهو يجازي خلقه بحسب أعمالهم. فقلت له: ألتمس أن تعدني بأنك إذا ارتحلت عن هذه الدار تتجلى لي وتخبرني بما ترى وما تعلم، فقال: إذا استطعت فعلت وسأفعل إن شاء الله تعالى.

وبعد هذا أوصاني بحفظ وصايا الله لفظاً ومعنى مع حسن تأمل وتفهم، ثم احتضر[1]، وآخر كلمة قالها «الموت صعب» وكان ذلك في اليوم الثامن من شهر كانون الأول سنة 1885.

1 ـ احتضر الرجل على المجهول: حضره الموت فهو محتضر أي قريب من الموت.

الفصل الثالث منه
ـ في رؤياي لوالدي ـ

لما كان اليوم السادس عشر من شهر آب سنة إحدى وتسعمئة وألف وهو اليوم الأخير من تسع وأربعين سنة مرت عليّ في هذه الحياة الدنيا، وهي السنة السادسة عشرة من وفاة والدي، جلست بعد طعام الظهر وأنا في الدار وحدي أفكر في الكون والخليقة حتى حرت في أمري، وأخيراً نعستُ وغفوت[1] فعاينت والدي مقبلاً عليّ وهو في بهاء ونور لا يستطيع بشر وصفهما، فخررت لذقني أستر بصري براحتيّ لئلا يخطفه نور محياه. فدنا مني ولمسني بيده ورفعني، فتلذذت بلمسه تلذذاً لم أشعر بمثله كل حياتي. ثم أمرني أن أجلس فجلست في الحال لا أخشى تأثير نوره فيّ مبتهجاً برؤيته، وقد لاح لي أنه كبير الجثة ضخمها عريض الأكتاف. طويل القامة في حجم عشرة رجال. أما حسنه فلا تجشمني وصفه لأنه ليس من المستطاع أن أعرض نفسي له. فإذا شئت قلت على سبيل التقريب من باب المجاز لا الحقيقة أنه بينه وبين الإنسان من الجمال والأبهة أكثر مما بين الفتاة الحسناء والقرد الهرم.

فرميت بنفسي بين يديه أقبلهما، فضمني إلى صدره وقبلني ثلاثاً مع أنني لم أذكر أنه قبلني قبل ذلك مرة واحدة، ثم إنه أجلسني إلى جانبه وقال: ألا تذكر وعدي لك ساعة احتضاري أني أظهر لك بعد رحيلي وأعلمك كل ما أرى وأعلم؟ ألم تلتمس مني هذا؟ فقلت له: أتذكر ولكن لماذا تركتني نحو ستة عشر حولاً؟ فأجاب: اعلم يا نجلي أنه لما فاظت[2] نفسي حملتها مركبة برقية فمرت بها مرور البرق تقصد السماء الثالثة حتى وصلت مدينة القضاة وهي أعظم مدينة في الزهرة. فتذكرت أنني وصلت إلى مدينة هي مسقط رأسي، وأنني من سكانها يقيم بها أهلي وأصدقائي. وهناك دخلت نفسي في جسم أرقى من جسمي الأرضي، ولكنه دون أجساد سكان الزهرة فتيقنت أنني معاقب لا يحق لي ولا يسمح بأن ألبس الجسد الذي يلبسه البار.

---

1 ـ قال الأزهري: غفا الرجل غفوة إذا نام نومة خفيفة. وفي الحديث فغفوت غفوة أي نمت نومة خفيفة. قال: وكلام العرب أغفى وقلما يقال غفا.

2 ـ فاظ الرجل: مات وفاظت نفسه تقيأها أي قذفها من جوفه.

ثم أدخلني بعض القضاة المدينة فوجدت أقاربي وخلاني يباصرونني وهم في خجل واستحياء من جسمي الذي هو جسم الأثيم المغضوب عليه.

وبعد دقائق أوقفني القاضي في مجلس القضاة الأصغر، فإذا هو قصر عالي الأركان فسيح الجوانب في روضة غناء بها من الثمار الشهية ما لم يرَ مثله آدم في فردوسه. وكانت المياه المختلفة الألوان تتدفق ولها خرير يروق السامعين.

وهناك أبصرت ثلاثة من القضاة الشيوخ في أكيسة تمتاز عن لبوس الأهالي. وهم جالسون بعضهم بجانب بعض. فالجالس في الوسط مكتوب فوق رأسه بأحرف كأنها نارية «الحق» والجالس عن يمينه مكتوب فوقه «العدل» والجالس إلى يساره مكتوب فوق هامته «الحكمة».

فأمرني الجالس في الوسط وهو أكبرهم بالإصغاء والتفهم أولاً ثم بقراءة هذه الكلمات الثلاث، فقلت له بعدما ائتمرت أمره: إني تصورت الآن أمامي كل آثامي وجميع كبائري، ولكني أستغيث برحمة ربي وعفو مولاي أنا أسير الوصمة[1] وعبد الشهوة. لقد جنيت على نفسي فاستوجبت هذا الجسم. لقد أسأت إلى خالقي الذي أحسن إليّ. لقد خالفت أحكامه وشرائعه، يا ويلي ويا فضيحتي من هذا الموقف الرهيب، يا لهف قلبي على ذوي قرابتي الذين تواروا عني خجلاً واستحياء. آه لقد عراني العار وأخزاني الخزي. عفوك يا إلهي عفوك يا كريم.

فلما أتممت هذا الكلام تراءى لي في صدر المجلس لوح كُتب فيه ما يأتي «لقد كانت توبتك غير كافية لتبريرك فَحُكِمَ عليك بأن تقيم بمدينة التكفير في القمر عشرين سنة. فإذا أصلحت نفسك بتوبة صادقة قبل مضي هذه المدة نُظِرَ في أمرك».

لما انتهيتُ من القراءة قال لي القاضي الأكبر: تصبّر ولا تيأس من رحمة الله تعالى ولا تفتر عن حمده وشكره. فخرجت من المجلس وأنا لا أقوى على التأمل بل ألمح لمحاً، يعذبني الخجل ويؤلمني العار حتى وصلت باب المدينة المعدَّ لخروج المذنبين منها فركبتُ المركبة البرقية فوقفتْ بي بعد نحو دقيقة أمام رتاج[2] مدينة التكفير

1 ـ الوصمة: العار والعيب والنقص والفتور والكسل في الجسد.

2 ـ الرتاج: الباب المغلق وفيه باب صغير. والخادعة: الباب الصغير في الباب الكبير وهو الذي تسميه العامة بالخَوْخَة.

فدخلت خادعته وأنا كئيب حزين ضيق الصدر موجعُ القلب دامع العين محني الظهر ترتجف أعضائي من هول دخولي ومن هول ما رأيت.

لقد رأيت في غرفتي التي أُغلق بابها عليّ جميع آثامي وكل كبائري مجسمة، أبصرت كثيراً من أولئك الرجال والنساء الذين شاركوني في المعاصي وهم بأجسامهم الآدمية.

هذا يؤنبني وذاك يعنفني. هذه تتظلم وتلك تشمت. فكان لي من ذلك عذاب شديد ليس في وسعي وصف بعضه. وحسبي أن أقول لك إنك كنت سألتني عن حالتي دقيقة فراقي الأرض. فكانت كلمتي الأخيرة: «الموت صعب» لأني عانيت ألماً لا كالآلام ووجعاً لا كالأوجاع كلها، ومع هذا فإنَّ عذابي في غرفتي هذه أشد عليّ وأعظم من تلك الساعة التي خرجت بها روحي من جسمي. والذي كان يزيد في تعذيبي هو أنني كنت أتصور سكان مدينة القضاة وهم في غبطة وسرور. فمكثت على تلك عشر سنين وأنا أصلي وأستغفر الله تعالى من ذنوبي ليلاً ونهاراً.

وبعد هذا أتوا بي إلى علّية في روضة فيحاء فيها من الأزهار والثمار ما تطيب به النفوس وتقر العيون. فزالت عني تلك المخاوف والمناظر المبكتة والصور المعذبة وبتُّ في راحة وسكينة إلا أنه كان يؤلمني ابتعادي عن سكان الزهرة وخصوصاً مدينة القضاة.

أما شغلي فقد كان التعبد والاستغفار والإكراء[1] فشعرت بعد هذا بأنَّ الله تعالى اقتبل توبتي هذه الثانية الصادقة وندامتي الكاملة الخالصة لأنَّ العدل اقتص بهما للحق مني.

لما كان اليوم الأخير من السنة الخامسة في سجني بغرفتي الثانية بشروني بالعفو الكريم، فألبسوني جسدي الذي كنت ألبسه في الزهرة، قبل إنزالي إلى الأرض ثم علوت مركبة الأبرار فسارت بي تقصد المدينة العظمى[2] حتى إذا دنوت منها خرج كل السكان إلى استقبالي يتلقونني بالأزاهير والرياحين، وهم يترنمون بالنشائد الخصوصية المنظومة للقاء التائبين.

وقد كان في مقدمة المستقبلين رئيس المحكمة العمومية التي كنت فيها قاضياً

1- أي مدينة القضاة.

2 ـ أي مدينة القضاة.

وذلك قبل إنزالي إلى الأرض فضمني إلى صدره وقال لي: لقد أمرني قاضي القضاة أمراً من عند الله سبحانه وتعالى بأن أعيدك إلى منصبك. فدخلنا المدينة وقد زُينت لي زينة إذا وصفتها لأحد لا يدرك لوصفي معنى، منها أنَّ الناظر يبصر المعبد الأكبر قائماً في الهواء والخلق يسبحون الله في أعلاه ويرتلون وهو وكل من عليه نور في نور. تخرج منه طيور تختلف ألوانها اللامعة وهي تسبّح الله وتشكره عني. وكنت أراها توكب[1] وتقبض جناحها[2] وتتكركر[3] وتنزل عليّ قائلة بلسان واحد وكلام فصيح: «نهنئك بعفو الله عز ثناؤه إنه رؤوف بعباده»، ثم تدنو من الأرض وهي تقول: «يا أيتها الخليقة بشري القاضي العظيم بعفو ربه إنَّ الله تعالى غفّار الذنوب»، ثم تهفو[4] وتحلّق[5] وتصفّ أجنحتها في السماء[6] وبعد ذلك تجثم[7] وتهدهد[8] ونحن نسمعها تقول: «يا أيها الذين أحبكم الله تعالى فخلقكم سبّحوه معنا واشكروه على عفوه وغفرانه إنه توّاب رحيم».

فلما وصلنا إلى المحكمة العمومية أُجلست في كرسيّ وبعد طرفة عين أو قولك «يا الله» أقبل قاضي القضاة بجماعته فسلّم وسلّموا عليّ. وكان قد دنا وقت الصلاة فاغتسلنا ثم تقدمني إلى المعبد الأكبر والخلق وراءنا فصلّينا وشكرنا وسبّحنا.

وبعد هذا مضيت إلى داري وأنا مسرور بعفو ربي مبتهج بمنّه وكرمه، يكلمونني فلا يسمعون مني غير حمده وشكره.

أقول: إنني كنت أُدهش من هذا الكلام الذي أشكل عليّ معظمه فأهم بسؤال والدي عنه فيقول لي في الحال: تمهل عليّ فأعلمك كل ما تريد أن تسألني عنه.

قال: وبعد هذا تذكرت وعدي لك فالتمست الإذن من قاضي القضاة فأذن لي في

---

1 ـ أوكب الطائر: نهض للطيران. وقيل تهيأ للطيران.

2 ـ قبض الطائر جناحه: جمعه. وقبض الطائر وغيره: أسرع في الطيران والمشي.

3 ـ تكركر الطائر: تردى في الهواء.

4- هفا الطائر بجناحيه: خفق وطار

5 ـ حلّق الطائر بتشديد اللام: ارتفع في الهواء واستدار.

6 ـ صفّ الطائر جناحيه في السماء بتشديد الفاء: بسطهما ولم يحركهما.

7 ـ جثم الطائر والنعامة والخشف والأرنب واليربوع: لزم مكانه فلم يبرح أي تلبد بالأرض. وقيل الجثوم بمنزلة البروك للإبل.

8 ـ هدهد الطائر: قرقر.

شيء ونهاني عن آخر، وها أنت جالس في حضرتي. فقلت له: أيجوز لي أن أسألك هل نحن في الأرض أم في الزهرة؟ فقال: لسنا في إحداهما وإنما نحن بينهما لأنه لا يسمح لي بأن أعود إلى الأرض سجن العاصين والمخالفين، ولا يؤذن لك في الدخول إلى الزهرة لأنها مقام الأبرار الصالحين.

الفصل الرابع منه
ـ في المرّيخ ـ

قال والدي: إنَّ الله تعالى أوجد الكائنات في الأزل فكان منها المريخ وهو أزهى وأبهى وأسمى وأرقى موضع خلقه الله تعالى. وقد جعل الجنة في أحسن روضة من جنانه. وبعد هذا خلق ذكراً وأنثى فتناسلا إلى أن بلغ عدد العباد نحو مئة ربوة[1]. فتمردت عليه جلّ جلاله أسرة من الأسر العظيمة فأسكنها الزهرة عقاباً لها.

ثم قال والدي: لا يجد سكان المريخ تعباً ولا مرضاً ولا غماً ولا هماً. إنَّ أكلهم وشربهم وكل ما يحتاجون إليه بين أيديهم. أعمارهم من خمسة آلاف إلى عشرة آلاف عام من أعوامكم، فإذا انقضى أجل أحدهم أُرسل إلى الجنة في أبهة واحتفاء عظيمين جداً، فبالغْ ما استطعت في وصفهما ولا حرج عليك ولا جناح، إنَّ سكان الجنة يتمتعون بكل لذة من دون أن يمسوا شيئاً.

الفصل الخامس منه
ـ في الزهرة ـ

قال والدي: إنَّ الزهرة رياض رائقة. وغياض شائقة. ذات أشجار باسقة[2] وأزهار بالأطياب عابقة. تتدفق فيها أنهار تختلف ألوان بعضها عن بعض وتجتمع إليها

1ـ الربوة: الجماعة نحو عشرة آلاف.

2ـ بسق النخل: ارتفعت أغصانه وطال.

المياه من عيون رقت وصفت وراقت الشاربين. يعسل[1] ماؤها فتبصر عليه حروفاً تأويل كلامها إنا جعلناك شفاء للمتقين.

يهب هواؤها نسيماً بليلاً عليلاً. لا بارداً قارساً ولا حاراً يابساً. فكلما استنشقناه تجددت فينا الحياة.

أما جبالها وأوديتها ومرتفعاتها ومنخفضاتها فإنها مزينة بالأزاهير ذوات الروائح الذكية التي تأخذ بمجامع القلوب سروراً وابتهاجاً، كلما شممناها قويت أبداننا ونشطنا إلى العمل.

في الفصل السادس منه
ـ في المدن والطرق ـ

قال والدي: إنَّ مدننا كثيرة غير أننا لا نحب الإقامة بها طويلاً بل نفضل عليها الجبال ونفضل عليها القرى في البراري الواسعة فلا نتضايق ولا نتزاحم في البلاد.

الأمان سائد أينما ذهبنا. لا معترض يعترض ولا منازع ينازع. كيفما نسر نروّح قلوبنا بالحدائق والجنان والغياض والرياض والأنهار والجداول والعيون.

أما مدنكم في الكرة الأرضية فقد غصت بكم وضاقت عليكم حتى ضاقت بها أخلاقكم. تحيط بها أسوار من المنازل والحوانيت والمخازن عالية الأركان تحجب عنها نور الشمس وتمنع الهواء النقي. إنَّ مدنكم قليلة المياه لا تجري فيها الأنهار فقلّت النظافة عندكم، فإذا ابتلي أحدكم بعلّة سَرَتْ إلى غيره وأنتم لا تحتاطون بل تقولون هذا قضاء الله تعالى، إنَّ الله لا يريد بعباده شراً لو تعلمون.

إذا دخل أوروبي مدنكم ظنها مأوى الحيوان لكثرة ما فيها منه وأنتم لا تميزون.

مخازننا قليلة لقلة احتياجنا إليها ولذلك لا نسمع جلبة ولا صرخة وأنتم تجلبون وتصرخون.

طرقنا مستقيمة في فساحة عظيمة فلا نكاد نعرف طولها من عرضها، ونحن في مسيرنا نتخذ الجهة اليمنى فلا نتواجه ولا نتصادم.

لا نرى صبياناً فإنهم مقيمون بالبيوت أو هم في المدارس ولا نرى شيئاً تعافه النفوس بل نرى النظافة والإتقان. نبصر المياه النقية الصافية جارية في جميع الطرق

1 ـ عسل الماء: حركته الريح فاضطرب.

العمومية والخصوصية وهي تصب في أنهار سريعة الانحدار والجريان فلا تجتمع إلى مناقع فتأسن[1] وتنتشر منها الأمراض الفاتكة.

أما طرقكم القديمة المبلّطة التي تعثرون فيها لضيقها فهي خير لكم من طرقكم العريضة الحديثة غير المبلّطة التي نحسبها مفاوز يثور غبارها عليكم وأنتم تتنزهون، فتعودون إلى أماكنكم وقد امتلأت منه أجوافكم فتعرضون عن الطعام ولا تقبلون.

لقد كثرت عللكم بطرقكم وأنتم لا تدركون فإذا لم تتداركوا نفوسكم بتبليطها ولو بنصف أموالكم ضعفت أبدانكم وفسدت بناكم[2]. إنَّ طرقكم لتجني عليكم فكيف فيها تسلكون!

تسير الخليقة منا هادئة مبتسمة. يحيّي كلٌّ أخاه ببشاشة ووقار، فيا ليتكم بنا تقتدون.

عندنا السلام فلا جدال ولا خصام. لدينا الراحة فلا تعب ولا عناء. هناك الترفة[3] والغدنة[4]، هناك الرفاهة والعيش الرغد. غير أنَّ هذه النعم لا تترفنا ولا تبطرنا بل نحن نجفن نفوسنا[5] ونكفها عن المحارم.

يسأل بعضنا بعضاً عند التحيات: هل تريدون مساعدة؟ هل تبتغون مدداً؟ هل تضطرون إلى شيء؟ فيجيبون مثلاً: إننا نبني داراً أو نجدد بهواً أو غرفة فنتسابق إلى تقديم معدات البناء والتشييد بهمم عالية وقلوب نقية. ونشتغل ونحن نتمازح تمازحاً أدبياً لا ينتقل بنا إلى الجد. أو نترنم بالنشائد التي تذكر بها مآثر مشاهيرنا وفضائلهم في تساعدهم وفي وجوب تعويد أبدانهم النشاط وفي الجد والعمل مع حسن إتقان ودقة إحكام إلى غير ذلك.

فإذا لم يكن لأحد شغل أو عمل يلهيه ويمرنه ذهب إلى قاضي الحي الذي يقيم به فيشغله بتمريض[6] مريض أو يرسله إلى معمل يشتغل به من غير أن يجهد لأنه

1 ـ أسن الماء: تغيّر طعمه ولونه وريحه.

2 ـ جمع بنية وهي الفطرة.

3 ـ الترفة: النعمة والطعام الطيب.

4 ـ الغدنة: النعمة واللين.

5 ـ جفن نفسه: منعها عن الخبائث.

6 ـ مرّض فلاناً تمريضاً: أحسن القيام عليه في مرضه وتكفل بمداواته.

من العار أن يقيم يوماً واحداً بطالاً خوفاً على نفسه من المفسدة، فإنَّ من يبطل من عمل فسد قلبه، ولذلك نتساعد برغبة ونشاط لا نسأل بدلاً ولا عوضاً كأننا كلنا أحباء وأصدقاء مختارون نتبادل المنافع. إنَّ الخلق عندنا في قناعة فلا يتهافتون على حشد الذهب والفضة ولا يطمعون، ولا ينهب[1] بعضهم بعضاً وليس فيهم حرض[2] ولا نمّام ذميم.

في الفصل السابع منه
ـ في الدُّوْر ـ

قال والدي: إنَّ دُورنا نظيفة فسيحة يبعد بعضها عن بعض. لا يجتمع أولادنا فيتخاصمون تخاصماً يتصل إلى الأمهات فالآباء.

نقيم بغرف متسعة تشرق الشمس عليها وتغرب وهي كلها على هضبات تجري من تحتها ينابيع باردة. ينام كل واحد منا في مكان.

لا نتخذ من الأثاث أكثر مما يتخذه البدوي الرحّال عندكم. إلا أننا لا نستعمل الصوف بل نجلس وننام على فرش شفافة وضاءة نسمي نسيجها بالمرن (لأنه يتخذ من البلور المُليَّن ذي المرونة). ومن العجب العجاب أننا نغسلها كل يوم بذائب تخصص لها لتنظف بسهولة، وبعد غسلها تُرسم عليها صور الحشرات التي ربما قد غفلنا عنها فاستخفت فيها فنلتقطها حالاً وهذا من مخترعاتنا المفيدة.

إنَّ أبقارنا وغنمنا بعيدة عنا لا تهب ريحنا عليها ولا ريحها علينا. همّ كل واحد منا أن لا يدخل داره كلب ولا هر ولا جرذ ولا فأر ولا نملة وكذلك لا ذباب ولا برغوث.... لأنها كلها تنقل الأمراض السامة فتضر بأجسامنا.

إننا نرحل في كل فصل من الفصول الأربعة إلى جهة فإذا نزلنا في أرض رحلنا عنها إلى أنظف منها.

نذهب كل يوم مرتين صباحاً ومساءً إلى الجنات والحدائق التي تبعد عن منازلنا من نصف ساعة إلى ساعة، فنجمع البقول الطيبة والفواكه الناضجة ثم نعود وقد

---

1 ـ نهب الناس فلاناً: تناولوه بكلامهم.

2 ـ رجل حرض: لا خير فيه وقيل هو الساقط الذي لا خير فيه. والحرض: الرديء من الناس والكلام.

تنزهنا. ونحن في كل هذا لا نمتطي مطايا بل نسعى على الأقدام رياضة لأبداننا. إننا نجتنب الصيد فقد حرمه الله تعالى علينا.

لقد كانت دياركم تصلح للصيف والشتاء فلما تمدنتم التمدن الحديث، وبنيتم لكم بيوتاً جديدة مثل بيوت سكان أوروبا على زعمكم، من غير أن تميزوا قارتكم من قارتهم وتدركوا خصائص الماء والهواء فيهما، أمست مساكنكم لا تصلح للسكن وأنتم غافلون. فبدت العفونة بأمراضها القتّالة تنتشر بينكم وأنتم لا تشعرون.

ولقد أنشأتم أكثر دوركم في منخفض من الأرض فجعلتموها أحجار الضبان[1] لا قصور الإنسان.

تنام الفصيلة[2] منكم في حجرة ضيقة تفسد هواءها وتستنشقه سماً قاتلاً لا هواء طيباً نقياً وأنتم لا تعقلون.

إذا دخل أجنبي بيوتكم اعترض له في مكان واحد منها أثاث عشر أسر فيحسب نفسه في سوق، فيا ليتكم تحسبون فلا تقوى ربة المنزل على تنظيفها والنظافة مقدمة على الطعام ولكنكم لا تفقهون.

تفاخرون في مجالسكم بكثرة ما تلبسون وتفرشون من الفراء والصوف ولا تفاخرون إلا بما يضركم إلا أنكم لا تنتبهون. والعجب كل العجب أنكم جعلتم كنفكم في مطابخكم فتتحد رائحة الطعام برائحة الكنيف فتأكلون وتشربون.

وفي الختام أقول لكم: إنَّ في تبديل الهواء حياة لكم لتقضوا أيامكم في الأرض وأنتم سالمون معافون إن شاء الله.

الفصل الثامن منه
_ في النظافة _

قال والدي: النظافة وهل علمتم ما هي؟ هي أعظم من أن توصف بشفة ولسان. إني لا أدري كيف أصفها وأعلمها الناس وأشير إليها. ولا أعلم بأي كلام أحضهم

1 ـ جمع الضب وهو حيوان بري يشبه الوَرَل وقيل هو أنثى الحرذون وقيل هو دويبة على حد التمسح الصغير.

2 ـ الفصيلة من الرجل: عشيرته ورهطه الأَدْنون وأقرب آبائه إليه.

وأحثهم على التفاني في التجمل والتحلي بها تفانياً يؤثر في عقولهم وقلوبهم وحواسهم وأعضائهم بل في كل منبت شعرة منهم.

النظافة قاعدة من قواعد الدين. النظافة سر من أسرار الحكمة. النظافة غاية المناقب والمحامد. النظافة لا شك أساس الظرف وأصله. هي الفيض الروحاني الذي يسيل منه ماء الحياة. هي سر خفي من أسرار الجنة الغامضة فإذا علمه الإنسان واهتدى إليه ظفر بشيء من السعادة الحقيقية.

لا علة ولا دواء مع النظافة إلا فيما ندر ولا عاهة أيضاً. فيجب أن يعتنى بها شديد الاعتناء، وذلك في المأكل والمشرب والملبس وفي الفراش والأثاث وفي كل ما تقع عليه عيناك بمنزلك وغيره في كل ما تلتصق به ويلتصق بك، وفي كل ما تشمه وتجسه وتمسه وتلمسه.

لا يبالغ الفتى والفتاة في التجمل والتحسن طلباً للحسن الكاذب المموه الذي كله تصنّع في تصنّع، بل ليدأبا في النظافة فإنها كل الظرف ونصف الحسن. وهي إذا تأملت - الحسن كله. إذا كان السمن كما تقولون نصف الحسن فالنظافة كله. وغاية ما أقول إنَّ النظافة تقوي البنية وتلطف الهيئة فيحدث السمن الحقيقي الصحيح في البدن فينبعث النور والبهاء من البشرة، فينعم الجسم في غضاضة ونضارة وطراءة وبضاضة. ويزهو حسن الوجه في بياض واحمرار يشفان عن بهجة رائعة وطلاوة. وينشط القوام في رشاقة وخفة فيسلم الإنسان. يا أيها البشر اجتنبوا القذرين.



الباب الثاني

الفصل الأول من الباب الثاني
_ في العبادة _

قال والدي: إنَّ الله تعالى أراد خيراً بتلك الأسرة التي كانت تمردت عليه في المريخ فأسكنها الزهرة. وقال لها: لتكن عبادتك «المحبة» «الصدق» «العفة» «التواضع». وقال لها إني أريد من كل عبد قلبه. والمرء مكرم بفضائله. والنظافة لابدَّ منها فثابري عليها.

وقال: من خالفني منك أنزلته إلى الأرض، فإن كانت توبته فيها غير كاملة أرسلته بعد انقضاء أيامه إلى القمر. فإن أصر على المخالفة بعثته إلى زحل فإنَّ فيه العذاب الأليم. ومن أطاعني أعدته (بعد خروجه من الأرض) إلى الزهرة فالمريخ حيث الجنة بجلال مني عظيم.

قال والدي: وقد كانت مدارك هذه الأسرة أسمى وأرقى من مدارككم بكثير فأخذت تتكاثر بعبادتها، وقد جعلت الفضائل ديدنها فعمرت البلاد وأنشأت القرى، فأقام الله عليها قضاة مرشدين ومدبرين ومخترعين يخترعون ما تضطر إليه تعميماً للراحة والرفاهية فشكرته على آلائه، وبالشكر تدوم النعم.

الفصل الثاني منه
_ في المعابد _

قال والدي: إنَّ معابدنا متسعة اتساعاً عظيماً. طولها مساوٍ عرضها. أعظمها المعبد الأكبر في مدينة القضاة العظمى وهو المعبد الذي نزلت فيه كلمات العبادة الأربع التي علمتها.

إنَّ الداخل إليه يقرأ في صدر كل معبد كلمة «الله» مكتوبة على لوح كأنه ذهبي بأحرف عظيمة يبصرها كل من حضر. وهذه الكلمة الجليلة مركبة عندنا من أربعة أحرف مختلفة الألوان. فالحرف الأول كتب باللون الوردي والثاني بالأبيض والثالث بالأزرق والرابع بالبنفسجي. وكلها ناصعة نقية ينبعث منها نور غاية في البهاء واللطافة فوق ما تشتهي.

ويقرأ أيضاً تحت هذه الكلمة الجليلة كلمات العبادة الأربع. فالمحبة مكتوبة باللون الوردي والصدق بالأبيض والعفة بالأزرق والتواضع بالبنفسجي، أي أنَّ ألوان لفظ الجلالة موزعة على الكلمات الأربع. ويجد الداخل تحتها كرسياً مرتفعاً ولا يجد شيئاً آخر لا فضة ولا ذهباً ولا جواهر ولا مصابيح (فإنَّ النور في المعابد يضيء كما يضيء نهاراً) ولا أواني ولا ملابس ولا تماثيل...

الفصل الثالث منه
ـ في الصلاة ـ

قال والدي: يهبُّ كل واحد وواحدة في الفراش من ابن وبنت خمس سنين إلى ما فوق، ولا يستثنى منا إلا العليل العاجز عن القيام وذلك قبل شروق الشمس بربع ساعة، فيخلع ثيابه حالاً وينزل إلى عنقه في مغطس بارد يجري ماؤه من عين صافية فيها مواد مقوية ولا يرتمس[1] فيه ولا يبترد[2]. وينظف فمه وأسنانه وأذنيه وأظفاره. ثم يلبس ثيابه من غير أن يتنشف، كل ذلك في خمس دقائق فقط، ويسرع المشي إلى المعبد الذي يبعد عن داره عشر دقائق فيرى هناك أحد القضاة يصيح بصوت عال يسمعه الحاضرون ويقول أولاً: «يا أيها الأبناء الذين جاؤوا طائعين إنكم واقفون في حضرة الله تعالى فنبهوا حواسكم». فنقول بصوت واحد غير مرتفع: «الله يا الله لقد تنبهنا يا الله ونحن ضارعون خاشعون». ثم نسجد فيقول القاضي ثانياً: «يا أيها الأبناء الصالحون إنكم واقفون أمام الله سبحانه وتعالى فاخلعوا نعالكم احتراماً وتوقيراً.

1 ـ ارتمس في الماء: إذا انغمس فيه حتى رأسه وجميع جسده وقيل الارتماس: أن لا يطيل اللبث في الماء والانغماس أن يطيله.

2 ـ ابترد: اغتسل بالماء وقيل في الماء البارد. وابترد الماء: صبه على رأسه.

إنَّ الله يأمركم بأن يحب كل واحد أخاه أكثر من نفسه». فنقول: «الله يا الله لقد تنبهنا وسمعنا يا الله لك المجد لك العظمة يا مالئ الكائنات هيبة وجلالاً». ثم نخلع نعالنا ونرفع أيدينا إلى الله ثلاثاً ونسجد مرتين. فيقول القاضي ثالثاً: «يا أيها الأبناء الصالحون المتعبدون إنكم واقفون بين يدي الله تبارك وعلا فاكشفوا رؤوسكم تعظيماً له وتمجيداً. إنَّ الله يأمركم بأن تصدقوا في أقوالكم». فنقول: «الله يا الله لقد تنبهنا وسمعنا وأطعنا يا الله، أنعم علينا بأن لا ندهش بغير عظمتك وجبروتك لنعبدك وحدك حق عبادتك ولا نشرك بك». ثم نكشف رؤوسنا ونحني ظهورنا ونسجد ثلاثاً. فيقول القاضي رابعاً: «إنَّ الله جلّ جلاله يصغي إليكم فأخلصوا نياتكم واندموا على سيئاتكم وإنَّ الله يأمركم بأن تتعففوا آناء الليل وأطراف النهار». فنقول: «الله يا الله لقد تنبهنا وسمعنا وأطعنا وأجبنا، ولقد تبنا إليك فتب علينا واغفر لنا وتداركنا برحمتك يا أرحم الراحمين. إننا نعترف لك بسيئاتنا على أننا لم نتعمدها فتجاوز عنها بواسع حلمك يا رحيم يا حليم». ثم نرفع أيدينا وهي مبسوطة الأكف وننزلها ثلاثاً ونسجد. فيقول القاضي خامساً: «إنَّ الله عز ثناؤه غفر سيئاتكم ووهب لكم نفوسكم وإنَّ الله يأمركم بأن تتواضعوا فخرّوا لأذقانكم ساجدين». فنقول: «الله يا الله لقد تنبهنا وسمعنا وأطعنا وأجبنا وحمدنا وشكرنا حمداً وشكراً صادرين عن قلوب محبة صادقة عفيفة متواضعة». ثم نخرّ ونسجد ثلاثاً ونحن نقول: «لقد قلت يا ربنا إنك تريد منا قلوبنا فانظر إليها. ورغَّبتنا في الفضائل فقوِّنا عليها. وحضضتنا على النظافة إنَّ شفاءنا كان لديها. نحمدك ونشكرك يا إلهنا لأنك متعتنا بخيراتك ونعمك وأغنيتنا بمنّك وكرمك. (فيقول هنا الذين لم ينزلوا إلى الأرض). ولأنك لم تضمنا إلى بني آدم اللابسين أثواب العار». وهنا نعود كلنا فنقول: «وفي الختام نتضرع إليك يا الله ونلتمس من آلائك أن ترسلنا إلى الجنة لتمتعنا بمشاهدة وجهك الكريم». ثم نسكت فيقول القاضي: «لنذهب بأمن من الله وسلام».

فنذهب وقد مرّ على صلاتنا نصف ساعة، فنأكل ثم ننظر في مصالحنا وأعمالنا من غير أن نجهد نفوسنا. وبعد خمس ساعات ننزل في الماء إلى صدورنا ونتنظف ونلبس ثيابنا ونبادر إلى المعابد مرة ثانية. وبعد خمس ساعات أيضاً ننزل في الماء إلى معدنا ونتنظف ونسعى إلى المعابد. وبعد خمس ساعات ننزل إلى ركبنا ونتنظف ونصلي. أي إننا نغتسل ونصلي أربع مرات كالمرة الأولى في كل أربع وعشرين ساعة.

الفصل الرابع منه
_ في الأعياد والصيام والحج _

قال والدي: إننا نجري إلى المعابد في كل نهار خميس وهو اليوم السعيد الذي أنزل الله تعالى فيه العبادة علينا، ذلك أنه نهبّ من فرشنا وننزل في المياه ونتنظف ونسارع إلى الصلاة، فنصلي ثم نستريح نصف ساعة في الأروقة حيث نحبب إلى نفوسنا الفضائل التي منها حسن الصبر على فراق إخواننا المعاقبين والمغضوب عليهم المسجونين في الأرض والقمر وزحل. ومساعدة أقاربهم وعيادة المرضى. وبعد هذا نعود إلى المعابد ونسبح الله سبحانه وتعالى بهذه التسبيحات.

(في المحبة)

1ـ سبحانك يا خالق الكائنات يا من أحبنا فخلقنا ومتعنا بخيراته فتعلمنا منه المحبة.

2ـ نسبحك يا أيها المحب الرؤوف بعباده. ونشكرك لأنك أنزلت علينا وصاياك في مثل هذا اليوم السعيد.

3ـ سبحانك يا أيها المحب والمحبوب أنت الذي تبتهج قلوبنا بمحبته لأنك أمرتنا بأن نبرّ بالمحبة والدينا.

4ـ نسبحك يا أيها الطاهر المحبة أنت الذي لا غاية ولا نهاية لمحبته لأنك طهرت قلوبنا بالمحبة فطابت سرائرنا.

5ـ سبحانك يا أيها الصادق المحبة لأنك نجيتنا بها من القتل والغدر والنميمة.

6ـ نسبحك يا الله لأن المحبة منعتنا من الإضرار بنفوسنا وعن الإقدام على كل شهادة زور.

7ـ نسبحك لأنك جعلت المحبة قاعدة كبرى من قواعد الدين فأوثقت قلوبنا بوثاق منها متين.

(في الصدق)

8ـ نسبحك يا أصدق القائلين لأنك أمرتنا بأن نصدق في الحديث والوعد. ونصدق

العباد النصيحة والولاء.

9ـ نسبحك لأنك وثقت تعاملنا بالصدق فوثقتنا بنفوسنا ثقة تبادلنا بها المنافع فطاب لنا العيش.

10ـ نسبحك لأنك عظمت بالصدق كل نفس منا فابتعدنا عن المدالسة وعن كل رذيلة من رذائل الكذب.

(في العفة)

11ـ سبحانك يا مطهر المضاجع لأنك أردتنا بأن نتعفف فختمت على قلوبنا بالعفة فلم يغوِ أحدنا أخاه.

12ـ نسبحك لأنك علمتنا بالعفة أن لا نغصب الحقوق لئلا يرث الغريب حق غيره بالدعارة.

13ـ نسبحك لأنك نهيتنا عن الفجور فانتهينا ولم نعرض أجسادنا لغوائل الشبق ونعذبها به.

14ـ نسبحك يا واقي عباده شر الغيرة لأنك بفضل وقايتك صنتنا من الأحقاد والمفاسد.

15ـ نسبحك يا الله لأنك وقيتنا بالعفة كل داء عياء عضال عقام ناجس مزمن دفين[1].

(في التواضع)

16ـ نسبحك يا من تليق الكبرياء بعظمته لأنك تعطفت ودعوتنا أبناءك فتعلمنا منك التواضع.

17ـ نسبحك لأنك أمرتنا بأن نتواضع فتعلمنا بالتواضع أن نكره حب الذات وندرأ عنا الطمع.

18ـ نسبحك لأننا بمنّك وفضلك مقتنا الطمع المذل وأحببنا القناعة المشرفة فلم نسلب الحقوق.

---

1 ـ الداء إذا أعيا الأطباء فهو عياء. فإذا كان يزيد على ممر الأيام فهو عضال. فإذا كان لا دواء له فهو عقام. فإذا كان لا يبرأ بالعلاج فهو ناجس ونجيس. فإذا أعتق وأتت عليه أزمنة فهو مزمن. فإذا ظهر بعد خفائه فهو دفين

19ـ نسبحك لأنك حتمت علينا القناعة فجنبتنا الحسد المهلك وحفظتنا من شوائب السرقة وأضرارها.

(الخاتمة)

20ـ نسبحك يا مولانا لأنك علمتنا عبادتك فجعلت بها أيامنا الطويلة في بهجة وحبور دائمين.

21ـ نسبحك يا منكد عيش بني آدم بالموت لأنك جعلت انتقالنا إليك لذة ولم تجعله علينا نكداً.

22ـ نسبحك لأنك بتعليمك إيانا وصاياك لا تنزلنا إلى الأرض بل ترسلنا إلى المريخ حيث الجنة بجلال عظيم.

23ـ نسبحك لأنك تنعم علينا في الجنة بأن نتمتع بمشاهدة وجهك الكريم فيفيض علينا بهاء ونوراً.

24ـ نسبحك يا مكافئ الصالحين بمشاهدة وجهك الكريم الذي يشبع القلوب لذات في سعادة دائمة.

25ـ نسبحك يا سامع الدعاء يا من يزكو بك التسبيح لأنك مننت فسمعت تسبيحاتنا في البدء والختام.

قال: ولا نزال نسبّح هذه التسبيحات مرة ثم نخرج إلى الأروقة مدة نصف ساعة، كما أبنت ونعود بعدها ونسبّح إلى أن يمر علينا تسع ساعات من ذلك النهار ونحن من غير أكل لأننا ممسكون عن الطعام من نصف الليل. فنذهب إلى دورنا ونأكل ثم نتزاور والزيارة لا تكون أكثر من نصف ساعة. ولا عيد ولا صيام عندنا غير هذين. أما حجنا فهو إلى المعبد الأعظم في مدينة القضاة حيث نزلت كلمات العبادة، وذلك في اليوم الأول من شهر نيسان من كل سنة، فيقدم الحجاج من جميع أنحاء الزهرة وأقطارها ويقيمون ثلاثة أيام يقدمون في نهايتها الهدايا إلى قاضي البر ليوزعها على المرضى العاجزين ثم ينصرف.

هذه كل كتب عبادتنا وصلواتنا وتسبيحاتنا. فلا يسمح لأحد مهما كانت صفته بأن يضيف إليها شيئاً.

نحن لا نتوسع مثلكم في النقول والشروح والتفاسير، فنملأ منها الأسفار العظيمة والمجلدات الضخمة حتى تتشعب الآراء ويحدث الاختلاف، فنلجأ إلى المناظرات التي

كانت في الغالب سبباً في تفريق الكلمة، فتحير كثيرون فصاروا إلى الفتور الذي تمكّن منهم فافتتنوا في دينهم.

الفصل الخامس منه
ـ في قضاة الزهرة ونزولنا إلى الأرض ـ

قال والدي: لا شك في أنَّ القضاة عندنا يمتازون عن غيرهم بالمدارك والعلوم وبالفضائل والمناقب وبالمآثر والمحامد وبالمكارم ومحاسن الصفات وحسن السلوك.

لقد وقفوا نفوسهم على خدمة الخليقة فلا يهمهم غير تقدمها ونجاحها وسعادتها. زهدوا في الملاذّ وفي الملاهي. لا يخرجون من محاكمهم وفيها دعوى لم تنظر أو مؤجلة، فإنَّ الدعاوي عندنا لا تحتاج إلى أكثر من تأجيلة واحدة. لا يحابون ولا يدهشون المتحاكمَيْن بهيبتهم لئلا يرتبكا في الدفاع عن نفسهما. لا يتقوفون أحداً في المجلس[1]. لا يستهجون[2]. يتدبرون أمورهم ويبيتونها[3] ويسفّون[4] لئلا يرنّقوا في أمر[5] . لا ينتهرون أحداً ولا يحتدون عليه بل يصبرون حتى يقطع[6]. هم وحدهم الصبورون الحمولون الحليمون والمدققون البصيرون الخبيرون والرزينون الذين رصنت عقولهم. هم الذين لا يعانون بإفراط فلا يحسنون الظن كثيراً ولا يسيئون. لا يماطلون ولا يطاولون لا يغلطون المصيبين ولا يغالطونهم ولا يتغالطون[7].

إذا بدا لهم وجه الحق أبشروا به حالاً، وعليه فالدعاوي الحقوقية عندنا نادرة الحدوث لأنَّ القضاة علّموا بنزاهتهم العبادَ الحق ومعرفته، فالمحقوق يعرف نفسه

---

1 ـ تقوّف فلاناً في المجلس: أخذ عليه في كلامه وقال له كذا وكذا.

2 ـ استهج فلان: ركب رأيه فلا يشاور أحداً.

3 ـ بَيَّتَ الأمر: عمله ليلاً أو دبره ليلاً. وكل ما فكر فيه أو خيض فيه بليل فقد بُيِّت.

4ـ أسفّ إلى مداق الأمور بتشديد الفاء: دنا. وفي الصحاح أسفّ الرجل أي تتبع مداق الأمور.

5 ـ رنّق القوم في الأمر بتشديد النون: خلطوا الرأي.

6 ـ أقطع الرجل: انقطعت حجته.

7 ـ غَلَّطَه: قال له غلطت أو نسبه إلى الغلط. وغالطه: أوقعه في الغلط وتغالطوا: غالط بعضهم بعضاً..

وهو لا يرجو أن يرشوَ القاضي أو يدعوه[1] أو يهدي له مأكولاً أو مشروباً أو ملبوساً. ولا يأمل أن يخدعه بتباكيه أو يغفله بدهائه أو يستميله إليه ببيانه كبيراً كان أم صغيراً. إنَّ العباد في الحق متساوون فلا يبطل إلا الطامع المكابر الذي أغواه طمعه أو من به جنون أو علة، والمبطلون قليلون.

يرجع القاضي من صلاة الصبح الأولى إلى المحكمة فيقضي بين الخصوم إلى أن يدنو وقت الصلاة الثانية فيصلي ثم يذهب وقاضي البرّ معهُ إلى عيادة المرضى وافتقاد العاجزين، فيمرضهم ويعالجهم ويلاطفهم ويطلب إلى رفيقه أن يقدم إليهم كل ما يعوزهم. وبعد ثلاث ساعات يعود إلى المحكمة ليفتي بنفسه المستفتين من العباد. فإنَّ القاضي عندنا هو الحبر والكاهن والإمام الذي مُني بحبورته وكهانته وإمامته. وهو الأستاذ والحاكم والمفتي والخطيب والطبيب والمصلح. وهو الخادم الذي يخدم الخليقة بأمانة والذي يستميت في حبها من غير تمييز ولا تفضيل. وهو أيضاً الأب الحنون الدائب في تعزية الذين أُنزل أقاربهم إلى الأرض وملاطفتهم حتى لا يكون في الزهرة شاكٍ لا تدفع شكواه ولا تُزال. فمن كان مضطراً مثلاً إلى عمل سعى له فيه، وطيّب قلبه ولهذا كله نكرم القضاة ونعظمهم ونحبهم محبة أعظم من أن توصف بشفة ولسان. وهم كلما عظموا ازدادوا تواضعاً ورغبوا في الخدمة بفرح وابتهاج. لا يتأففون ولا يتضجرون حتى أنهم لا يلمحون إلى أتعابهم.

يخاطبون العباد على اختلاف طبقاتهم بكلمات رقيقة عذبة، فيشتهي السامع أن لا يقطع القاضي خطابه، فإنه كله نصائح وحكم وخطب أدبية تاريخية غير مملة لأنها معقولة يشربها الذوق ويأنس بها الصواب، فلا نجد فيها غرابة نشك في صدقها لأنَّ علم القضاة غزير ومواد الكلام كثيرة لديهم، فلا يتوخون غريب الحديث ولا يخانون المعارضة فإنهم رصينون لا ينطقون عن الهوى. يحاجون ويفحمون المعترضين لأنهم راسخون في العلم.

لا ينتخبون إلا من الرجال المجربين الموثوق بفضلهم ليعظموا في عيوننا، فلو كانوا دون غيرهم بالمعارف لم يعظموا، فإذا لم يعظموا لم يصلحوا لخدمة الدين والخليقة ذلك لأنَّ القاضي إذا كان جاهلاً حمل الجهّال من الناس على الاستخفاف بالدين وجماعته.

1 ـ دعا فلاناً: طلبه ليأكل عنده

إنَّ قضاتنا لا يترجون[1] لأنهم لا يعرفون التناوة[2] لا نسمع لهم أصواتاً مرتفعة ولا يدعون أحداً إلا بقولهم له: «يا حبيبي». ولكن هذا الدعاء لم يكن شفهياً لصدوره عن قلوبهم النقية الفائضة بالمحبة. كل واحد من الخليقة حبيب لكل قاضٍ.

هنا قلت لوالدي: إذا كانت هذه أعمال القضاة فهم لا يأثمون فلماذا أنزلك الله تعالى إلى الأرض وأنت قاضٍ في الزهرة؟ فقال: اعلم أنَّ في كل مدينة محكمة عمومية مؤلفة من قضاة المدينة ومن بعض أعيانها الذين يسمون قضاة أيضاً لأنهم يقضون ويحكمون. وهذه المحكمة يرأسها قاضي قضاة المدينة. أما غايتها فهي التدقيق في الأمور الدينية والصحية والإدارية المشكلة، أي لكل مدينة ثلاث محاكم لأمور العبادة والصحة والإدارة (عدا المحكمتين الحقوقية والعقابية) فإذا أشكل على القضاة أمر في المحاكم الثلاث وقفت عليه المحكمة العمومية ودققت فيه وحلته حالاً. أما أنا فقد عدوني من الأعيان وانتخبوني عضواً كما تقولون أو قاضياً. فسرت ذات يوم إلى المحكمة فألفيت أحد القضاة قد سبقني وجلس في كرسي لأجلس بعده فلم أياسره[3] وأسايره، بل عظم عليَّ الأمر تكبراً مني وتجبراً، فعلمه قاضي القضاة فأكبره وأعظمه ووبخني توبيخاً غير شديدٍ لأنه مأمور بالتوبيخ، فأذعن له رفيقي واستغفر الله من ذنبه فعفا عنه. أما أنا فعصيت قاضي القضاة فارتكبت بهذا العصيان إثمين في وقت واحد، أي الكبرياء والمعصية بتمردي عليه، فساقوني بأمره إلى محكمة العقاب فحكم عليّ لشقائي بأن ألبس جسم العار وأنزل إلى الأرض وأعيش العيشة التي عرفتها.

الفصل السادس منه
ـ في بعض الرؤساء بالأرض ـ

قال والدي: إني أرى اليوم بعض الرؤساء لا كلهم خلافاً لما كانوا عليه بالأمس والبعض جزء من الكل، فرأيت أن أسترسل[4] في الكلام عسى أن يظفروا منه بنصيحة

---

1 ـ تَرِجَ الرجل: أشكل عليه الشيء من علم أو غيره.

2 ـ التناوة: ترك المذاكرة وهجر المدارسة.

3 ـ ياسره فلان: أخذ يساره وفلاناً لاينه وساهله والشيء أخذه من جهة اليسار.

4 ـ استرسل في الكلام: انبسط فيه واتسع.

يستفيدونها فأقول لطالب الرئاسة: إذا كنت زاهداً في الدنيا راغباً عن لذاتها وشهواتها لاهياً عن ملاهيها كارهاً للمال عالماً عاملاً نشيطاً تقياً نقياً تفضل حب الناس على حب نفسك، وإذا كنت متيناً ثابت الجنان، فتجرد لرئاسة الدين وتفرغْ، وإلا فإنك تحمل أوزار العباد على عاتقك فيكون عقابك عظيماً. إذا ضللت كان ضلالك شديداً لأنك تقود الخلق إلى الضلالة فيسألك الله تعالى عنهم.

إذا كنت لا تصبر على قمع نفسك فتزوجْ، ولا تكابر فإنَّ التزوج لمثلك خير من التبتل[1] ولا تعد الله بأن تقول له: «اللهمَّ إني نذرت العفة والطاعة والفقر» ثم تخلف وعدك، فإنَّ الرجل الصالح المتزوج الذي يعاني مصائب الدنيا ومشقاتها بصبر هو أفضل من المتبتل المعتزل المنفرد بصومعته المنقطع عن إخوانه، لا يسأل عنهم ولا يساعدهم كأنه ليس من بني الإنسان لا يهمه غير نفسه ولا يحب سواها، ولا أقول ذلك أفضل من هذا فقط، بل أقول إنَّ الله لا يغفل عن عقاب هذا الكسلان المبتول[2] من الإنسانية.

لو أدركت ما هي واجباتك التي أوجبها الله تعالى عليك لأرعدت يوم تخلع عنك ثوبك طائعاً مختاراً. يوم تجرد نفسك من حب الدنيا عن حسن رضى منك. يوم تستأصل من قلبك كل شهوة. يوم تلبس ذلك الثوب الأسود لا حداداً على نفسك التي أمتّها بالزهد، بل حداداً على هذه النفس الأمارة بالسوء وذلك إذا زغت أو كدت تزوغ، فإنَّ من زاغ قلبه لا يأمن العثار بل لابدَّ له من السقوط في قلبه.

إني أخشى عليك أن تجعل ذلك الثوب لهلاكك إذا لم تخدم الناس حق خدمتهم وإذا غلبت حب نفسك وحب أقاربك على حبهم. إذا اتخذت الرئاسة لتعظيمك وتعظيم ذوي قرابتك. إذا ألححت في طلبها وإذا جعلت الناس يتعصبون لك وحضضتهم على المناهضة في التماسها وإذا غالبت أخاك ومكرت به وخطفتها منه.

قل لي: كيف تلح وتحض وتعرض قومك للاضطراب وتحملهم على البغضاء التي يكون معها خرابهم؟ أتعتقد أنَّ الله تعالى يرضى عنك؟ إنك إذا اعتقدت هذا فقد كان اعتقادك فاسداً. إنك لتدرك أنَّ الله لا يرضى عنك إلا أنك طمعت في رحمته وعللت نفسك بالتوبة بعد ذلك. يا هذا إنَّ من تعمد الإثم اليوم ليتوب عنه غداً فقد أثم

1 ـ بتل إلى الله وتبتل: انفصل وانقطع عن الدنيا وأخلص أو ترك الزواج وزهد منه.

2 ـ المبتول: المقطوع.

مرتين إثماً عظيماً لا يغفل عنه الله تعالى. أتعتقد أنك تجيء شيئاً حسناً يعود على قومك بالخير والفلاح، علماً منك أنك أهل للرئاسة وأنك أولى بها من غيرك؟ إذ صحَّ هذا فقد جهلت نفسك وقدرك لأنك لو كنت كما اعتقدتَ لما دخلتَ مدخلاً ينكره عليك الأتقياء الورعون الذين رسخت في قلوبهم محبة السلام، بل زهدتَ في الرئاسة حتى يجيئك الناس يلتمسون منك أن تمنَّ عليهم بقبولها فإذا لم يجيئوك فقد نجوت على الأقل من ذل الخيبة.

اعلَمْ يا هذا أنَّ من طلب الرئاسة في الزهرة فقد حرمت عليه، وأنَّ من اعتقد أنه ليس بأهل لها اعتقاداً مقروناً بعلم وتواضع فقد صلحت له وصلح لها لأنه عرفها حق معرفتها وأدرك ما وراءها مما لم تسبق إليه مدارك غيره، ومن يعتقد أنه جدير بها فقد جهلها واستخف بها.

لا تكن لرعيتك محباً غيوراً وأباً شفيقاً بل كن لها خادماً أميناً. تدارك الفقراء برأفتك يتداركك الله برحمته. تدارك المرضى المعذبين المسجونين وأشفقْ عليهم. رقّ لهم. تلطفْ بهم. خفّفْ عنهم مصائبهم وويلاتهم. لا تجتنبهم لوخامة مساكنهم وأوساخ ثيابهم بل نظفهم ولازمهم، ولا تشمخ بأنفك في خدمتهم فإذا شمخت فقد خرجت عن الدين. أصلحْ بينهم. لا تقصر عن المواعظ والنصائح ولا تتساهل في تحريم الكبائر.

إذا استفتيت فأفتيتَ إفتاء كان فيه ضياع حق أو تقليل كرامة أو حاولت في إفتائك تحبباً وتزلفاً، فيا ويل نفسي ما أشدها جزعاً عليك من غضب الله تعالى وسخطه.

إذا عزمت أن تصلح بين الزوجين فاستمسك بقلبك ليفيض عدلاً وحكمة. إذا غلبت حب المال عليك فقد تبرأ منك الدين لأنك تجور على نفسك وعلى الناس ولا تنصفهم، لأنك تتخذ لك من دون الله وثناً تعبده، ولأنك تشرك حب الدينار في حب الله، ومن تبرأ عنه الدين في مثل هذه الحالة يعاقبه الله عقاباً خصوصياً في مدينة التكفير، ولو أنه تاب في الأرض.

لا توعد ولا تحقد ولا تنتقم. فإذا أوعدت وحقدت وانتقمت واتبعت هوى نفسك يعاقبك مولاك عقاباً خصوصياً. إذا هابك الخلق بالمحبة ولم يخشوك فأنت حكيم يغبطك الناس. لا تعرض نفسك للسقوط اعتماداً منك على ثباتك وقوتك فتزلّ بك قدمك وأنت لا تدري حيث يصعب عليك بعد ذلك نهوضك أو حيث لا تستطيع النهوض.

شاور العقلاء في الأمور واعتمد عليهم. لا تسمع إلى أحاديث النمّامين والمغتابين.

امتحن نفسك. فإذا كنت شرساً غضوباً لا تقوى على رد جماحك حين تغضب فاجتنب الرئاسة لأنها تتبرأ منك. اجتنبها ولا تغضب الله تعالى عليك. وإذا غلبتك الشراسة فجانب الناس ما استطعت لتخفيها عنهم. كيف تقدم على الرئاسة التي تضطرك في كل يوم إلى مخالطتهم ومصاحبتهم وخدمتهم، وإلى تحمّل الحمقى الجفاة الأخلاق منهم والصبر على غطرستهم وعجرفتهم، مع أنك قليل التحمل؟

إني لأعجب من اختيارك الرئاسة لنفسك كأنك واثق بها، تعتقد أنك قادر على توسيع خلقك فتتحمل، بل أعجب من رئيسك الذي أقامك راعياً وربما عجبت معي في سرك أيضاً، إنَّ الله تعالى سينتقم منه عن عباده انتقاماً شديداً خاصاً به وحده، وذلك لعدم ترويه وتدقيقه التدقيق التام الكامل حين اختارك فغفل عن حقيقتك. وإذا كان قد تغافل عنها فهناك البلاء الأعظم الذي جره بيده على رأسه. إنَّ من لم يضع الأشياء في محلها ولم يكن من الحكمة في شيء فهو ومن اختاره في خَطَاء عظيم. إنَّ الرئيس الصالح يصلح قومه مدة قرن مثلاً أما الرئيس الفاسد فإنه يفسدهم ثلاثة قرون. إنني كنت دعيت في الأرض إلى الرئاسة فأبيت علماً مني أني لم أكن خليقاً بها.

إذا كان الرئيس غير عالم فعليه أن لا يفتي وعليه أن لا يعتمد على نفسه في البحث عن المسائل المشكلة الملتبسة فإنَّ الجاهل لا يفهم دقائق المعاني.

إذا كان الرئيس ضعيف البرهان فلا يجوز له أن يجادل، فإذا جادل وغلب ظنَّ مجادله أنه أصاب وفاز، وظنَّ المجادل أنه كان على غير هدى من اعتقاده وهذا أمر محرم لأنه ينشأ عنه ضلال مبين وتبدو منه فتنة عظيمة وافتتان في الدين.

لينزوِ الرئيس الصالح ويعتكفْ في مكانه. ليحبسْ نفسه عن مجالس الناس العمومية والخصوصية (إلا إذا دعت الضرورة) فيجد في عيون الناس ويعلو كعبه عندهم ويتفرغ لإجابة داعيه.

لقد رأيت بعضهم يجتمعون في مجالس الطرب فيستخفهم حتى تهيج عواطفهم، فيا حبذا لو أدركوا أنَّ مجالسيهم يستخفون بهم وينمون الأحاديث عليهم.

إذا خافوا على نفوسهم أن تطالبهم برغائبها فليؤدبوها بالتقشف. إني أتلطف إليهم وأسألهم أن لا يعرض بعضهم قلوبهم الساكنة للتحريك لئلا يضطروا إلى ضغطها بعد هذا فيخشى على أبدانهم أن يؤثر فيها الإكراه.

لا يشربوا الخمور فإنَّ في شربها إثماً وعاراً. ليكن كلامهم أسمى من كلام الشعب. لتكن أفواههم طاهرة مصونة لأنهم يخرجون منها كلام الله.

محظور عليهم أن يجاروا الناس في كل أحاديثهم. إنَّ كلام الرئيس يؤثر في كثيرين من العباد، فعليه أن يتأمل ويتروى ثم يتكلم لأنهم ينقلون حديثه ويحتجون به.

لا يرغب الرئيس كل الناس في الوقف ويحرم الورثة، فلو اتبعوا رغائب أولئك الرؤساء لجعلوا كل ما على الأرض وقفاً فيمسي الخلق كلهم يلتمسون خبزهم من رؤسائهم.

لا يكن الرئيس مشتتاً للأفكار بتعسفه مفرقاً للجماعات منفراً مهيجاً، فإنه راعٍ صالح. ليتصدق على كل المحتاجين فإنه لا يجوز له أن يختص بنفسه فقراء.

لينبه الرئيس كل رئيس غفل عن واجباته وذلك برقة وحسن إشارة، فإذا لم ينتبه فلينصحه ويوبخه سراً لا جهراً. لا يكف عن توبيخه لأنه إذا زل ترك الناس كبائرهم وتمسكوا بهفوته، وربما عابوا به كل الرؤساء ولو كانوا منزهين عن العيوب إجمالاً. وغاية ما أقول إنه خير له أن يكون على حذر وانتباه، لا يغفل عن نفسه، وأن يجعل منها عليها رقيباً لئلا تغلبه الشهوات فتستعبده المشتهيات.

إني أنصح الواعظين الذين يصعدون في المنابر ينهون عليها ويأمرون وينصحون ويحذرون أن يعمل كل منهم بنصيحة واحدة من كل عظة يلقيها، فإذا عمل ضمنت له الجنة.

يا أيها الرؤساء العظماء إني أحمل إليكم سلام قضاة الزهرة وأبشركم بأنهم يتحدثون بأعمالكم الصالحة، فسروا وابتهجوا واغفروا للذين يسيئون إليكم فإنهم لا يعلمون من أنتم، أنتم حسنات الأيام والليالي، أنتم الذين رضي الله تعالى عنهم فأسبغ عليهم بنعمه وبركاته فخففوا بها مصائب سكان الأرض وويلاتهم.

الفصل السابع منه
_ في خطيئات سكان الزهرة _

قلت لوالدي: ما هي خطيئات سكان الزهرة؟ ألا تريد أن تقول ما هي؟ ألعلهم لا يؤمنون بالله سبحانه وتعالى؟ أليس من الواجب أن يؤمنوا أكثر منا؟ أسألك هذا وأسألك أيضاً أن لا تعرض عن سؤالي وأن لا تنفر مني. أنت تعلم أني لا أستطيع إلا أن

ألح عليك مع أنني أكره الإلحاح. إنني لا أسألك من نفسي فكأني بملقن يلقنني السؤال ويحضني على إلقائه. فأجاب: اعلم يا ولدي وفلذة كبدي وتأكد أننا لا نصادف في كل الزهرة نفساً واحدة لا تؤمن بوجود الله تعالى. إننا نشعر بقوته ومجده وندرك شيئاً من حكمته كأننا نراه بعيوننا.

أما الخطيئات التي تكبر عندنا فهي الكبرياء والحسد والاعتراض على الأحكام العقابية.

فقلت له: لقد ذكرت في الكلام عن الملاهي ما يأتي «لا ينظر الرجل إلى غير امرأته ولا تنظر الزوجة إلى غير زوجها إلا ما ندر». فكيف يصدر مثل ذلك منكم ولو نادراً؟ أليس بعجيب منكم أن ينظر البعل[1] إلى غير بعله مع سعة مداركه ومعرفته أنه يعاقب عقاباً شديداً لا تقبل فيه له شفاعة ولا ندامة بل ينزل حالاً إلى الأرض؟

فقال: اعلم أنَّ في الزهرة حُسْناً يقام له ويقعد، وجمالاً يستعبد الأحرار، وبهاء يسترق العقول ويسلبها مداركها، ووضاءة تهيج البلابل، وملاحة ترقص القلوب في الصدور، ونضارة تشخص لها الأبصار. وبضاضة تحرك الساكنات وتسكن المتحركات. ورشاقة تهفو بها الأفئدة، وظرافة تذوب منها حبات القلوب، وكياسة تقول احفظ نفسك يا أيها المتعبد، وبهجة تقول أغمض عينيك يا أيها المتبتل وإلا افتتناك، وطلاوة في كلام تقول لها الأسماع لقد شنفتنا تشنيفاً، وغنة تطرب الجماد فيقول رفقاً بي فقد أشجاني الحنين، ونباهة وفطانة ورزانة ورصانة وفصاحة وبلاغة وكل ما يحبس اللسان عن البيان وليس الخبر كالعيان.

فمن تاب منكم توبة صادقة كاملة رجع إلى الزهرة وتذكر فيها كل ما نسيه ووعى ببصيرته وأبصر بعينيه، وسمع بأذنيه. فإذا لم ينتبه الناظر منا لنفسه ويستمسك بقلبه، وإذا لم يقل اللهمَّ صني واحفظني فإني لا أريد أن أعثر، نسي العقاب وأضاع الصواب وسقط. وإذا استمسك واستعان بالله جلّ جلاله عدّ له ذلك حسنة، ورُبَّ حسنة واحدة دفعت سيئات، إنَّ الله عادل رحيم.

قال: فتفرغ كثير من القضاة الذين هم من الطبقة الأولى للعلوم والفنون فبرعوا وفاقوا في الاختراع وفي كل شيء أولئك المتسامين المستكبرين الذين كادوا يقعون في الآثام بصلفهم، فتواضع كثير منهم بعد ما علموا أنَّ العلم غاية لا تدرك وأنَّ لكل

1 ـ البعل: الزوج. وقيل لا يسمى الرجل بعلاً حتى يدخل بامرأته وهو زوج على كل حال والأنثى بعل أيضاً وبعلة.

مجتهد فيه نصيباً وافراً منه فلا يستطيع أحد أن يستأثر به.

وسعى القضاة في تعميم كثير من المشتهيات فقلَّ الحسد. وأخذوا يثبتون للخلق أنَّ التشديد في العقاب خير لهم من التخفيف، وأنَّ الله سبحانه وتعالى يعاقبهم رأفة بهم. وقد أمر القضاة بمنع كثرة التزاور وحظروا على الخليقة الاجتماعات التي يخشى منها تعريض القلوب للمهيجات. وقالوا إنَّ البطالة إثم وعار فكل باهل[1] مكروه فيجب اجتنابه ولو أنه ترك شغله ساعة واحدة.

الفصل الثامن منه
_ في الأحكام الحقوقية _

قال والدي: في كل محلة في الزهرة محكمة حقوقية لها قاض واحد. فإذا كانت الدعوى من الدعاوي الحقوقية العادية والمديون يَحْرَكُ[2] ويأبى تبرئة ذمته، شكاه الدائن إلى عاقل المحلة وشيخها، وهو غير قاضي المحكمة، فينصحه، فإذا أصر ولم ينتصح قال له الدائن: لنذهب إلى القاضي. فإذا امتنع عن الذهاب شكاه إليه فيحضره ويعده متمرداً يستوجب المعاقبة. فينظر أولاً في الدعوى الحقوقية، فإذا أقرّ بما يطلب منه حكم عليه بتوفية الحق. فإذا لم يكن مقتدراً وكان الدائن محتاجاً عوّض له القاضي من مال البر حالاً، وأمهل المديون إلى يوم إيساره ثم أرسله إلى محكمة العقاب لتنظر في دعوى التمرد وتحكم عليه في الحال.

فإذا أنكر المدعى عليه الدين وقال للقاضي: هذا المدعي عِرْضٌ[3] مبطل يكذب عليك، كانت الدعوى عقابية أكثر من كونها حقوقية، فيعجب القاضي والحاضرون من ذلك الإنكار الغريب، لأننا نعد الكذب وإبطال الحق كله وإنكاره جميعه أو بعضه جناية لا تصدر غالباً إلا عن اختلال في الشعور واعتلال في البدن. فيأمر القاضي فتحضر آلة تشبه آلة الخياطين نسميها بالفاحص تمتحن المخلوق، فإن كان فيه جنون أو علة أخرى أعربت عنها وذلك بأن يجلس أمامها ويسند إليها يديه فتفوه بالحقيقة. فإذا

1 ـ الباهل: المتردد بلا عمل.

2 ـ حرك: امتنع من الحق الذي عليه.

3 ـ رجل عرض: يعترض الناس بالباطل.

أنصع للحق[1] قبل أن يسندهما واستغفر خفّتْ جنايته، فيساق إلى المحكمة العقابية بعد الحكم بالدعوى الحقوقية وبعد التحصيل أيضاً. فإذا أسند يديه وأفصح الفاحص عن الاختلال والاعتلال، أقام له القاضي وصياً وأرسله إلى دار الشفاء، ثم حقق الدعوى وحكم على الوصي بأن يوفي الدائن حقه من مال المديون إذا كان مقتدراً وإلا عَوَّضَ للدائن مع الإمهال.

فإذ كان المدعى عليه صحيح العقل لا اختلال فيه ولا اعتلال، أمر القاضي فتحضر آلة أخرى اسمها المحقق، فيجلس أمامها ويسند يديه إليها أيضاً فتعترف عنه بالحقيقة. فإذا كان غير مديون كرمه القاضي وتركه وعرض المدعي على الفاحص. فإن كان فيه اختلال واعتلال أرسله إلى دار الشفاء. وإن كان صحيحاً أرسله إلى محكمة العقاب.

فإذا كان المدعى عليه مديوناً حكم عليه بالإيفاء أو الإمهال كما تبين لك وسيق إلى المحكمة العقابية. فإن كان مديوناً بشيء والمدعي ادعى بأكثر منه حكم على المديون وسيق الاثنان إلى المعاقبة.

غير أنَّ الإنكار والإبطال والكذب من الأمور القبيحة النادرة الوقوع، وأندر منها الجسارة على الجلوس أمام الفاحص فالمحقق، وهما من اختراعاتنا الغريبة المفيدة، فإنَّ الحاكم يستغني بهما عن الصكوك وعن الإطالة في التحقيق والتدقيق فلا يتحير في كشف الحقائق ولا يُظلم أحد بتزوير خفي. لا تحليف عندنا ولا حلف.

إلاّ أنَّ الدعاوى الحقوقية عندنا قليلة لأنَّ الخلق يستملئون في الديون غالباً، أي يجعلونها في أهل ثقة، وهم الأغنياء الموثوق بأماناتهم الذين يصرفونها في سبيل الاختراعات التي يحصل بها ما يصرف عليها.

لا يثقل الدين رجلاً ولا يبلغ به مشقةً فيعجز عنه، ولذلك لا يقول قائل: لقد أوقرني[2] ديني وبهظني[3].

نحن لا نعرف المحاضرة، وهو أن يغالبك مثلاً أحد على حقك فيغلبك عليه ويذهب به مغالبةً أو مكابرة.

لم نرَ الدائن تَمكَّك على الغريم فيقول هذا يلح عليَّ في اقتضاء الدين. ولا يقول:

1 ـ أنصع للحق: أي أقر به. وقيل نصع بالحق وأنصع: أقر به وأدّاه.

2 ـ أوقر الدين فلاناً: أثقله.

3 ـ بهظهُ الأمر: غلبه وثقل عليه وبلغ به مشقة وعجز عنه.

يا أيها الرجال تأملوا كيف يلببني، انظروا كيف يخاصمني وقد جعل ثيابي في عنقي وصدري وقبضتي وجرني. انظروا كيف يعتلني[1]، أما أبصرتموه جرني جراً عنيفاً وجذبني وحملني؟

ولا يقول ليستدْم[2]، وليكن مستدمياً[3] ليرفق بي، وليكن الذي يستخرج دينه من غريمه بالرفق. لا تدعوه يذهب بي إلى القاضي فإني معسر ليس لديَّ ما أكتفي به من العيش.

ولا يقول إنني أستنظره أي أطلب الإمهال. ما ضره لو طلب حقه في مهلة؟ ألم أقل له صبراً فتأخذ حقك مسمطاً، تأخذه سهلاً مجوزاً نافذاً؟ ألم أقل له حقك ناصع واضح؟

ولا يقول إنني ذرعت بماله أولاً أي أقررت به ولم أنكره. لم أطرّق بحقه لم أجحده ولم أقر به بعد ذلك.

ولا يقول كما تقولون ماذا يبتغي مني هذا، لقد كان له عليَّ دين فأديته. إنني براء مما يدعي. هذا كاذب يجيء بالباطل إلى غير هذا من القال والقيل. ثم قال والدي: نحن سكان الزهرة مأمورون بتأييد الحق، نحن راضون بحقوقنا، راضون بما قسم الله تعالى لنا. من نصر منكم في الأرض محقاً على مبطل فقد جعله الله قاضياً في الزهرة.

الفصل التاسع منه
ـ في العقاب ـ

قال والدي: يظهر لنا نحن سكان الزهرة أننا نرى ونسمع ما أنقله إليك. يساق الجاني إلى ساحة العقاب وهي متّسعة جداً لا يُرى أوسع منها، فيسمع الخلق كلهم أينما كانوا رعداً قاصفاً هائلاً مرعباً ويبصرون الزهرة وكل من عليها يتلألأ بنور يكاد يخطف الأبصار، وهو نور العدالة من عند الله جلّ جلاله فيطرقون وهم يستغفرونه عز ثناؤه بجوارح خاشعة وقد دهشوا هيبة ووقاراً، وبعد نحو دقيقة والعباد على

1 ـ عتله: أخذه بمجامعه وجره عنيفاً فحمله.

2 ـ استدام غريمه: رفق به.

3 ـ المستدمي: الذي يستخرج من غريمه دينه بالرفق.

ما وصفت يسمعون صوتاً جهورياً عظيماً مهيباً ترتعد منه الفرائص وترتجف الأبدان رعباً وهلعاً من خشية الله ذي العظمة والجلال، حتى تكاد القلوب تنخلع والعقول تضطرب فيصرخون بصوت واحد: «ارحمنا يا أيها اللطيف بعباده» ويخرون لوجوههم ثم يصغون ليسمعوا حكم الله العادل وهو هذا:

«لقد حكمنا عليك يا أيها العاصي بأن تخرج نفسك من جسدك هذا، وبأن تقل مداركها وتنزل في صلب الرجل الفلاني، فرحم المرأة الفلانية من بني آدم في بلد كذا من الكرة الأرضية وحالة كذا، فتلبس ذلك الجسم جسم العار غير ذاكر أنك من سكان الزهرة وأنك كنت فيها سعيداً. وقد جعلنا لك هذا النسيان رأفة منا بك. فإذا عشت في الصلاح والفضيلة أعدناك إلى هنا باحتفاء وذلك بعد انقضاء أيامك في الأرض، ومحونا عنك العار الذي لبسته بمعصيتك فلا يعيرك أحد لبسه، فإذا أثمت ثانياً ضاعفنا عقابك وأعدناك إلى الأرض. فإذا عشت في الصلاح وأتممت أيامك فيها بالفضيلة رجعناك إلى الزهرة من غير احتفاء، ومن دون أن تدخل المدينة العظمى مدينة القضاة ولو كنت من سكانها. فإذا داومت على الإثم في الزهرة وتماديت ضاعفنا عقابك وأعدناك إلى الأرض ثالثاً، فإذا أتممت أيامك بالصلاح والفضيلة سمحنا لك بأن تدخل الزهرة، غير أننا نغلق في وجهك باب المدينة العظمى ونترك عليك سمة العار. فإذا أبيت إلا الإصرار على غيك وتماديت فيه سجناك في زحل، حيث لا تكون مدتك أقل من خمسمئة سنة تكابد فيها العذاب الأليم. وبعد انقضاء سنيك نرسلك إلى المريخ، لا تدخل الجنة فتكون في منزلة حقيرة. فإذا لم تعش في الأرض بالصلاح والفضيلة غير أنك إذا تبت قبل انقضاء مدتك رجعناك بعد انقضائها إلى الزهرة من دون احتفاء رافعين عنك سمة العار، إلا أنك لا تسكن المدينة العظمى إن كنت لست من أهلها فتقيم بوطنك إلى أن يتم عمرك، فنرسلك إلى الجنة ولكنك لا تجلس مجالس الذي أطاعوا ولم يعصوا. فإذا رجعت إلى المعاصي أعدناك ثانياً وثالثاً إلى الأرض نضاعف عقابك في المرتين، ثم نرسلك إلى زحل إذا لم ترعوِ عن غيك كما أعلنا لك. فإذا أثمت في الأرض وتبت قبل أن تتم أيامك وكانت توبتك غير كاملة أرسلناك إلى مدينة التكفير في القمر. فإذا عشت فيها تقياً نقياً كفّرنا عن آثامك وعفونا عنك وأعدناك إلى مدينتك قبل نهاية مدتك، فتدخلها باحتفاء فاتحين أمامك أبواب المدينة العظمى إذا كنت من سكانها بعد أن نمحوَ عنك علامة العار، وإلا فلا نعفو فتقيم إلى أن تتم مدتك. فبعد نهايتها نعيدك إلى الزهرة لا يحتفى بك ولا تمحى عنك سمة العار، ولن تدخل المدينة العظمى، فإذا أثمت في الأرض ومت ولم تتب ولم تتبرأ

ذمتك بالرد والتعويض أرسلناك إلى زحل ثم المريخ لا تدخل الجنة كما أفصحنا لك»[1].

هنا قال والدي: إني لأعترض على نفسي عنك فأقول إنَّ الأثيم يحكم عليه بأن ينزل إلى الأرض ويقيم بها ويعود كما علمت، ومن المعلوم أنَّ الله تعالى يجعله فيها ضعيفاً، تؤثر فيه المؤثرات وتهيجه المهيجات، فيأثم بضعفه إثماً يستوجب به السجن في زحل فيقع في عقاب ثان أشد وأقوى من الأول لم يعينه الله بحكمه في الزهرة ولم يعلنه، فهل من العدالة أن يضاعف عقابه بعد تعيينه؟ فأرد وأقول إنَّ هؤلاء المحكومين الذين يرسلون إلى الأرض ثانياً وثالثاً والذين يسجنون في زحل هم الذين كانت آثامهم في الزهرة كثيرة فاستوجبوا السجن فيه، إلا أنهم لم يكونوا من القتلة فرفق الله تعالى بهم وأمر فأرسلوا برأفة منه إلى الأرض لعلهم يتوبون فيها. فمنهم من يتوب ويعود إلى الزهرة فينجو برفق الله ورحمته من عذاب زحل الأليم.

قال: فحينما ينتهي إعلان الحكم ينقطع الصوت ويغيب ذلك النور فيقف الخلق فيبصرون نفس المحكوم تخرج منه في هيئة أفعى تسقط وتتوارى فيبقى الصدى[2]، فيأمر قاضي المحلة أهل المحكوم بأخذه وحفظه، فإن لم يكن له أهل فيرفع إلى محل أُعدَّ له ثم ينصرف الحاضرون.

إنَّ المديون الذي لا يستطيع الدفع إذا حكم عليه بالإنزال إلى الأرض يدفع عنه قاضي البر.

أما الذي يتسبب بإغاظة غيره ويهيجه إلى الشر فيعاقب. وأما مدة الحكم فهي اليوم من دقيقة واحدة إلى مئة وتسعين سنة. فالمحكوم عليه بدقيقة يقضيها في الرحم ويسقط منه ويعود إلى الزهرة. ومن المحكومين من يحكم عليهم بالسقوط إلى الأرض وفيهم حياة فيتمون أيامهم ثم يموتون ويعودون. على أنَّ الذين يموتون في الأرحام قبل أن يخرجوا منها هم الذين كانت خطيئاتهم صغيرة.

هذا وإنَّ أماكن المحكومين تعيّن في الحكم كما سبق الكلام، فمنهم من يحكم عليهم بالإنزال إلى جهات حارة ومنهم إلى أنحاء باردة ومنهم إلى معتدلة ومنهم من

---

1 ـ لقد أشار علي بعض الأئمة الأفاضل بان أكتب ما يأتي: اعلم يا أيها القارئ اللبيب أنني لست ممن يقولون بمذهب التقمص أو التناسخ أو خلق النفوس قبل الأجساد وقد أحلت هذا الجسم البالي للاقتصاص منها. فكل ما يمر أمامك مما لا يطابق الدين القويم إن هو إلا خواطر شعرية سانحة ورُبَّ شعر في نثر ونثر في شعر. والمقصود منها تهذيب الأخلاق وتفكهة القارئين.

2 ـ الصدى: جسد الإنسان بعد موته.

يحكم عليهم بأن يولدوا ويعيشوا في الفقر أو في الغنى. ومنهم من يحكم عليهم بأن تحسن حالهم. ويكثر مالهم، ومنهم من يحكم عليهم بأن تنحط حالهم، ويقل مالهم، ويضيق عليهم معاشهم، ويضعفوا ويذهب ما في أيديهم ويحتاجوا ويخسروا ويفتقروا ويلصقوا بالتراب من الفقر. وترثّ هيئتهم وتسوء حالهم. ومنهم من يحكم عليهم بأن يستغنوا بعد فقر، أو أن يذلوا بعد عز ويفتقروا بعد غنى. ومنهم من يحكم عليهم بأن يولدوا في العز أو في الذل، في الشقاء أو شبه السعادة لأنه لا سعادة في الأرض. ومنهم من يحكم عليهم بالعقم وبمعاناة المصائب والمكاره الظاهرة أو الخفية. منهم من يحكم عليهم بالعمى أو العور أو العرج أو الشلل أو الصمم أو بالعمى والشلل والصمم معاً مثلاً، ونحو ذلك ما يصيب الإنسان أياماً وأوقاتاً معينةً ومختلفةً بحسب الجرم، أي إنَّ بعضهم يولدون عمياً عوراً عرجاً كَتِعين شلاً. وبعضهم يعاقبون بعد ولادتهم بالعمى أو العور أو العرج ونحو ذلك، أو بعلتين وعاهتين أو بثلاث أو بأكثر في وقت واحد. غير أنَّ الله تعالى لا يعاقب بالأمراض العادية الخصوصية، ولا بالموت العمومي الدنيوي (ما خلا العقاب الموقوت كما سيجيء) ولا يعاقب بالجرح والقتل والسلب والتعذيب ونحوها لأنه نهى عنها. والحاصل أنَّ أحوال الإنسان والتغييرات التي تطرأ عليه ما خلا ما استثنى منها، كلها بحكم الله.

قال: ومن المحكومين من يولد على هيئتي أبيه وأمه معاً، أو على هيئة أحدهما فيكون نجلهما في الزهرة أو نجلاً لواحد منهما.

ومن المعلوم أنَّ بني آدم يختلفون بعقولهم وهم من عرق واحد على ما تقولون، فالأخ يختلف عن أخيه ذلك لأنَّ أحدهما ذكي والآخر أبله. أو يختلفون في طباعهم وبعض ألوانهم، أو يختلفون في كل شيء. وحلُّ ذلك هو أن كل واحد منهم من نسل الزهرة، فمن كان عاقلاً فيها وإن دني عقله حين خروج نفسه من جسمه وإنزاله إلى الأرض، فهو بالطبع يمتاز عن الجاهل الذي دني عقله أيضاً، وقس على هذا غيره.

أما الأنبياء والرسل فإنهم ينزلون إلى الأرض وهم أبرار أطهار وذلك رحمة للعباد، ينزلون طائعين مختارين ويلبسون برضاهم الجسم الآدمي. ينزلون ويقاسون التعذيب والقتل والذل وخصوصاً التكذيب الذي هو أصعب شيء عليهم. وهم لا يكونون إلا من رؤساء القضاة.

وبعد نهاية مدة نبوءتهم ورسالتهم يعودون إلى مدينة القضاة في الزهرة بأبهة وإجلال من عند الله، يقول فيهما الواصفون إننا لعاجزون عن وصفهما، ولو اجتمعت

بلاغة البلغاء وفصاحتهم في كلامنا فإنَّ مجد الله يملأ الزهرة فيتلألأ كل ما عليها ويبتهج الخلق ابتهاجاً مدة ثلاثين يوماً، فينقل ذلك النبي أو الرسول بمركبة برقية إلى الجنة فيجلس بين يدي الله تعالى.

إنَّ الذين يعذبون من الأنبياء والرسل ويقتلون يمتازون عن سواهم بمجد أعظم من مجدهم.

أما الملوك فإنهم من أعاظم رجال الزهرة المحكومين أيضاً، فإذا عاشوا في صلاح وفضيلة وعدلوا ولم يقصروا في واجباتهم نحو الرعايا، عادوا بعد انقضاء أيامهم إلى الزهرة بأبهة فيقيمون بالمدينة العظمى سبعة أيام ثم يرسلون بمركبات خصوصية إلى الجنة. غير أنهم لا يساوون الأنبياء والرسل بالعظمة والإجلال فيجلسون بعدهم.

فإذا جاروا وظلموا أو طغوا أو عصوا وخالفوا ولم يضعوا الأشياء في محلها ولم يرعوا الرعايا حق رعايتها، عوملوا معاملة سائر سكان الزهرة الذين أنزلوا إلى الأرض من غير امتياز، فكل واحد منهم يعاقب بحسب أعماله، وأما سرورهم الأرضي وكدرهم فإنهما ناجمان عن أعمال رعاياهم أولاً ثم عن أعمالهم ثانياً، فإذا أدرك الملك الفساد وتدارك الأمة وأصلحها فقد أصلح نفسه معها وعاشوا جميعاً عيشاً هنيئاً رغيداً بقدر الإمكان.

الفصل العاشر منه
_ في القتل العدواني _

قال والدي: إنَّ الله تعالى جعل جريمة القتل أعظم وأفظع من سائر الجرائم، لأنه جلّ جلاله خلق عباده لينموا ويكثروا فلا يسمح لأحد بأن يمدّ يده إليهم بأذى. ولأنَّ القتل يخالف قاعدة كبرى من قواعد الدين وهي المحبة، وعليه فلم نسمع منذ قرون بحادثة قتل أو جرح في الزهرة والقمر.

إنَّ القاتل الذي يعزم عندنا على القتل ويرتكبه ولو مدة نصف ساعة قبل وقوعه، يرسل حالاً إلى زحل حيث لا تكون مدة سجنه أقل من ألف سنة، وبعد ذلك يرسل إلى المريخ من غير أن يدخل الجنة. فيا ويل نفوس أقاربه وأصدقائه ما أشدها حزناً عليه وخجلاً منه! والذي يصمم على القتل ويقترفه وهو في الأرض يرسل بعد انقضاء أيامه فيها إلى زحل ومدة سجنه لا تكون أكثر من ألف سنة. فإذا تاب وندم وكانت توبته كاملة وندامته تامة فلا يعفى من سجن زحل، إلا إنَّ سنيه فيه أقل من سني الذي

لا يتوب ولا يندم. ويشترط في توبة القاتل النادم أن يساعد ما استطاع عيال القتيل.

أما القاتل المتهور غير المصمم، فإذا تاب في الأرض وندم توبة وندامة كاملتين تامتين، وساعد الذين كان يعولهم المقتول بقدر استطاعته، فيسجن بعد مضي أيامه في مدينة التكفير مدى لا تقل عن مئة وخمسين سنة، يرسل بعدها إلى الزهرة من غير احتفاء ومن دون أن يدخل مدينة القضاة ولو كان من سكانها، وتبقى عليه سمة العار. والساعي في القتل والمحرض عليه والمشارك فيه هم جميعاً بحكم القتلة. والذي يكرر القتل يزاد عقابه في كل مرة ضعفين. والذي يعزم على القتل فلا يقوى عليه عدَّ من القتلة غير المصممين. والذين يعذبون ثم يقتلون يضاعف عقابهم.

الفصل الحادي عشر منه

_ في القتل الديني _

قال والدي: إنَّ من الجنايات الفظيعة التي يتأسف على ارتكابها سكان الزهرة ويعجبون من الإقدام عليها ويتألمون منها تألماً شديداً عظيماً جناية القتل الديني (حسب اعتقاد كثيرين من الأمم) ذلك أن يفتك الإنسان بمن لم يتدين بدينه، ويعد هذا الفتك قرباناً يقربه لله تعالى، فيقتل ويفتك ويذبح وينحر ويتفنن في التعذيب، وهو يذكر الله تعالى الذي أمره بالرأفة والرحمة ويستعين به، فتراه في ورع وخشوع يهلك ونفسه مبتهجة. يخضب يديه بدم أخيه وصدره منشرح. يعذب نسيبه الذي يستغيث به وقلبه طيب.

إنَّ الله حرم القتل بجميع أنواعه، فكيف يجزّؤنه ويقسّمونه وينوّعونه ويجعلون بعضه حلالاً وبعضه حراماً، قسماً منه منهياً عنه ونوعاً مأموراً به؟

يغصب الشقيق شقيقه على دينه وكلاهما يبتهلان إلى الله ويستعينان به. ما أقبح تلك المذابح الدينية! ما أفظع تلك السجون التي كانت ممتلئة بآلات التعذيب! ما أردأ بني آدم! ما أجهلهم! ما أعظم غفلتهم! يا بني آدم أتعلمون أنكم أشرس من الوحوش المتضورة؟ إنَّ الوحوش المفترسة تتظلم إذا شبهناكم بها.

قال: أما الذي يقتل وهو يحسب أنه يقرّب قرباناً لله تعالى فيعد قاتلاً ويعاقب. ويعاقب معه ذاك الذي أغواه وأمره عقاباً لا أشد منه ولا أقوى، وهو لا يخرج من زحل إلا بعد خروج آخر سجين بعشرين ألف سنة، وبعد ذلك ينقل إلى المريخ لا يكلمه أحد فيه ولن يدخل الجنة.

الفصل الثاني عشر منه
ـ في القتل الحربي ـ

قال والدي: إنَّ كل من أثار فتنة وتسبب في حرب حمل وزر كل مقتول وعوقب عن كل قاتل. وكل من أخمد فتنة ومنع حرباً فقد غفر الله سبحانه وتعالى له سيئاته وعدّه من الذين عملوا الصالحات.

أما الذين قتلوا في الحروب وقد أمرهم بها حكامهم فتغفر ذنوبهم بدمائهم ويعودون إلى الزهرة. فإذا قتلوا وهم صالحون أرسلوا إلى الجنة ليجالسوا الأبرار معززين مكرمين.

الفصل الثالث عشر منه
ـ في القتل السياسي والمدني العقابي بالأرض ـ

قال والدي: إنَّ القتل السياسي والقتل المدني العادي معدودان عندنا من القتل المنهي عنه، ولو كان بحكم حاكم، والسجن فيهما أقرب إلى التقوى والرحمة والعفو في بعض الأحوال جائز. أما الذين يقتلون عمداً والذين يكررون القتل فيعاقبون بالسجن المؤبد.

الفصل الرابع عشر منه
ـ في لو علم المحكوم ما كان عليه لاجتنب الآثام ـ

قلت لوالدي: لو علم المحكوم المقيم بالأرض ما كان عليه في الزهرة من السعادة لاجتنب الآثام. فقال: لقد علمت مما تقدم أنَّ الله تعالى حينما يحكم على الأثيم ويهبطه الأرض يقول في الحكم ما معناه: «غير أننا لا نجعلك تذكر أنك كنت متنعماً في الزهرة وذلك رأفة منا بك»، لأنه تعالى يعلم أنه إذا جعله يتذكر أيامه في الزهرة وعيشه الرغد بها كان الحكم شديداً بل أشد عليه من الشدة. فإنَّ المخلوق مهما كان أثيماً في الأرض لا يستحق هذا العقاب. إلا أنَّ سجين مدينة التكفير وسجين زحل يذكران الزهرة ويريانها. وهذا عقاب خصوصي للذين لا تكون توبتهم كاملة. وللذين

يتمادون في المعاصي وينغمسون في الآثام يجتنبون المحارم والكبائر. غير أنَّ المقام بمدينة التكفير ليس بمستكره كالمقام بزحل. ومدة التكفير غير طويلة غالباً، وأكثر المكفرين يسمح لهم أن يقيموا بالمدينة نفسها من غير أن يسجنوا. لا يعذبون ولا يشكون غير فراقهم الزهرة. والعبرة للكثير في جميع الأشياء.

ثم قال: إنَّ المخلوق يطمح ويجمح فيمسي عبد الشهوات وأسير الأهواء مرتكباً جسوراً حيث لا محل للجسارة والإقدام، ذلك لأنه يرى ويسمع الحكم على الأثيم في الزهرة فيرتعد بدنه ويستغفر وهو يشاهد تجريد المحكوم عليه من جسده، ويبصر خروج نفسه منه بصورة أفعى قبيحة، ويبصر في بعض الأحيان سكان الأرض يعذبون فتنبض فريصته رعباً ويبصر كيف يموت الأبرار، ومع هذا كله فإنه لا يعتبر بل يأثم ويندم، ثم يعود إلى الزهرة ويأثم أيضاً فيرجع إلى الأرض وهذا منتهى العجب. لا تقل في سرك ليت الله تعالى يرسل إلينا في كل مدة نبياً يدعو إلى الخير والفلاح بالمعجزات (ولقد كنت عزمت في سري أن أقول هذا فعلمه قبل أن أفوه به) أما كفى ما قتل الناس عندكم من الأنبياء وعذبوا من الرسل وكذبوا؟ فعليكم بكتبهم فهي كافية وافية واستمسكوا بها واسترشدوا.

قال: لقد قلت «إنَّ المخلوق يبصر في بعض الأحيان سكان الأرض يعذبون»، أي إنَّ الله تعالى إذا رأى عبده في الزهرة قريباً من الانحراف عن الحق أراه سكان الأرض وهم يعذبون وذلك ليعتبر.

الفصل الخامس عشر منه

_ في عذاب زحل _

وقلت لوالدي: صفْ لي عذاب زحل: هل هو نار محرقة أم غير ذلك؟ فقال: إنَّ الله عز ثناؤه ينهي الخلق عن التعذيب فكيف ينهي عن شيء ويأتي مثله؟ لقد جعل العقاب من نفس العمل، فيصور للمحكوم عليه أعماله بحالة طبيعية وينير قلبه وعقله لكي يشعر بفظائعه ويقدرها حق قدرها، ويجعله ينظر المتنعمين من أهل الزهرة والمريخ أيضاً (إلا أنَّ المحبوسين في مدينة التكفير لا يبصرون سكان المريخ فعذابهم من هذا القبيل أخف من عذاب المسجونين بزحل) فيعاني عذاباً أليماً شديداً، عذاباً قوياً مبرحاً لا يقدّر ولا يعبر عنه. وهو أنَّ بعض الأرضيين يقتلون

ويعذبون ويسلبون ويظلمون ويهينون ويطردون إلى غير هذا من الجرائم والكبائر والشرور والفظائع. فحينما يذهبون إلى زحل تنجلي لهم الحقيقة فتتجسم أعمالهم ويرونها كأنها تجترح في تلك الدقيقة التي هم فيها من غير أن تغيب عنهم وذلك مدة سجنهم.

ماذا يرون؟ يرى القاتل نفسه غالباً يقتل ويعذب نجله الذي ولد له في الزهرة وأخاه وابن عمه وأحد أقاربه أو أحد أصدقائه وأحبابه. يراهم يسترحمون ويتذللون بين يديه ليرحمهم ويريحهم من عذابهم، وهو يزداد قسوة وتوحشاً. فعندما يتحقق ذلك وفواحش أخرى اقترفها يصير في حالة من العذاب والندم والتأسف والتوجع والتفجع أشد من النار المحرقة.

الباب الثالث

الفصل الأول من الباب الثالث
_ في المحاماة بالأرض _

قال والدي: إنَّ آفة الحقوق عندكم المحامون. يزداد التزوير والاحتيال بازدياد المحامين. إنَّ المحاماة حرفة شريفة رفيعة لكن العدد الأوفر من أربابها أدنياء.

يجب أن يكون المحامون من أعاظم الرجال غير أني أرى أكثرهم من سفلتهم.

لا يكون المحامي محامياً إلا إذا كان عالماً متبحراً في العلم. فمالي أرى الجانب الأعظم منهم جهلاء؟ هل المحامي إلا صادق أمين، فلماذا تقبلون على الخونة الكاذبين؟ إنَّ الذي يخون خصمك ويخدعه يخونك بعده. إنَّ المحامين الصادقين يؤيدون الحق ويثبتونه، فكيف يجوز لكثير منهم أن يصيروا خصوماً يؤيدون الباطل؟ أيرجى منهم أن يجتهدوا في تخليص موكليهم وهم أكلة أموال اليتامى والأيامى والأرامل؟ أتدرون من هم اليتامى؟ هم الصغار القاصرون الذين ظلموا في الأرض قبل أن يعرفوا كيف يتظلمون. هم الضعفاء الذين يستمدون القوة من الأقوياء فكيف يغدر بهم وهم الذين لولاهم لما أشار الناس إلى الرحيم وقالوا هذا الرجل من الرحماء؟

من هن الأيامى والأرامل؟ هن اللواتي يعرفن كيف ظلم أولادهن ولكنهن لا يعرفن كيف يدرأن الظلم عنهم، وهن اللواتي مضى رجالهن وتركوهن إلى الذين يتمدحون بالمروءة وينافسون فيها. أي فظاعة أفظع من محام يساعد ظالماً على هضم حقوق أيمّ ويتيم؟

ساعدوني يا إخواني من أهل النخوة والإنسانية على لعن هذا المحامي، أجهروا معي بإخزائه وأنتم لا لوم عليكم ولا جناح. أية لعنة أعدل من أختها هي التي تنقض على هذا المحامي فتصعقه بصاعقة من غضب الله تعالى وسخطه؟

هل يجوز للجانب الأكثر من المحامين أن يجدّوا في تبرئة اللصوص والقتلة؟ من دافع عن لص وقاتل معروفين باللصوصية والقتل فقد شاركها فيهما.

لا أدري متى يمن الله تعالى على المجتمع الإنساني فيكف عنه أولئك البغاة الطغاة ويدحقهم دحقاً.

يا ويلكم يا أيها المحامون الظالمون الذين يساعدون الباغين على بغيهم. من أنتم وما هو شغلكم وعملكم؟ أأنتم أنصار الحق؟ أأنتم الطبقة الأولى من البشر؟ أأنتم الذين يطلب الناس عندكم حقوقهم ودماءهم ويصونون بكم أعراضهم ويحفظون أموالهم؟ أأنتم المصابيح النيرة التي يستنير بها الحكام؟ أبكم يستضيئون ومنكم يقتبسون؟ أفيكم ينافسون؟ أإليكم يرجعون؟ أعليكم يعتمدون؟ أأنتم ملاذ المظلومين وملجأ الضعفاء؟

أنتم مبدأ الطمع وداعي اللصوصية. أنتم منشأ اللوم ومعدن الفساد. أنتم مصدر الإغراء وأُسّ الاحتيال وسبب الخصام. أنتم منبع الشر وجرثومة المكر وواسطة الغدر ومادة الفتك. أنتم أصل الظلم وفرع البغي ومنجم الباطل. أنتم غاية الفظاعة ونهاية الدمار. وأنتم الذين أخجل أن أخاطبكم بقولي لكم أنتم.

أما أولئك الأفاضل الذين يأخذون بيد المظلوم ويضربون عن يد الظالم، وأولئك الذين يتسمون بالقناعة والمروءة ويتسامون بالنشاط ويدرأون عن نفوسهم الشبهات بالأمانة والنزاهة، وأولئك الذين إذا حكموا أنصفوا وأصلحوا ما أفسده الظالمون، وأولئك الذين لا يراوغون؛ فهم الذين تبتهج الإنسانية بذكرهم الصالح وتسأل الناس رفيعهم ووضيعهم، أن يميزوهم ويخصوهم بالتكريم والتعظيم لأنهم دعاتها وأنصارها وهذا قليل من كثير.

إذا اختارت الحكومات المحامين مثلما تختار أعضاء المجالس فمن كان منهم صالحاً أعلت منزلته وثبتته، ومن كان فاسداً منعته وطردته، كثر خيرهم وقلَّ شرهم.

الفصل الثاني منه
ـ في قضاة المحاكم الأرضيين ـ

قال والدي: من ظن في نفسه أنه قادر على القضاء لم يعرف منزلتها من الجهل، ومن استخف بالقضاء فقد استخف به الناس ووجب منعه منه. لا يكون الرجل منكم قاضياً إلا إذا كان حكيماً، ولا يكون حكيماً إلا إذا كان عادلاً عالماً حليماً كلامه موافق الحق، ولا يكون حكيماً أيضاً إلا إذا وضع الشيء في موضعه.

من كان فيه صواب الأمر وسداده، ومن كان يحكم القول والفعل ويمنع نفسه مما لا ينبغي لها، فهو الحكيم. فانظروا إلى الكثيرين من قضاتكم وأعضاء مجالسكم: هل هم حكماء؟ وهل يصلحون للقضاء؟ هل هم قانونيون؟ وهل لهم من قوة الحجة والمعرفة ما يؤيدون به الحق؟ وهل لهم ألسنة تتكلم وهل يفهمون ما يتلى عليهم وينقل إليهم؟ وهل يستطيعون الاعتراض ويدركون أنَّ لهم حق الاعتراض؟ أيعقلون؟ يا ليت شعري ما هو وكيف يكون. يا عجباً منهم، أهو صك يحسبون فائدته ودنانيره؟ أهو نسيجة حائك يبخسونه حقه، أم هو ثوب بز يغبنون المشتري في بيعه؟

يا أيها القضاة الذين لستم على شيء من العلم والعقل لماذا تعرضون نفوسكم لذلك والإهانة؟ إنني لا ألومكم لأنكم تعتقدون أنَّ المثري لا ينقصه بثروته علم وعقل، وأنه إذا هذى وجب على الناس أن يقولوا أفصح مولانا. وإني لا ألومكم يا أكثر الأعضاء لأنكم بُلْه لا تعقلون. ولكنني ألوم أولئك الذين يمدحونكم ويعرضون أسماءكم يوم توزيع الأسامي كما تقولون في اصطلاحكم. لماذا يختارونكم؟ أيعتقدون أنكم أكفاء للقضاء وللذين يشاركونكم فيه؟ فإن كان هذا اعتقادهم فهم مثلكم ودونكم. وإن كانوا يعرفونكم حق معرفتكم فلماذا يحكمونكم في حقوق العباد ويعرضونكم للمذلة والاحتقار؟ ألم يكن أكرم لكم لو تواريتم في مخازنكم عن عيون النقادين؟ تطلبون المعالي بالقضاء وهو يجعلكم أضحوكة. أنتم ترضون بالهزء وتقبلون السخرية، وأما الأمة فلا ترضى أن تنوبوا عنها لأنَّ النواب يجب أن يكونوا من العقلاء المميزين العارفين ما للأمة من الحقوق وما عليها من الواجبات. تريد الأمة رجالاً يحافظون على حقوقها ويرعون كل أمورها، وأما أنتم فتضيعون الحقوق من غير أن تعلموا.

الفصل الثالث منه

ـ في الوصاية بالأرض ـ

قال والدي: لا تكن وصياً لئلا تتهم وأنت بريء، ولئلا تغفل عن حق اليتيم والأيّم المظلومة فيسألك الله تعالى عنهما. ولئلا تغلب حب ولدك على حب اليتيم. ولئلا تستقرض ماله فلا تستطيع رده. ولئلا يخدعوك فتصرفه في غير محله، ولئلا تكون عاجزاً فتؤذي اليتيم والأيم وأنت تشفق عليهما ولا تريد إلا نفعهما.

وصيتي إليك أن ترد الوصاية. من أكل مال اليتيم والأيم فقد أكل جمرة لا تخمد واستمطر عليه اللعنات تترى الواحدة بعد الأخرى.

الفصل الرابع منه
ـ في الحروب والمذابح والفظائع بالأرض ـ

قال والدي: ليس لي إلا أن أقول طوبى لنا نحن سكان الزهرة، لنا السعادة والغبطة، لنا الخير والحسنى، لأننا لا نعاني مصائب الحروب. إنَّ أعراضنا وأوطاننا وكل ما لنا مصونة مثل نفوسنا. لا تهلع قلوبنا ولا تنخلع بالمذابح ولا تذل نفوسنا بالأسر. لا نحتم[1]، لا نختلف في شيء بالزهرة إلا يزول حالاً. نعم إنَّ الذين يقتلون في الحروب وهم مأمورون بها تغفر ذنوبهم بدمائهم ويعودون إلى الزهرة كما علمت ويخلصون من الأرض، غير أنَّ القتل والعذاب يؤلمانهم ويكربانهم وهما غير معينين في الحكم عليهم بالزهرة.

إنَّ الملوك عندنا هم رؤساء القضاة وهم موكلون بحفظ الرعايا وراحتها، والقضاة كما عرفت يفصلون الخلاف ويصلحون فلا نضطر إلى الحروب التي نتلاشى بها، ولا يقوم الأقوياء على الضعفاء ولا يثور الكبراء على الصغراء. لا تهجم الشعوب على القبائل ولا القبائل[2] على العمائر، ولا العمائر على البطون ولا البطون على الأفخاذ، ولا الأفخاذ على الفصائل فيتفانوا ويتلاشوا.

لا تغصب كل أمة أختها وتسلبها حقوقها الطبيعية والوضعية وتتسلط على خيراتها وتستعبدها. لا جنود عندنا ولا قواد ولا مهندسيّ حرب ولا أسلحة، لا ننافس في اختراع الأسلحة السريعة ولا نتفاخر بالحيل والمكامن المعدمة الحياة. لا نتبارى بالتغلب والقهر وفتح المدن والقلاع والحصون كما أنتم تتبارون. لا قلاع ولا حصون عندنا في الزهرة. لا نجعل النساء أيامى ولا الأطفال يتامى. لا نجري دموع الأمهات حزناً على فتيانهن الذين يذهبون وهم في مقتبل العمر فرائس الأطماع، يداسون تحت الأقدام، يدوس الأخ أخاه ويهلكه وهو لا يدري.

---

1 ـ احتم الرجل: اهتم في الليل أو لم ينم من الهم.

2 ـ قال صاحب الكشاف: الشعب الطبقة الأولى من الطبقات الست التي عليه العرب وهي الشعب والقبيلة والعمارة والبطن والفخذ والفصيلة. فالشعب يجمع القبائل والقبيلة تجمع العمائر. والعمارة تجمع البطون. والبطن يجمع الأفخاذ. والفخذ تجمع الفصائل. فخزيمة الشعب. وكنانة قبيلة. وقريش عمارة. وقصي بطن. وهاشم فخذ. والعباس فصيلة وقد زادوا طبقة سابعة وهي العشيرة يريدون بها بني الأب الأقربين.

لا مغيث لمستغيث ولا مجير لمستجير. إذا أراد راحم أن يرحم ومساعد أن يساعد في احتدام نيران المعامع فلا يجدان إلى الرحمة والمساعدة سبيلاً.

ماذا تفعل عندكم في تلك الساعة جمعية الصليب الأحمر المحمود سعيها؟ تنظر إلى بني الإنسان وقلوبها تنقطع توجعاً وتفجعاً. هناك التوحش الذي يستفظعه وينفر منه من ألف كل فظيع، بل التوحش الذي هو أشد من توحش الوحوش الضارية التي تلتهب أحشاؤها جوعاً وعطشاً. ماذا أقول وكيف أصف ذلك التوحش؟ أقول إنه أشد وأفظع وأقبح وأردأ من الشدة والفظاعة والقبح والرداءة. ليتوار الإنسان في وهاد الأرض وأغوارها. إنَّ هذا الإنسان لفي جنون، فقد غلبته كبائره وشراسته حتى ضاع رشده، فيا ليته يعقل ويدرك ما يفعل ويا ليته يبصر. لقد عمي وعمه[1] ولكن عن الرحمة والخير.

ما أكثر طمعك يا إنسان ما أشد تكبرك وعجرفتك. ما أعظم شرك وضرك. ما أغراك بالقبائح وأولعك بالفظائع. هو الطمع هو الجشع الخبيثان المؤذيان القاتلان الملعونان لعنات متواليات متتابعات. لقد قادك صلفك إلى الشرور والرذائل وإلى إهانة نفسك وإذلالها بل إلى إهلاكها في سبيل أطماعك الدنيئة الساقطة.

لقد دنست الأرض ونجستها وظلمتها بكبائرك الصادرة عن تجبرك وغطرستك. لقد أقلقت الأرض وأزعجتها بغدرك ومكرك ودهائك حتى لعنتك وتمنت لك الانقراض لتستريح هي من توحشك، فتستأنس بالضواري لكونها أرحم منك، فإنها إذا شبعت أنست ولطفت وسكنت، وأما أنت يا أيها الإنسان الظالم فإنك كلما شبعت أشرت[2] وبطرت ونهمت وشرهت وجفوت وقسوت وطغيت وبغيت حتى فقت بالتوحش أعظم الوحوش كما ذكرت، فتبرّأ الحيوان المفترس منك وتنصل[3] إلى الأرض والسماء من خياناتك وجناياتك وكل فظائعك فتركك وابتعد عنك ونفر منك، لا يساكنك خوفاً على نسله لئلا يتفنن تفننك في التوحش، فاختار الأودية والغابات والوهاد والجبال المرتفعة الصعبة والمسالك وتوغل في أدغالها وأجماتها فراراً منك واعتصاماً بها، أنت الذي تفاخر بإنسانيتك. وانفرد يحمد ربه ويشكر خالقه على نجاته من وجهك الغضوب

1- عن الزمخشري العمه كالعمى غير أنَّ العمى عام في البصر والبصيرة والعمه خاص بالبصيرة.

2 ـ أَشَرَّ فلاناً: نَسَبَه إلى الشرِّ.

3- تنصل إلى فلان من الجناية: خرج وتبرأ.

لئلا يتطير[1] بالنظر إليه. أنت الذي تدعي بالمدينة وتحاضر بحضارتك وتباهي بتمدنك الحديث وتباري بدينك ومعتقدك وتغضب وتسخط إذا تنقصهما أحد وتكفره، كأنك تقي ورع وأنت في كل ساعة تهين دينك بقبائحك وتهتك حرمته بإقدامك على هذه الرذائل. لماذا تغار على شيء لا تعمل به ولا تحبه؟ كيف تغار عليه وأنت بعيد عنه؟

ما هذا الرياء وما هذه المداجاة؟ ما هذا النفاق؟ أهذا كل دينك؟ ماذا تستفيد منه إذا كنت لا تريده لنفسك؟ لماذا لا تتدين لتريح عقلك وقلبك وجسمك كله؟ تريد أن تتدين ولكنك لا تجد لك ديناً يحلل المحرمات ولا ينهاك عن المطامع الدنيئة. قل لي هل انتفعت بها حتى لا تنفك تسعى وراءها؟ ألا يكفيك ما اقترفت وما جمعت؟ يا ليتك اكتفيت واسترحت وأرحت. إنك شرير لا تريد إلا الآثام والشرور حتى صرت تمدح الشر وأهله. ارحم نفسك يا أيها الإنسان ولا تهلكها. لك العقل يا عبد طمعك وأسير جشعك، واستيقظ من ضلالك وجهلك، واعلم أننا نحن سكان الزهرة إذا أردنا أن نضع نفوسنا ونروضها ونتقشف نظرنا بأمر الله إليك عن بعد ونحن نرتعد من لؤمك وقساوتك ومن شدة حرصك، فنحمد الله تعالى ونعتبر بك خاشعين.

نكره النظر إليك ونتعوذ بالله من شرورك. أفهمت ما أقول يا أيها الإنسان؟ أقول: إننا نتعوذ بالله تعالى من الإنسان الأثيم كما تتعوذ أنت من الشيطان الرجيم، فلك الخزي والعار يا ويلك يا أيها الإنسان الغضوب الشرس، بل الويل كل الويل لك يا أيها المتغطرس المفترس.

يا أيها البشر أبناء آدم: ألستم كلكم أقرباء وأنسباء؟ ألستم من سلالة واحدة؟ ألستم أولاد أعمام؟ ألستم من أب واحد وأم واحدة. اعقل يا هذا وأدركْ وافهم وتيقن أنه لو كان آدم في الأرض حياً ومات اليوم لأصابك منه سهم بحكم الوراثة لأنك ولد من أولاده. أفهمتهم يا أيها الأرضيون أنكم من أصل واحد فكيف تتسابقون إلى المقاتل والمذابح وأنتم تتمدحون في جرائدكم ومجلاتكم وتآليفكم وفي منابركم وأنديتكم وتقولون: هكذا يكون الوطني الغيور على وطنه فإنه يفديه بدمه؟ الله الله ما هذه الغيرة الوحشية! ما هذه النخوة الضائرة! ما الذي يبعثك يا أيها الإنسان على هذا الفداء وأنت تعيش برفاهية إن كنت لا تطمع في وطن غيرك؟ لا يبعثك عليه غير التكبر والتعظم واستحلال ما هو محرم.

---

1 ـ تطير بالمشي ومنه: تشاءم.

ألا يقع نظرك يا أيها الوطني الغيور على أخيك حين تقتله؟ ألا تأخذك به رأفة فتكف عنه؟ إني لأعجب كيف لا ترتجف أعضاؤك ساعة قتله، وكيف لا يسقط السيف من يدك. أهكذا يفعل حب الذات في الإنسان؟ ليرحمك الله يا أيها الإنسان لأنك لست تشعر بفظائعك ولا تدري ما تفعل. إنك تهدأ فتندم ثم تعود إلى أقبح مما كنت عليه.

وقال: لقد علمت أنَّ بعض الرحماء الأفاضل عندكم يسعون الآن في منع الحروب (كما سعى غيرهم في تخفيف بعض ويلاتها فرحمهم الله عز ثناؤه وأحسن إليهم) ولكن هذه غاية لا ترام الآن وقد طلبت قبل أوانها ولذلك لم تتم. ولا أقول إنهم طلبوها قبل وقتها فقط، بل لم يمهدوا لها الطرق ولم يعدوا المعدات الفعّالة. إنَّ هذه المسألة العظمى تقتضي جهداً عظيماً في أعوام تتوالى على الآباء والأبناء.

إذا أرادوا أن ينجحوا ويفلحوا ويربحوا رضى الله تعالى التام ويصونوا كل عزيز لديهم، فعليهم في أول الأمر أن يجدّوا في اختيار لغة قريبة المأخذ سهلة الحفظ قليلة الشوارد وجيزة رقيقة، يجعلونها اللغة العامة لكي يتقارب البشر عندكم فيتشاركون في المصالح، ويتشاكلون ويتوافقون ويتماثلون في العادات والمآكل والمشارب، ويتودد كل واحد إلى الآخر حتى يصاهر بعضهم بعضاً وتراهم يتشابهون في كل أمر. وعليهم في ضمن هذا أن لا يكفوا عن حسن السعي في جعل الناس يقلعون عن التعصب والتحزّب معاً، وذلك بنشر الرسائل العلمية والمقالات التهذيبية، وإذاعة النصوص والنقول والأحاديث الدينية التي هي أقرب من غيرها إلى تأليف القلوب والمساواة بين الأمم، وإبداء النصائح والروايات المؤثرة تمهيداً لتعميم المحبة والفضيلة في كل المدارس والأندية التي يجب أن تكون جماعتها من جميع الأديان والملل المختلفة المذاهب والعادات والأهواء. ويجب أن يجتهد في تعليم التلامذة بعض الفوائد والحكم التي تجتمع الكلمة بحفظها وترغبهم في تبادل المنافع، حتى إذا خرجوا من المدارس أعدت لهم الشركات الخصوصية لتتحد القلوب بتوحيد المنافع.

أما المعلمون فيلزم أن يكونوا من أكابر العلماء المشهورين بالآداب والفضائل، وخصوصاً بعلم الأخلاق وإلا فالفائدة معدومة. ويجب على الشعراء والأدباء والخطباء البلغاء ومشاهير الكتاب أن يدعوا كل شيء ويدأبوا في الحث والتحريض والترغيب والتشويق والتحبيب بما امتازوا به من البراعة والمهارة في الخطابة والكتابة والإنشاء.

ولا شك في أنَّ الملوك ورؤساء الأديان والأمراء والفضلاء ينهضون عند ذلك نهضة

واحدة، ويأمرون أمراً نافذاً قاطعاً بإمضاء هذا الخير العام وتنفيذه، ويعينون جوائز ومناصب للذين يمتازون عن سواهم بالإفادة والتأثير في نجاحه وتعميمه، كل ذلك بعد أن يكون أولو الأمر قد تعاهدوا وتعاقدوا وتحالفوا على صيانة ممالكهم وحفظها من الأطماع.

أما الأراضي الخارجة عن العمران البشري التي يعدونها غير داخلة في حقوق الدول، والتي لم تدخل في سلطة الأمراء العادلين، والتي يحسبونها غير مملوكة، فيتفقون عليها. وبعد هذا كله فترك الحرب مستطاع والإجماع على السلام سهل.

فإذا أجمعوا ثم وقع بينهم خلاف كان جزئياً وكان حله ممكناً (ما دامت ممالكهم والأراضي المباحة مصونة بالمعاهدات كما ذكر) وذلك باختيار محكمين دائمين ينتخبون من ربوات من الشعوب ويعينون لفصل كل خلاف دولي. فإذا حكم على أحد ولم يقبل الحكم كان على الدول المتعاهدة إلزامه، وعندي أنه لا يسعه إلا الرضى لأنَّ البشر حينئذ يصبحون غير الموجودين اليوم. وفي هذا ضمان السلام إن شاء الله تعالى. فيا لسروركم وحبوركم إذا نجوتم من تلك المصائب الفظيعة الناجمة عن الأطماع!

فإذا أتى على ترك الحروب خمسون عاماً لا أكثر انقلب الإنسان من حالة إلى ضدها فيصبح وديعاً رحيماً ومحباً رفيقاً، فتقل المحارم التي منها الطمع وتخف ويلات الأرض، لأنَّ المرء رهين العادة وأسيرها فإذا عودته التوحش تعوده حتى يفوق الوحوش وبالعكس.

وقال: لا تعترض علي بأن تقول إذا تمَّ هذا الإصلاح العام وخفت ويلات الأرض فلا تصلح لعقاب المجرمين من سكان الزهرة. فإذا اعترضتَ قلت لك: إذا صح هذا الانقلاب (وسوف يصح إذا شاء الله) وقدرنا أنَّ الأرض ارتقت به مئة درجة، فالزهرة ترتقي خمسمئة، وعليه فكلما تقدمت الزهرة خفف الله عقاب البشر في الأرض بتقدمها العمومي.

حرب الإنكليز والبويرس

قلت لوالدي: ما ترى في حرب الإنكليز والبويرس القائمة الآن في إفريقيا الجنوبية؟ أعادلة هي أم جائرة. فأجاب: كل حرب جائرة. فقلت له: إنَّ كثيرين يقولون بجور الإنكليز. فقال: إنَّ الإنكليز ولو جاروا وهم أعداء فإنهم أعدل من أولئك الأصدقاء الذي يضحون بالبويرس على مذابح مآربهم، يريدون أن يغرقوا الإنكليز بدماء محاربيهم فيبيدون عن آخرهم والإنكليز لا يغرقون. لقد حمسوا البويرس حتى احتموا واحترقوا أو كادوا والإنكليز متنعمون بجزيرتهم الباردة. يمدحون بسالة البويرس وثباتهم وهم كلما مدحوا استقتلوا.

إنَّ البويرس يدافعون عن استقلالهم ولكن هل ينفعهم الاستقتال؟ هل يكرهون

الإنكليز على تركهم. هل يستطيع الإنكليز أن يرتدّوا عنهم؟ إنَّ الإنكليز مكرهون على الثبات أكثر من أعدائهم. إنَّ الإنكليز مهما خسروا فهم الرابحون بعد نجاتهم من هذه الحروب. إنَّ الإنكليز يعوضون وأما البويرس فلا أمل لهم بالتعويض ولو كابروا.

ما مثل البويرس من الإنكليز إلا مثل البراغيث من الإنسان، فإنها تقلقه وتحرمه لذيذ المنام وتمتص من دمه غير أنها لا تمرضه، فإذا طلبها فرت وتوارت ثم كرت عليه فيهب من فراشه ويتأثرها فيدرك بعضها ويختفي بعضها وهكذا إلى أن يقل عددها، وهو مع ضخامته لا يستطيع أن يدركها كلها في وقت واحد لأنَّ مداخلها ضيقة وهي خفيفة كثيرة التنقل لا تستقر في مكان فيتتبعها بصبر وحكمة إلى أن تحصر فتقبض.

لقد أخطأ البويرس في استثناء الإنكليز من بعض المعاهدات، فلو عاهدوهم كما عاهدوا غيرهم من الدول لأصابوا، ولكنهم اغتروا بمواعيد بعض كبار السياسيين وغيرهم من المحرضين الذين لا يهمهم إلا شغل الإنكليز، لا ليتمكنوا منهم بشيء بل ليجعلوهم يتغافلون عنهم.

لقد أخطأ ساسة البويرس وقوادهم في غزو بعض المدن من مستعمرة الرأس الإنكليزية. لقد خدعتهم أمانيهم وزعموا أنهم يملكون تلك الأمصار. هجموا على قلاع الإنكليز وحصونهم فارتدوا عنها مدحورين، فعلم أنهم رجال غارة لا رجال حرب، فلو وقفوا في حدودهم لأمنوا شر الرُّجْعَى وذلها التي كانت عليهم أنكى من الحرب كلها، ولم يكرهوا الإنكليز على بذل النفس والنفيس ولم يضطروهم إلى تعويض شرفهم بتتبع الحرب. ومما زاد الإنكليز رغبة في مواصلة القتال هو استخفاف بعض الدول بهم تنصراً للبويرس فكانوا بذلك عليهم لا لهم، وهم لا يتأملون.

الفصل الخامس منه

_ في السجون والمنافي _

قال والدي: إذا أردت أن تعلم أين السلام والسكينة فاذهب لو أمكنك إلى غرفة من غرف المنفى العظيم والحبس الكبير في مدينة التكفير القائم على هضبة عالية في روضة أريضة، تفوح أزاهيرها وتضوع[1] فتحمل روائحها الرياح إلى الروابي والبطاح فترتاح إليها الأرواح. وتأملْ ترَ المياه النقية العذبة تنحدر من تلك الهضبة متكسرة

1 ـ ضاع المسك: تحرك فانتشرت رائحته.

كأنها تصيح وتصرخ حزناً على فراقها أعاليها. تجد المحبوسين في أمن وسلام يحمدون الله تعالى غالباً ويشكرونه، تجدهم معتكفين على التعبد والتزهد كأنهم في معبد عظيم. كلما حمد المحبوس وشكر تفتحت أمامه أبواب الفرج فيزداد تعبداً وتورعاً وتزداد أخلاقه تحسناً، فإنَّ الغاية من المحابس التهذيب والتأديب برقة وتلطف، فيخرج منها كأنه خرج من مدرسة عالية مشهورة بعلم السلوك والأخلاق، وقد اتسعت دائرة عقله فأدرك ما لم يكن يدركه قبلاً، وتعلم ما لم يعلم لأنه يتفرغ للتعلم فلم يشغله عنه شاغل، ولأنه اتعظ بتلك المواعظ وانتصح بالنصائح التي ألقاها عليه قضاة من مشاهير الرجال الأتقياء والعلماء ذوي الفضل والفضيلة. وأولئك القضاة يقفون نفوسهم بالطوع والرضى على خدمة المحبوسين وتعليمهم وتهذيبهم. هذا وإنَّ سجن زحل الأعظم الذي يقاسي فيه الأشرار العذاب ألواناً نحسبه مدرسة. فلا يخرج السجين منه إلا بعد أن ينقّى من كل عيب ويتجمّل بأحاسن السجايا ومحاسن المزايا ليكون صالحاً للإقامة بالمريخ.

قال: وإذا أردت أن تبصر شر الإنسان وتوحشه وشراسته وتوسعه في فنون القبائح وتقدمه في اختراع الرذائل، وإذا طلبت أن تعلم كيف يكون غدر الإنسان المتوحش، وإذا رمت أن تعرف أين تقر الفجور والآثام والكبائر والجرائم وأين الدناءة السدومية، وإذا رغبت أن تتحقق أين توجد الدنايا وأين الفواحش البربرية، وإذا شئت أن تنظر أي عالم تنشأ فيه ويلات الإنسان ومصائبه ونوائبه ومصاعبه ومتاعبه وشدائده ومكارهه وأكداره وغمومه وهمومه وفواجعه وبلاياه ورزياها وتنتشر بين البشر عندكم، وإذا وددت لو تتيقن كيف تنبعث الأوخام والأوساخ والأدران والأقذار فتتفشى العلل والأمراض بكم، فقوِّ قلبك وتشجعْ وادخلْ ذلك العالم الصغير ألا وهو السجن والمنفى العمومي في قلعة من قلاعكم التي لا تجهلها. ولا أخالك تدخله فإذا دخلته ارتعت من هول وشناعة تلك المرائي والمناظر الكريهة القبيحة، لا تدخله لئلا تشمئز ويقفَّ[1] شعرك ويتمعر[2] وجهك ويتقبض جلدك ويقشعر بدنك وترتجف أعضاؤك وتنبض عروقك ويحبض قلبك[3].

هناك الشتم والتعيير. التهديد والحقد والنميمة. هناك الكذب والتزوير والمراوغة. الاغتياب والسرقة والجور. هناك الغدر والمكر والخديعة والغضب. هناك اللطم

1 ـ قفَّ الشعر: قام فزعاً.

2 ـ معر الرجل وجهه: غيره غيظاً. وتمعر وجهه مطاوع معر. يقال: معر وجهه فتمعر.

3 ـ حبض القلب: ضرب ضرباً شديداً.

واللكم والضرب والجرح والقتل. تجد هذه النقائض والجرائم وتلك الرذائل والفظائع والفواحش التي أشرت إليها وتجد أشياء كثيرة غيرها لم أذكرها.

ترى كثيرين من المتأدبين أولي الأخلاق الرضية الحسنة يفقدون آدابهم ويضيعون مزاياهم (بعد ما يضمون إلى السفلة الأدنياء).

يستغيثون ويستجيرون ويتوجعون ويتفجعون ويشكون ويتظلمون ويتململون، ويئنون ويموتون كالكلاب على المزابل والأقذار. تزهق نفوسهم بين القبائح والشنائع ويخلصون وهم سعداء بخلاصهم فيحسدهم إخوانهم الذين يموتون ويحيون كل يوم مراراً مما يعانون ويكابدون.

يطلبون أن تخرج أرواحهم فلا يجابون فينتحرون. إنَّ كثيرين منهم يغلب عليهم اليأس فيمسون ويصبحون كالكلاب الكلْبى[1] أو الوحوش الضارية. فأين الرحيمون المشفقون الحنونون الرؤوفون؟ أين مخففو الويلات عن إخوانهم؟ أين جمعية الصليب الأحمر؟ أين لجنة الرفق بالحيوان لترفق بالإنسان؟ أين المتبتلون؟ أين الزهاد؟ أين النساك المقيمون برؤوس الجبال المعتزلون المنفردون عن البشر في صوامعهم؟ أين الرهبان المتنعمون في أديارهم. أين الذين ينذرون على نفوسهم تمريض المرضى؟ أين المتصدقون على المسجونين ليسارعوا إلى هذه السجون؟ ليعلموا جميعاً أنه ليس التزهد والتنسك والترهب في تجنب الناس والانزواء والانفراد وحب الراحة، راحة الأبدان إجابة لداعي الكسل وحب الذات المتمكن من قلوبهم، وليس التعبد بالفرار من عذاب الدنيا ومشقاتها.

يزعمون ويعللون نفوسهم بأنَّ لهم في ذلك فضلاً وأجراً وثواباً. لا فضل لهم ولا أجر ولا ثواب إلا بمساعدتهم إخوانهم هؤلاء المسجونين في أمثال تلك السجون البعيدة عن الأنظار.

لينذروا شيئاً من مالهم، لينذروا لله تعالى خدمة إخوانهم مدة يعينونها بقدر تجلدهم القوي، فيكافئهم الله بنقلهم إلى الزهرة فالجنة حيث يجلسون مع الأبرار، فإذا أقدموا وفعلوا انقلب ذلك السجن من حالة إلى ضدها والله سبحانه وتعالى لا يتخلى عن المحسنين.

1 ـ الكَلَب: المصاب بداء الكَلَب ومن يعقره الكلب. الكَلَب جمعه كَلْبَى.

الباب الرابع

الفصل الأول من الباب الرابع
ـ في الطلق والولادة وتربية الطفولة ـ

قال والدي: كل امرأة عندنا خصوف[1]، تلد وهي تأكل وتشرب وتضحك، لا تشكو ولا تئن ولا تتوجع شكوى وأنين وتوجع بني آدم، بل تضع كأنها تمغص مغصاً ليس بشديد. لا تحتاج إلى قابلة لأنها لا يهددها خطر، إننا لا نظائر[2]، لأننا نقول من رضع غير أمه فقد تخلق بأخلاقها. إنَّ المرأة بعد أن تحجم للمولود، أي بعد أن ترضعه أول رضعة ترضعه في كل ساعة حترتين (والحترة الرضعة الواحدة) حتى إذا بلغ الشهر السادس من عمره أرضعته في كل ثلاث ساعات مرة، فإذا زادت منعت وعدت جاهلة بين نسائنا وهذا يحدث قليلاً أو لا يحدث.

لا تضع الأم ولدها في سرير يهز، فقد عرفنا أنه تنجم عنه أخطار عظيمة وربما كانت سبب هلاك الطفل. منها أنَّ الاهتزاز الشديد يؤثر في مجموع عصبه ويحدث له القيء وغير ذلك من الأمراض. هذا إذا كان معافى فإذا كان عليلاً متألماً من حالة عصبية دماغية أو معدية أو غيرها ازداد تألماً بالهز وتمكنت منه العلل.

وقد علم أنَّ كثيرين أصيبوا منه بالشوص والحول، هذا إذا لم يسقط الطفل من سريره لأنَّ في سقوطه الوبال عليه.

ومن المعلوم أنَّ الطفل إذا هزز سريره لا ينام في أول الأمر إلا بعد أن يأخذه دوار،

1- الخصوف من النساء: التي تلد ولا تدخل في العاشر.

2 ـ ظاءرت مظاءرة إذا اتخذت ظئراً. الظئر: المرضعة غير ولدها.

وربما كان التهزيز يمدد منه الرقبة ويلوي الرأس وفي كلا الأمرين خطر عظيم عليه.

تلفه والدته بلفائف من المرن[1] لا تقمطه قمطاً شديداً لئلا يلوي الساقين والقدمين والساعدين واليدين لئلا يضغط. تضعه في سرير ثابت وتضع عليه لحافاً من المرن يمنعه من التحرك القوي.

لا تتركه وحده ولا تقدم إليه ما يمتصه ليلتهي به عن الرضاع. يخرج من غرفته في كل يوم ثلاث مرات إلى محل طيب الهواء نقيه. وبعد خروجه تفتح النوافذ ليبدل هواؤها غير أنه يحترز عليه من البرد والحر.

لا تسلمه أمه إلى أحد ولا تتخذ له مربية، فإنَّ الوالدة أحن على الولد من غيرها وأشد انتباهاً إليه وأحرص عليه.

لا تقبّله ولا يقبّله أحد لئلا تنتقل إليه أمراض فم المقبل الضارة. لا يضحك تضحيكاً شديداً لئلا تغثي نفسه[2] أو يغمى عليه بل يترك ليضحك حينما يشتهي ويريد ضحكاً طبيعياً.

لا تلاعبه أمه بخفضه ورفعه ولا تقبض يده بيدها وترفعه أو تجره. لا تضغطه بضمه إلى صدرها ولا تجعل ملاعبته إلا بقدر جسمه لا بقدر جسمها. إذا لاعبته وانزعج أو كاد تركته حالاً ليستريح ويرتاح[3].

لا تطعمه إلا بعد أن يسن[4] وتقوى أضراسه وأنيابه معاً، فإنَّ الأسنان وحدها لا تستطيع طحن الطعام وتنعيمه. فإن أطعمته أصيب بعلة الأسنان المعروفة عندكم تقريباً. وبعد الأسنان ونبات الأضراس وخروج الأنياب تؤكله والدته أكلاً خفيفاً لطيفاً لا يقاسي في مضغه تعباً لئلا يبلعه. لا تطعمه إلا قليلاً حينما ترى منه اشتهاء وإقبالاً على الطعام، فإذا آنست منه قلة في الاشتهاء رفعت الطعام وخفته.

إذا أبصر شيئاً ضاراً ولو قليلاً ورغب فيه، منعته واجتهدت في تحويل فكره عنه ونقله إلى غيره فينتقل. لا يسمع أصواتاً عالية مرتفعة، مزعجة كانت أو غير مزعجة

---

1 ـ راجع المرن بقراءة الفصل السابع من الباب الأول من الدور.

2 ـ غثت نفسه تغثى غثياً وغثياناً: جاشت وخبثت. قال بعضهم: تحلب الفم فربما كان من القيء وهو الغثيان.

3 ـ ارتاح: سر ونشط.

4 ـ أي تنبت أسنانه.

ولا تعرض عليه المتحركات السريعة الانتقال والتغير لئلا تزيد في تحريك عينيه. ولا يحدّ أحد نظره إليه. ولا ينظره وهو قطوب عبوس ليسكته ويسكنه بالإرهاب، بل يسكن بالكلام الرقيق ويلهى بالمناغاة[1] إذا كان الصوت رخيماً لا نبرة فيه فإنه يأنس بهما ويطيب خاطره. فإذا ربي هذه التربية فلا خوف عليه أن يقصع[2] بل ينمو قوياً صحيح الجسم والعقل. إذا أخذ في الكلام قومت أمه لسانه.

إنَّ الوالدة مؤاخذة بعيّ ولدها وحصره وفهاهته فتنبهه على كل كلمة غير فصيحة. كلامنا فصيح بليغ فكلنا لُسْن[3] في بيان وتبيان[4].

الفصل الثاني منه
ـ في التربية وواجبات الوالدين بالأرض ـ

قال والدي: يجب على الوالدين إذا كانا من الشرسين الذين فسدت سجيتهم. وإذا لم يكونا محمودي الخصال ممدوحي الخلال لا مزية لهما ولا مدحة ولا فضيلة ولا مأثرة ولا مفخرة ولا محمدة ولا منقبة، وإذا لم يكونا على شيء من حسن التربية والآداب أن لا يقذفا[5] محصنة سمع أُذن ولدهما، ولا يمزقا عرض أخ ولا عرض بعيد ولا عرض عظيم ولا عرض حقير، ولا عرض أحد من البشر، ولا يغتابا صديقاً ولا عدواً ولا أحداً من خلق الله تعالى. ويجب عليهما أيضاً أن يتحاميا الهجو والذم والهتر والتنديد والانتقاص والطعن والقدح. وأن يضربا عن الهذاء والبذاء واللغا[6]، وأن يعرضا عن الهذر والهذيان والخطل. ومن الواجب أن يجتنبا المقاذحة والمسافهة والسباب أمام ولدهما الذي لا شك يقتدي بهما ويحفظ مشاتمتهما ومهاترتهما ويفوه

1 ـ المناغاة: تكليمك الصبي بما يهوى، وناغت الأم صبيها: لاطفته وشاغلته بالمحادثة والملاعبة.

2 ـ قصع الغلام: أبطأ شبابه. وغلام قصع: بطيء الشباب (يعني حان وقت شبابه ولم يشب).

3ـ اللسن: جمع لسن. ورجل لسن أي فصيح بليغ.

4 ـ قيل الفرق بين البيان والتبيان هو أن البيان عمل اللسان والتبيان عمل الجنان وقيل إنَّ التبيان أبلغ من البيان لأنَّ الزيادة في الحروف أعطته زيادة في المعنى.

5 ـ قذف المحصنة: سبها. وقيل رماها بريبة. ومزق عرض أخيه: طعن فيه.

6 ـ اللغا ما كان الكلام غير معقود عليه وما لا يعتد به من كلام وغيره ومثله اللغو وهو كثرة الكلام في الباطل.

بهما في حالة غضبه وإن يكن يجهل معناهما.

ليتهذبا ما أمكن قبل أن يأخذا في تهذيب ابنهما. ليكونا أمامه لطيفين رقيقين وديعين بشوشين. ليكونا حليمين أنيسين ساكنين هادئين. ليجتهدا في تجنب السخط والتغضب والتكره، فإذا لم يستطيعا كبح شراستهما وإخفاءها بالتعقل فالأوفق لمثلهما أن لا يتزوجا بل أنصحهما وأشير عليهما بأن لا يقترنا لئلا يأتيا بأولاد شرسين غضوبين مثلهما، فإن أصرا فقد جنيا على نفسيهما وعليهم وعلى المجتمع الإنساني.

ليجتنبا أيضاً التحقير والتعييب والتهديد لئلا يتكاشفا[1] فإنَّ الولد كالببغا[2] يحكي عن غيره الحديث ويحاكي سواه وهو لا يدرك كنه الكلام كما سبق القول. إذا نطق بكلمة قبيحة فلا يضحكان في وجهه. لا يسمع الخرافات والترهات. لا يهدَّد ويخوَّف بالمزعجات ولا يُشغَلْ بحكايات عجائز الحي، بل ليهذبْ على قوة الجنان وثبات العزم وعلو الهمة واحتقار المصاعب واستصغار المصائب وعلى شرف النفس ورقة القلب وخفة النهضة إذا استنهض. لا يتهيبه شيء غير النقائص التي منها الكسل والطمع وحب الذات والإعجاب والمخادعة والمخاتلة والمماكرة والمراوغة والخبث والمداهنة والمماسحة والمجاملة[3] والمصاقلة والاحتيال والمصانعة والمراشاة والمواربة والمكابرة. ليجانب هذه النقائص وغيرها أيضاً. ليكن محاملاً[4] لا مجاملاً[5] ولتكمل نفسه. ليؤدب على الدين ليكون له حاجزاً يرده عن المحرمات. لا يؤذن لوالديه أن يعلماه بغض الذين ليسوا على دينهما، ولكن كيف يتم هذا وهما يحسبان هذا البغض تورعاً وفضيلة؟

لا يرغّبانه في حب المال إذا كان من الراغبين فيه لئلا يفرط فيطمع ويعيش حقيراً ذليلاً يكرهه الأقارب والأباعد. إذا أفرط في حب المال ووجه كل محبته إليه احتاج

---

1 ـ تكاشف القوم: ظهر عيب بعضهم لبعض.

2ـ الببغا: طائر هندي أخضر يعرف عند العامة بالدرة حسن اللون والصورة له منقار أحمر ولسان عريض يشبه لسان الإنسان ومن أشهر أوصافه أنه يسمع كلام الناس ويعيده، ويشبه به من حفظ كلام ولم يدرك معناه.

3 ـ جامل الرجل مجاملة: لم يُصْفه الإخَاَء وماسحه بالجميل.

4ـ المحامل: الذي يقدر على جوابك فيدعه إبقاء على مودتك.

5 ـ المجامل: الذي لا يقدر على جوابك فيدعه ويحقد عليك إلى وقت ما.

إلى محبة أخرى ليعيش بها وهي صعبة المنال، بل غير مستطاعة، فيعيش ناقصاً. ولو استطاعها لأضافها إلى تلك المحبة التي صارت فيه رذيلة. إنَّ الولد يحتاج إلى المحبة ليحب بها خالقه ووالديه وأستاذه وكل البشر. أما الذين يُعتقد أنهم غير متدينين فلا يحتقرهم بل عليه أن يتعلم كيف يستطيع إقناعهم بخطاب رقيق فيه دعة ونقاوة لكي ينتفعوا وإلا فليدعهم إلى خالقهم.

لا يكذب الوالدان ولا يعدا أولادهما ويخلفا وعدهما، ليحذرا المحاولة والمطاولة والمماطلة والتسويف والتعليل بالأماني الكواذب والاتكال على التقادير والاعتماد على الزمان.

ليمنعْ الولد منعاً شديداً من معاشرة الصبيان غير المهذبين وعن ملاعبتهم وسماع أحاديثهم، وأرى الأفضل أن لا يُسمح له بمصاحبة غير والديه وأقاربهما المتأدبين الذين يريدون بهما خيراً. فإن كانوا كلهم من الرعاع فليرسل إلى المدرسة في بلد غير بلد أبويه.

ليتنبه الوالدان إلى خلوات أبنائهما كل الانتباه. لا تكن سطوتهما على ولدهما قويةً فإنها تولد فيه البله والجبانة.

لا يمنع الآباء أبناءهم مما يضطرون إليه وخصوصاً إذا كانوا نشيطين أذكياء لئلا يحتالوا ويكذبوا ويسرقوا أو يستعطوا، ولئلا يجدوا حاجاتهم على اضطرار منهم عند أشرار الناس. ليجتهدوا في كفاية أولادهم مؤونة الشره فإنه يتولد غالباً من المنع والحرمان، ذلك لأنَّ بعضهم لا يشبعونهم من طيباتهم ويمسكون عنهم خيراتهم فيمتنعون وهم ينظرون إليها بعيونهم وقلوبهم بل بكل حواسهم.

ليعلم البخلاء أنهم لا يحفظون أموالهم ببخلهم وشحهم، بل يعرضونها للتلف والضياع إذ يعلمون أولادهم التبذير، لأنَّ الولد لا ينشأ على ما يكرهه. وقد رأيت كثيرين من بني الأشحاء في الأرض أضاعوا ثروات آبائهم بتبذيرهم.

ليعقل الولد أنَّ له حدوداً لا يتعداها، وليعقلْ أنَّ إرادته من إرادة والديه لأنهما يريان له ما لا يراه حسناً ويحبان له ما هو جدير بالمحبة، وهو لا يدرك غير أنه يجب عليهما أن يكونا في ذلك حكيمين أو أن يتشبها بمن تجملوا بالحكمة.

لا يضرب الولد فإنَّ الضرب يخمد فيه جذوة الذكاء فتنطفئ شعلة النشاط. فإذا تتابع ضربه خبت ناره حتى تهمد. لا يؤدب الآباء أبناءهم وهم غضاب منهم أو من غيرهم لئلا يتعدوا حد التأديب، فإنه من الجهل القبيح والخطأ الفاضح أن يؤدب الولد بأكثر مما يستحق فيصير التأديب ظلماً وبغياً وانتقاماً من غير أهله مع

أنَّ الانتقام من أهله مكروه. وقد علم أنَّ التشديد يعلم الاستعصاء إذا كان الولد جسوراً، وإلا فيضعف بدنه، وربما كان التضييق والضغط سبباً في إحداث العاهات. فإذا ضربت ولدك وأبكيته فلا تكرهه على السكوت بل دعه وتوار عنه إلى أن يسكت ويسكن فيوبخ.

الحكمة كل الحكمة أن تحسن تربية الغلام وتحكمها حينما يخلف[1] ويحمم[2]، ولاسيما إذا كان في الشباب الغيدق[3] وهو بزيع[4]. وعلى الإجمال فإنَّ التربية علم عال يجب درسه بتأن وتفهم وإلا فالزواج جناية. وفي الأخير أشير على الحكماء والعلماء عندكم بأن يجعلوا فن التربية علماً قائماً بنفسه يدرس في جميع المدارس والمكاتب لأنَّ فيه حياة الإنسان، فإما أن يعيش بحسن التربية قريباً من السعادة، يسعد نفسه وأهله والمجتمع الإنساني، وإما أن يعيش شقياً يشقي نفسه ومن يلوذ به.

الفصل الثالث منه
ـ في مدارس وعلوم سكان الزهرة ـ

قال والدي: إنَّ التعلم في الزهرة واجب للذكور وللإناث جميعاً، فالجاهل الغبي عندنا لا يخلو مهما بحثنا من عقل وعلم، وذلك لسببين أولهما لأنَّ عقولنا أرقى من عقولكم ومداركنا أسمى وأعلى من مدارككم كما أوضحت لك، ولأنَّ التعلّم عندنا عمومي فسكان الزهرة كلهم علماء تقريباً، فيقتبس الولد من علم والديه وينشأ عليه كما يقتبس من كلامهما بغير صعوبة. والسبب الثاني هو لأنَّ لغتنا وعلومنا أسهل وأقل من لغتكم وعلومكم، فلا يضطر والحالة هذه ولدنا إلى إضاعة الجانب الأعظم من عمره في الدرس والمطالعة حتى يكاد يفقد نور عينيه وإن شئت فقد كل صحته.

إنَّ مدارسنا كثيرة ففي كل محلة مدرسة. أما المعلمون فهم القضاة المشهورة

1 ـ أخلف الغلام: إذا راهق الحلم.

2 ـ حمم الغلام: بدت لحيته.

3 ـ شباب غيدق: ناعم. والغيدق من الغلمان الذي لم يبلغ.

4 ـ بزغ الغلام بزاعة فهو بزيغ: ظرف وملح. وغلام بزيع وجارية بزيعة إذا وصفا بالظرف والملاحة وذكاء القلب. وغلام بزيع أي يتكلم ولا يستحي.

بالفضائل والبارعون. وأما الدروس فهي خمسة في سبعة أعوام أرقى من علومكم وأعلى.

أولاً: علم اللغة قراءة وكتابة وإنشاء.

ثانياً: علم التربية وعلم السلوك والواجبات.

ثالثاً: علم التاريخ وعلم الجغرافيا.

رابعاً: علم طبائع الحيوان.

خامساً: علم طبقات الأرض.

أما علم الحقوق والقوانين الحقوقية والعقابية بأحكامها فيأخذها الولد عن والديه كما يأخذ الصلاة والوصايا والتسبيحات والفضائل. والتلميذ يقيم بالمدرسة ثلاث سنين فقط. ومن أراد التوسع في المعارف والفنون والعلوم العالية ليفوق العلماء العاديين ويتعلم علوم القضاة ويكون منهم أضاف مدة سنتين إلى الثلاث.

الفصل الرابع منه
_ في أنَّ آفة التلميذ بالأرض
مدرسته ودروسه وفي التربية أيضاً _

قال والدي: يجتهد الوالدان المتأدبان في تأديب ولدهما وتعليمه ليزاول أمور الدنيا عندكم ويجاهد فيها الجهاد الحسن طلباً للرزق، فيرسلونه إلى المدرسة وهو طيب القلب نقي الضمير حسن السلوك. فإذا لم يفسده أستاذه بنفسه ألقاه بين صبية لمن لم يصيبوا من مدرسته غالباً غير فساد الأخلاق فيحذو حذوهم ويتخلق بأخلاقهم. فإذا كان التلميذ نبيهاً ذكياً حفظ شيئاً من العلوم.

وإذا كان بليداً جامد القريحة تمكّن منه ذاك الفساد وتأصل فيه ولم يتعلم شيئاً، فتكون مدرسته آفته فيخرج إلى الدنيا وهو فاسد جاهل أبله، فيقع عليه ذلك التلميذ الذكي الفاسد بمدرسته الذي سبق ذكره ويقوده كيف شاء ويستخدمه فيما بعد بأشغاله، وإن شئت فقلْ ويستعبده لأنه يجهده كما يجهد دابته ولا يعطيه إلا ما يسد به الرمق. فلو هذبتهما مدرستهما أو تركتهما على فطرتهما الأصلية وعلمتهما ومكنت المحبة من قلبهما ومدحت لهما المروءة أيضاً ورغبتهما فيهما، ذلك أن تثبت لهما أنهما تعليان قدر المرء لأخذ كل منهما حقه من أخيه من غير أن يستعبد القوي منهما الضعيف بطمعه. لأنَّ المحبة المزينة بالمروءة تبعث صاحبها على حب الفضيلة

التي تحيي القناعة فيه فإنها مصدر الإنصاف فلا يظلم ظالم ولا يظلم مظلوم.

ثم قال والدي: إنَّ صعوبة لغتكم وكثرة الدروس واختلاف موضوعاتها التي تلقى كل يوم على التلميذ مع جهل الأستاذ فن الإلقاء، تولّد فيه الفتور والكسل والزهد فيها، فيلهو عنها بالمفاسد واستنباط الحيل ليكف بها أستاذه الذي يتغافل عنه لعجزه وجهله، فإذا كان نشيطاً بارعاً عالماً بفن الإلقاء فصيحاً بليغاً رغّب التلاميذ في دروسهم وأفادهم. غير أنه لا يستطيع مع ما يبذله من الجهد أن يجعلهم يفضلون لغتهم العربية على لغة أوروبية، لأنهم يعلمون أنَّ الزمان الذي يذهبونه في تعلم عربيتهم يمكنهم من تعلم ثلاث لغات، فالإنكليزية والفرنساوية والألمانية اليوم خير لهم من التبحر في علم العربية التي أمست على صعوبتها لا تنفع طالبها كغيرها من اللغات.

ومما يزيدهم رغبة عنها هو أن قواعدها كتبت بلغة لا يفهمونها، أي بغير اللغة العامية، فيجب عليهم أن يتعلموا قواعد لغتهم باللغة الفصيحة التي لا يفهمونها بخلاف اللغات الأوروبية فإنَّ قواعدها كتبت باللغة المألوفة.

أقول وأنا آسف على العربي في هذا الزمان وعلى عربيته: إنَّ الأوروبي يتكلم ويقرأ ويكتب ويتعلم العلوم والفنون العصرية بلغة واحدة في مدة غير طويلة، أما العربي فإنه إذا دخل إلى مدرسة تلقى فيها اللغة العربية مع الثلاث لغات التي ذكرتها لك وغلب حب عربيته على غيرها، خرج في العشرين من عمره لا يعرف منها غير القراءة وشيئاً من الإعراب وقد أضاع اللغات الثلاث. فإذا أراد إنشاء رسالة فلا يستطيع، وإذا رأى أن يتعلم الإنشاء والثلاث لغات التي أمست اليوم ضرورية مع شيء من العلوم العصرية، أضاع مطاليب عمره في مدرسته.

فبناء على ما ذكر ستمسي اللغة العربية عما قليل لغة متروكة. ولو لم تكن من اللغات الدينية لصارت تشبه اللغة القبطية التي أمست الآن لغة قديمة مهجورة.

والذي زاد في تأخر اللغة العربية وانحطاطها عن عظمتها هو عدم تأليف جمعية علمية لها رجالها من جميع البلاد العربية الشهيرة، يرجع إليها في كشف المخبئات وفي الترجمة والتعريب. فإذا أراد عربي عالم بالفرنساوية مثلاً أن يترجم كتاباً إلى لغة في علم من العلوم العصرية الضرورية، لم يجد بين لغته الكلمات الدالة على المعاني المطلوبة ترجمتها، فإذا عرّب أو وضع كلمات قريبة من المقصود بحسب معرفته واجتهاده أنكرها عليه مبارٍ وعابه حاسد. فلو كانت الجمعية التي أشرت إليها قائمة بموجب جرايات تتناولها في أوقاتها لرجع إليها المتباريان فلقيا عندها الفصل.

فإذا لم ينتبه علماء العرب إلى قولي هذا ولم يجمعوا على هذه الجمعية أمست العربية كاليونانية والأرمنية، أي إنَّ العربي يضطر بعد حين من الدهر إلى تعزيز العربية الدارجة وضبط قواعد لها بطرائق مختصرة وأساليب سهلة قريبة التأول، فتصبح تلك المطولات الطويلة العريضة الضخمة نسياً منسياً كما أمست وأصبحت مطولات اليونان والأرمن وأمثالهم.

لنرجع إلى التربية فنقول: يجب على الوالدين أن يربيا أولادهما بالآداب والفضائل من صغرهم، فإذا بلغ الولد السنة السابعة من عمره أخذا في تعليمه ساعة قبل الظهر ومثلها بعده. فإذا بلغ الثامنة جعلا الساعة ساعتين قبل الظهر وبعده أيضاً، فإذا بلغ التاسعة علّماه مراجعة درسه مدة ساعة بعد أن يهب من فراشه ويصلي في كل يوم. فإذا بلغ العاشرة لزمه مراجعة درسه صباحاً ومساءً ساعة فساعة. فإذا بلغ السنة الحادية عشرة وقد رسخت فيه الآداب ونشأ على حب الفضيلة أرسلاه إلى المدرسة فإذا عفا[1] عليهما في العلم قبل ذلك فلا يتأخرا عن إرساله إليها. هذا إذا كان الوالدان مهذبين خريجي مدرسة اشتهرت عندكم بحسن التهذيب والتثقيف، وإلا فعليهما أن يرسلاه من السنة السادسة إلى تلك المدرسة قبل أن ينحوَ نحوهما ويجري على سننهما في كل شيء فيصعب تأديبه وإرهافه.

لتكن المدرسة معروفة من تلامذتها بالآداب لا بالعلوم فقط، وبتقوى أساتذتها وعفافهم، مشهورة بفضائلهم وحسن سلوكهم وطيب عنصرهم ودماثة أخلاقهم، وبرصانتهم ومروءتهم، فإنَّ المدرسة التي تجعل تلاميذها وطلبتها بهذه المزايا هي المدرسة العالية وحدها، ذلك لأنَّ المزايا ترغب التلميذ في التعلم وتهون عليه مصاعب العلم فيقتبس منه في مدة قصيرة.

يا أيها الناس يا ليتكم تعلمون وتسمعون أنه يجب على الوالدين والأقارب والأصدقاء معاً أن يكونوا يداً واحدة وينتخبوا بتعقل وتأنٍ مدرسة لولدهما ولقريبهم اولابن صديقهما، فإنَّ المدرسة إما أن تفسد التلميذ وإما أنها تصلحه فعليها يتوقف مستقبله.

يا أيها الآباء إنني كنت تلميذاً ثم صرت معلماً، فرأيت وعلمت ما لا تعلمون، فاحفظوا وصيتي هذه، وإنني لأكررها لكم وهي أن تنتقوا لأولادكم مدرسة تكون

1 ـ عفا عليه في العلم: زاد عليه.

خيراً لهم ولا شراً عليهم، هذه وصيتي وهي لا كالوصايا التي أوصيت لكم فاعقلوها وافهموها وتدبروها. وهذه نصيحة لا كالنصائح التي نصحت فأدركوها وافطنوا إليها وأتقنوها لعلكم تفلحون.

يا أيها المعلمون إليكم نصائح تلقونها على التلامذة في خلال التعليم وهي: يجب على كل تلميذ أن يحفظ وصايا الله تعالى، ويعمل حسب أوامره حفظاً جيداً حتى ترسخ معانيها في عقله وقلبه. منها يجب عليه أن يحب الله تعالى أكثر من نفسه وغيره وأكثر من كل شيء محبة صادقة ثابتة باشتياق منه وتوقير وتعظيم لأنه جلّ جلاله أحبه كثيراً. ويجب عليه أن لا يفتر عن الصلاة في أوقاتها، وأن يعتقد وهو يصلي أنه فقير إليه تبارك وعلا، وأنه ضعيف عاجز لا غنى له عنه وليس له ملجأ إليه سواه. فيلتمس منه وقد أطبق جفنيه وتاب واستغفر أن يهبه الصبر الجميل على تحمل مصائب الدنيا ومكارهها، وأن يمنحه ما يحتاج إليه بقناعة. وليكن هذا الالتماس بتأن منه ووقار وحسن تفهم من غير أن يجعل الصلاة عادة، فيتلو كلماتها بسرعة فلا يفهم ما يقول ولا يدري، كأنه مأمور بسرد تلك الكلمات، فهمها أو لم يفهمها، فيسردها تباعاً من دون أن يتدبر معانيها كما يصلي ابن ثلاث سنين لا يعقل ما يقول، ويجب أن يعلم المصلي أنه يخاطب الله تعالى الذي هو ملك الملوك ورب الأرباب بل أعظم، فليخاطبه كما يخاطب الملك العظيم على الأقل.

ويجب عليه أن يحب غيره نظير نفسه ليكون له أعوان، أي أن يحب كل إنسان على الإطلاق من دون استثناء لأننا كلنا إخوان. وعليه فكل منا يخاطب أخاه في الزهرة هكذا: «يا أخي». ويجب عليه أن يتمنى الخير لأخيه كما يتمناه لنفسه، فإذا تحاببتم كما أشرت كانت النتيجة أنَّ كل واحد منكم أحب نفسه فما أحسن هذه المحبة.

ليعلم التلميذ أنَّ من أحب نفسه فقط كرهه إخوانه البشر، وليعلم أنه لا نجاح ولا فلاح إلا بالمحبة، فكلما ازدادت محبته ازداد نجاحه، فليسع وراءه بما استطاع من المحبة. إنَّ المحبة في الإنسان كثيرة لا نهاية لها فليسرَّ بها نفسه السرور الذي يتمناه.

ويجب على التلميذ أن يهم بالخير دائماً وأن يعمله ولو مع الذي يظنه غير أهل له، لأنَّ الإنسان قد يخطئ في معرفة المحتاجين إلى الخير.

لا يعدْ بالخير ويخلف وعده. إذا قدر على خير يومه فلا يؤجله إلى غده فإنه في تأخير ساعة لا يصيب الخير أهله ومحله، وتفوت الفرصة وتزهق النفس المضطرة. لا

يغتر المحسن بالظواهر فرُبَّ ذي بزة[1] حسنة يلتهب حشاه جوعاً، وهذا هو الفقير الصابر إذا أردت أن تعرفه. إنَّ من يصطنع أي يتخذ صنيعاً يعني طعاماً ينفقه في سبيل الله تعالى ويرحم الفقراء الصابرين، فقد رحمه الله ورأى من نفسه ارتياحاً إلى الرحمة.

ليس الخير بالتصدّق على الفقراء فقط، بل الخير كل الخير أن تسعى فيه لتكفي أخاك شدة الاحتياج. إنَّ خير الناس من سعى في إغاثة فقير وإغنائه عن ذل السؤال. ليست الإنسانية بالإنس والكلام الطيب بل بالرأفة والسعي الحسن.

إذا أنعم منعم فلا يتحدث بأنعامه تمدحاً وطلباً للشكر لأنَّ الإحسان لا يكون إحساناً إلا إذا كان بغير عوض، فالشكر تعويض المحسن إليه. والشكر في الإنسان غالباً قريحة، فرُبَّ محسن إليه كان جامد القريحة فقلبه أفصح من لسانه.

الكريم من لا يرد قاصداً عفاه[2]. إنَّ من لا يقضي حاجة مضطر وهو قادر على قضائها فليكن ملعوناً لا يكلمه أحد.

وليعلم التلميذ أنَّ الذين يجهدون نفوسهم في جمع الأموال الطائلة، يستعبدون لها ويلهون بها عن الله تعالى وعما وجب عليهم لإخوانهم، وهم الذين يحتالون في طلبها وقد بعثهم عليها حب نفوسهم المتفانية في حب العظمة.

إنَّ الذي لا يستطيع أن يتعظم بالعلم المتجمل بالفضيلة يزعم أنه يتعظم بماله، وشتان بينهما فيخطئ من جهتين، فإنَّ التعظم يصدر عن الكبرياء وهو خطأ فاضح يجب أن يقلع عنه. والاحتيال في جمع الأموال خطأ فاحش يلزمه أن يتبرأ منه وأن يتنصل إلى الله منهما.

من كانت الفضيلة دأبه وهو زاهد في العظمة فقد عظمه الناس، وهذا هو العظيم الذي يجب تعظيمه.

ويا أيها المعلمون أعيدوا النصائح وكرروا معي معانيها لتتم الفائدة، وخاطبوا كل تلميذ هكذا: إنَّ خير المال ما تجمعه بالرأفة والحنان لتنفقه في مصالحك، وتنفق منه ما أنت غني عنه في مصالح من هم أكثر احتياجاً منك إليه.

---

1 ـ البزة: الثياب.

2 ـ عفوت الرجل: طلبت فضله. وعفاه: أتاه يطلب معروفه.

لا تتفكن[1]، بل جدَّ واسعَ وراء بغيتك. إنَّ المخالفة مكروهة والانقياد محمود. التلميذ الصالح من إذا نصحته وردعته قرع[2]. الشجاعة مزية من مزايا الرجال. لا ينتقم لنفسه كريم. الحليم مغبوط أينما كان. خير التلامذة من عاش عماراً[3] وشرهم من كان حابضاً[4].

أما العلوم التي يجب أن تلقى على التلامذة عندكم فهي التي تلقى في مدارس الزهرة، غير أنه يضاف إليها علم الحساب. فإذا ألقيت عليهم ببيان واختصار مدة أربع سنين دخل في السنة الخامسة عشرة من عمره، فينقل إذا أراد إلى مدرسة الصنائع، فيتعلم أصعب حرفة في مدة ثلاث سنين، فيخرج من المدرسة في الثامنة عشرة من عمره.

الفصل الخامس منه
ـ في اللغة ـ

قال والدي: إنَّ لغتنا واحدة لا ثانية لها. إذا تكلمنا طربنا، فهي أشهى من تغريد البلابل لدينا في قرار وانخفاض، تسيل الرقة من شفاهنا. ومن العجب أنه مع ضخامة أجسامنا كما تراني لا تخرج الكلمة من أفواهنا إلا لينة عذبة فيها صفاء وطلاوة.

إننا نقرأ ونكتب ونتكلم بكلام واحد، وتراكيب واحدة، أما حروفنا فهي خمسة عشر حرفاً كأنها تشبه الألف والباء والتاء والجيم والدال والراء والزاي والسين والفاء والكاف واللام والميم والنون والواو والياء وهي بأسماء خمسة عشر قاضياً وقاضية من الشهيرين والشهيرات عندنا.

لا تجد بين حروفنا حرفاً حلقياً يصعب تلفظه، بل تُلفظ كلها بسهولة وليونة، وهي مع قلتها قائمة بلغة خلق عظيم أعظم وأكثر منكم بكثير. وبما أننا نعيش عيش

---

1 ـ تفكن: تأسف وتلهف. وقيل هو التلهف على الشيء يفوتك بعدما ظننت أنك ظفرت به.

2 ـ قرع: قبل المشورة والنصيحة.

٣- رجل عمار: هو الرجل القوي الإيمان الثابت في أمره. وقيل: الكثير الصلاة والصيام والقوي الإيمان الثابت في أمره والطيب الثناء.

4ـ حبض الغلام: ظن به خير فأخلف الظن.

أهل الوبر تقريباً ونحن متقاربون فكلامنا قليل بقدر احتياجنا.

ثم قال: ومن البلية عندكم أنَّ القارئ لا يشتهي أن يراجع كتاب لغة لكثرة ما فيه من الشروح والنقول والآراء والأقوال والروايات والحكايات المملة والمختلفة والمتناقضة. هذا كله عدا قلة الترتيب التي تضيق بها الصدور، وعندي أنَّ الوقت الذي تضيعه في مراجعة كلمة تستطيع أن تنشئ فيه رسالة أدبية. والمصيبة أنك إذا راجعت مادة اضطررت كثيراً إلى مراجعة غيرها وغيرها، ومنها ما يصعب عليك فهمه كقوله «البَيْرَم العَتَلَة أو عتلة النجار خاصة»، فإذا راجعت مادة عَتَلَ قرأت هكذا «العَتَلَة بَيْرَم النجار والمجتاب» إلى غير ذلك.

هذا وكلامنا لا يحتمل التأويل بحيث إنَّ الكلمة الواحدة تطلق على معنيين متضادين كطرب للفرح والحزن معاً.

لا ننافس في الألفاظ والمباني، بل ننافس في المعاني، فإذا عرب كلامنا لذَّ لك وراق وأعجبت به فيسكرك وما بك من سكر. أما العربي المتأنق في الألفاظ فلا تروقك معانيه إذا نقلت إلى غير لغة كما راقتك قبل نقلها. إنَّ كثيرين من كتبتكم أهملوا المعاني واكتفوا بالألفاظ والتراكيب.

إننا لا نحدث لغة ثانية لعلمنا أنَّ تعدد اللغات يحدث البلبلة والتباين في العادات والغايات والأهواء والمآرب، فيبدو الاختلاف بين الخليقة، فينشأ الخصام، فتنمو البغضاء، وهناك البلاء بل هناك الطامة[5] الكبرى.

يا حبذا لو اتفق سكان الأرض وأجمعوا على اختيار لغة واحدة قريبة الحفظ سهلة التلفظ وذلك من غير أن يتعصب كل قوم للغتهم. فإذا تعصبوا ولم يتفقوا فيمكن وضع لغة جديدة مختصرة لا يزريها تأويل ولا يعيبها شذوذ بحيث يهون تعلمها. فإذا تمَّ هذا لكم خفتْ ويلاتكم عليكم. إن شاء الله تعالى تقاربتم بالتآلف، فيسهل بعد ذلك تقريب الأديان بعضها من بعض بالمحبة إلى أن يمنّ عليكم فتجتمعون على دين واحد فيه خير لكم ولمن بعدكم. إنكم تحسبون نفوسكم عقلاء ولكنكم لا تعقلون.

وبعد هذا قال لي والدي: نم قليلاً واسترح إلى أن أعود إليك، ثم مضى فنمت، ولكن أيعلم القارئ ماذا رأيت؟ لا يعلم. كيف يعلم وأنا أشك في الأمر أنني رأيت نفسي في مدينة القضاة، وأنا أطوف في شوارعها وأعجب مما أعاين عجباً كاد يذهب

5- ـ الطامة: الداهية تغلب ما سواها وذلك لأنها تطم كل شيء تعلوه وتغطيه.

بعقلي؟ فلو استطعت وأعربت عنه لما صدقني الناس فالسكوت أكرم لي. لقد أبصرت والدي يخاطب قاضي القضاة فسمعته يقول له: ألا تأمر له بشيء. فقال: خذ شيئاً من الرمان فسكت والدي وأطرق، فقال له إنك تريد أن تقدم إلى ولدك ثمرة اللذة لينجوَ من الجزاء بعد نجاته من الأرض، فماذا نفعل إذا أثم بعد أكلها، وأنت تعلم أن آكلها لا تغلق في وجهه أبواب مدينة القضاة؟ فقال والدي: إذا كنت تعلم أنه لا يأثم إثماً كبيراً فاسمح له. فتأمل هنيهة ثم قال: لقد أمرني الله تعالى أن لا أرد التماسك، فعلى ولدك أن لا يكفر بهذه النعمة، وعساه أن يقدر لها قدراً عظيماً. وبعد هذا استيقظت فأبصرت والدي مقبلاً وفي يده غصن نضير بثمرتين شهيتين كل منهما بحجم بطيخة، يبلغ ثقل الواحدة نحو ألفي درهم، أما لونها فهو كما تريد، فإن أردت الزرقة وذكرتها ازرقت، وإن أردت الأحمر احمرت إلى غير هذا من الألوان التي تروقك، فإن لم تعين لوناً أبصرت لوناً بهجاً حسناً لا تعرف له اسماً. فأخذ والدي ورقة من ورق الغصن فإذا هي سكين ماض، وقشّر به لذة من اللذتين، وقطع قطعة وناولني إياها وقال لي: إن كنت تريد أن لا تأثم فكل من ثمرة اللذة، وقد علمت ما جرى بيني وبين قاضي القضاة من أجلك. فأكلت قطعة صغيرة فشعرت بلذة ليس من الممكن أن يشعر بها سكان الأرض. ثم قال لي: اقترحْ شيئاً من المآكل. فقلت: أشتهي العنب. فقال: كلْ، فأكلت عنباً لا يأكله آكل إلا انشرح صدره. ثم قال: اقترحْ غير الفاكهة. فقلت: أريد شواء، ثم أكلت فكان غاية في اللذة، ثم قال: اقترحْ شيئاً من الحلواء. فاقترحت اللَّوزِينَج فكان كذلك، فسبحت الله الخلاق العظيم وشكرت والدي على إحسانه وعظمته أحسن تعظيم.

الفصل السادس منه

ـ في المطابع ـ

قال والدي: يقف أحدنا أمام المطبعة ويتلو كلامه فتنقله بأسرع من لمح البصر، وتقدمه إليه مطبوعاً طبعاً جيداً متقناً بحروف جلية ينبعث منها في خلال سطورها نور لطيف لمن كان ضعيف البصر، فيقرأها غير محتاج إلى منظر.

وإذا كان لا يريد أن يذهب إلى المطبعة، فيقول وهو في داره: يا صاحب المطبعة الفلانية «تهيأ»، فيسمع حالاً قائلاً يقول: «اقرأ»، فيقرأ المقالة، وبعد دقائق يراها بين

يديه مطبوعة. وإذا أراد فيضعها في آلة عنده فتنقلها وتضعها أمام المطبعة فتطبعها حالاً، وإذا أردت أن يتكلّم الكتاب المطبوع بما فيه من الكلام تكلّم كلاماً فصيحاً، أما آلة التكلّم فإنها مخبأة في الجلد اللطيف، لا تراها لدقتها، وإذا طبعت صورتك في كتابك قرأته عنك بصوتك ولهجتك كأنّك أنت تقرأه.

الفصل السابع منه
_ في علماء الأرض وحالة الإنسان الأولى فيها _

قال والدي: آفة العلم الجاهلات من النساء. إنَّ المرأة الجاهلة لا تريد منك براعة وعلماً بل تريد مالاً كثيراً وقداً نضيراً ووجهاً منيراً واستعطافاً واستلطافاً، وتريد لها غراً لم يجرب الأمور، بل أغراراً ينشأون على إرادتها وينمون على محبتها لتفعل بهم ما تشاء وتريد، فلا يتحركون إلا بحركتها ولا يسكنون إلا بسكنتها.

إذا تعلم الرجل أصل أحوال النساء فلا يحسن عندهن أن يكون الرجال علماء وهن جاهلات. إنَّ المرأة الجاهلة تزعم أنها تستغني بحسنها ودهائها عن العلم الذي يلزمه الثبات والجهاد الحسن. المرأة تستعبد العالم وهي جاهلة فماذا كانت تفعل به لو كانت عالمة؟ كانت هي الرجل وهي المرأة معاً. لو اشتغل الرجل عن المرأة بالعلم لكانت الدنيا للعلماء.

يا أيتها المرأة إنك لعظيمة أعظم مما تعلمين. لقد هابك الرجل الأول فأذلك، أما الآن وقد علمت كيف تسودين فلماذا لا تتعلمين؟ تعلمي ليرَ الرجال عظمتك، ليرَ الرجال منك عظمة مزينة بالمحبة الخالصة السالمة من شائبة التنقل والملل، وهم يحتاجون إلى الثبات فتقوى قلوبهم بك ويحترمونك.

يا أيها الرجل كيف تطلب العلم وأنت لاهٍ عنه بحب المرأة، حائر لا تعرف كيف تسترضيها ولا تدري كيف تستعطفها؟ كيف تسعى وراء العلم وأنت لا تملك عقلك؟ من ترك المرأة وتفرغ للعلم فهو أكبر منها مع إنها أكبر منه، ولكن هيهات أن يسلم منها.

إنك يا أيتها المرأة جميلة ولكنك لا تعرفين قيمة جمالك فتعلمي لكي تصونيه ولا تمتعي به الأدنياء الذين ينكرونك متى مُلك جمالك، فإذا تعلمت حفظت لك جمالاً لا يملك ودامت عظمتك.

يا أيها الذين خادعوا الحب فسرقوا من أوقاته ساعات صرفوها في طلب العلم.

ويا أيها الذين غضبت عليهم حبيباتهم فهجرنهم مدة معلومة رجعوا بها إلى العلم فأصبحوا علماء، أنتم علماء الأرض ورجالها. أنتم ولا تعلمون من أنتم. أنتم من أعاظم رجال الزهرة وأكابرها الذين بأيديهم الحل والربط فيها. أنتم البارعون المتفننون، أنتم المخترعون والمكتشفون. أنتم الأفاضل الذين يأسف عليكم سكان الزهرة. أنتم الذين يشهد لكم رجال الزهرة بالفضل عليها، نزلتم إلى الأرض وقد بقيت في نفوسكم بقية من العلم فملتم بها إليه فكان نصيبكم منه العذاب والفقر.

من هم البائسون؟ ومن هم الفقراء الصابرون؟ من هم القانعون الراضون من دنياهم بما قسم الله تعالى لهم من العيش الضيق؟ هم علماؤكم يا أكثر سكان الأرض. هم البائسون ولكنهم عظماء النفوس. هم الفقراء الصابرون ولكنهم أباة الضيم، لا يقعدون على الذل ولا يرضون بالدنيئة. لقد حكم الله تعالى عليهم بأن تذل نفوسهم فأنزلهم إليكم وجعلهم يلتمسون خبزهم منكم أنتم الذين لا علم لكم ولا تدركون للعمل مزية. لقد أنزل الله كثيرين من علماء الزهرة (الذين لم تكن خطيئاتهم عظيمة) إلى غيركم من الأمم التي عرفت فضل العلم فكانوا في سعة من العيش.

إذا رأيت عالماً فقيراً في مدينة فاستدل بفقره على جهل أهلها. إنَّ علماءكم يلتمسون خبزهم منكم ولكنهم يعلمونكم ويهذبون أخلاقكم ويدافعون عنكم ويخاصمون لكم ويدرأون أعداءكم ويدلونكم على الخير ويرشدونكم إلى النجاح ويتهالكون في حبكم عند الملمات. إنَّ رأي عالم فقير يحفظ أمة بمالها من بلية كادت تذهب بها وتستأصلها. يا أيها المتمولون الجهلاء لو سعى العلماء بذكائهم وفطنتهم وحسن جدهم وراء المال نصف سعيكم لما تركوا لكم ديناراً تربحونه من عمل يمارسونه، ولكنهم زهدوا في المال لأنَّ نفوسهم أرفع منه وتركوه لكم، فاحمدوا الله ولا تضطروا بعضهم إلى هجر العلم وطلب المال. ساعدوهم على نشر فوائدهم وفضائلهم لعلكم تنتفعون بها. أكرموهم وقربوهم منكم بالإخلاص. اركنوا إليهم وشاوروهم في أموركم فإنهم مخلصون لا يعرفون دهاء المتمولين وخداعهم. إنَّ الذي تحسبونه عظيماً لديكم فتحرصون عليه هو محتقر عندهم فلا تخافوهم إذا رجعتم إليهم فيما يعز عليكم.

نحن نرجع إلى علماء الزهرة في كل أمر. نحن لا نستغني عنهم. إنَّ الزهرة بدونهم لا تصلح للعيش، فلذلك هم المقدمون على الخليقة وهم السراة والعظماء.

لما فرغ والدي من كلامه قلت له: ألتمس منك أن تعلمني كيف كانت حالة

الإنسان الأولى في الأرض. فقال: إنَّ الفصيلة البشرية الأولى (آكلة النبات) في الأرض كانت تجري وراء الحيوان وتفتك به. وكانت تقف له في طريقه وتصيده. فإذا ظفرت به حياً مزقته بأظافيرها وأنيابها وأكلته. غير أنَّ الإنسان توصل بأكله بقايا الحيوان الملقى في الهواء أيام الخريف إلى اكتشاف صناعة التقديد، فصار يصنع من اللحم قديداً يدخره لأيام الشتاء حيث يقل الحيوان إذ يعتصم بملاجئه الحصينة في الجبال. وكان يأكل أيضاً الحريد[1].

وتوصل أيضاً بأكله بقايا الحيوان الملقاة على الرمضاء أيام الصيف إلى معرفة إنضاج اللحوم في حرارة الشمس، وهذا هو العلم والصناعة الأولى اللذان انتفع بهما الإنسان وعرف منهما فائدة الحرارة، فأحب التوسع فيهما تفنناً منه فصار يدفن اللحوم في الأراضي الرملية إلى أن تنضج فيأكلها. ومن هنا ابتداء تاريخ الفنون. وقد قادت الصدفة رجلاً إلى قطعة من اللحم مخبأة في رملة فأكلها متلذذاً بها. (أما أكله النبات فلم يتعلمه تعلّماً بل كان طبيعياً فيه).

أما علم التاريخ فكان ابتداؤه من نشأة الإنسان الأولى، أي منذ كان الأب ينقل إلى أبنائه حوادث أيامه المستغربة. إلا أنَّ هذا النقل لم تتم به فائدة لأنَّ الإنسان لما كان مولعاً بالغريب من الحديث غالباً، لم يكن يحفظ الحوادث العادية التي في بعضها ما هو جدير بالاعتبار. وأزيد على ذلك أنَّ تلك النقول والحكايات المكررة لم تكن تسلم من شوائب المبالغات التي كانت تلفقها عجائز الحي، ولا من الخرافات والأباطيل والترهات التي كانت مدعاة للجهل فتضيق بها دائرة العقل.

ولنرجع إلى الكلام عن الحرارة فأقول: إنَّ الإنسان اكتشف النار بما تقذفه البراكين والثكن[2] حواليها. واكتشفها غيره بسقوط حجر من الصوان على حجر مثله، واكتشف النار غيره من تصادم حجرين صدفة.

فلما عرف من أين وكيف تستخرج النار أخذ يقدح زناد فكرته شأن العالم المحقق المتفنن، فأدرك أنه إذا حك قطعة من الخشب بقطعة أخرى حكاً قوياً متوالياً بضع ساعات، ظهرت النار الكامنة، فهمَّ بعد ذلك بالتجربة مستعيناً على بلوغ مراده بالثبات إلى أن تمت له أمنيته، فأصبحت النار طوع يديه، ينضج بها اللحوم ويستدفئ

---

1 ـ الحريد: السمك المقدّد.

2 ـ الثكن جمع ثكنة وهي: بئر النار.

بحرارتها أيام البرد. فإيجاد النار إذاً علم وصناعة من أهم العلوم والصنائع، ذلك لأنَّ الإنسان حفظ بها نوعه بعض الحفظ في ذلك الحين.

أما اكتشاف بعض المعادن فقد كان من إضرام نار شديدة في بعض الجبال ومن ظهور المواد الذائبة وتجمدها وتصلبها بعد انقطاع الحرارة عنها.

ولقد رأى الإنسان مرة ثكنة تقذف سوائل عن بعد فدنا منها ما أمكن فإذا هي تلتهب كالنار، ثم رآها بعد برودتها الحاصلة لها بفعل الهواء جامدة صلبة، أكثر صلابة من الصوان الذي كان يهذبه ببعضه ويصنع منه سلاحاً، فاستعاض عنه بهذا المعدن. والأمة التي اتخذت أسلحتها من المعدن تغلبت بها على الأمم التي حواليها واستعبدتها.

ولا شك أنَّ الصناعة تقدمت تقدماً عظيماً باكتشاف المعادن ومعرفة الانتفاع، إذ نجا الإنسان من هجمات الحيوان المتوالية بدفاعه عن نفسه بالأسلحة الحديثة، فقد مرَّ قبل ذلك حين من الدهر على الإنسان والحيوان كانت الحرب بينهما الحرب العوان، وفي ذلك أمكن الإنسان أن يحفظ نوعه أكثر من قبل وما كان هذا إلا بفضل العلم.

فيستنتج مما تقدم أنَّ الإنسان كان في أول نشأته من آكلات النبات واللحوم، فلما تعلّم أن يستفيد من البحث والتدقيق في طبائع الأشياء، وكان يحب أكل النبات أيام الحر، بحث عن خواصه واختبرها بالحيوان الداجن ثم بنفسه، فاختار بعد ذلك من النبات لطعامه وغذائه ما هو أصلح من غيره.

ولا ريب أنَّ هؤلاء الرجال المكتشفين والمتوصلين باجتهادهم إلى معرفة بعض الأشياء في ذلك الزمان كانوا مكرمين ومعظمين لنفعهم، فنتج من تكريمهم وتعظيمهم أن كثيرين غيرهم واصلوا الجد والتحقيق حتى برعوا وفاقوا سواهم في علم الجماد والنبات والحيوان، وأدركوا أنَّ في تناول بعض النبات شفاء في الأبدان، وأنَّ الله سبحانه وتعالى خلق لكل علة نباتاً شافياً، فكان من ذلك علم الطب، فحفظ الإنسان به نوعه أكثر من قبل أيضاً، ولكن هذا العلم لم يتقدم التقدم المطلوب، وأقول إنه لا يستحق إلى اليوم أن يسمى علماً. ولم تزل الصناعات ترتقى بالعلم حتى وصلت إلى ما هي عليه الآن، وهي غير واقفة عند حد، وسيعلم الإنسان بها ما لم يكن يخطر بباله.

أما الكلام (غير الأسماء التي علّمها الله تعالى الإنسان) فقد كان بعد ذلك عبارة عن ألفاظ لا معنى لها أشير بها عن غير قصد وضعها إلى أشياء بعينها دون غيرها لتدل عليها وتتعرف بها. فلما أفادت وتم بها الفهم وحصلت منها الدلالة على المعاني

المقصودة بذاتها، تكرر استعمالها على أن لفظ كذا مخصص بهذا الشيء ليميزه عن غيره في المعرفة.

ولما كانت هذه الألفاظ قليلة العدد بالنظر إلى قلة الدواعي والاحتياج الداعية إلى الكلام، تقررت في الأذهان ورسخت في العقول، فكانت منها المشتقات بحسب اللزوم، فلما ازدادت الدواعي بازدياد ترقي الإنسان وضع لها أولاً فأولاً ألفاظاً تدل عليها مناسبة لواقع الحال ولطبع الشيء وماهيته مستعيناً على ذلك بالقلب والإبدال.

أما الأصوات وما يضاف إليها فقد كان الإنسان يعبر عنها بلفظ من مثلها، كما عبر عن صوت الخيل مثلاً بالصهيل، وعن فصل العود اليابس بالكسر. ألا ترى في لفظ الصهيل محاكاة صوت الفرس؟ وفي لفظ الكسر مشابهة صوت ذاك العود وهو يفصل؟ أي إنك إذا كسرت عصاً سمعت صوتاً متناولاً أحرف كلمة الكسر.

أقول: ولا يخفى أنَّ الكلام جعل دليلاً على مراد المتكلم، فإذا كان فصيحاً بليغاً كان سريع الإعراب عما في جنانه من المعاني، إذ يتناوله طبع السامع حالاً ويشربه ذوقه بسهولة، فيقع في قلبه أحسن وقع، فيرتاح المتكلم ويصغي إليه، وكثيراً ما بلغ الفصيح غير العالم ببيانه وحلو خطابه مبلغاً لم يدرك شأوه العالم الراسخ في العلم الذي لا بيان له في منطقه. ورُبَّ كلمة فصيحة سكنت غضب أمير ساخط فعفا وأحسن.

وعليه فقد كانت المزية الكبرى في ذلك الحين لمن كان قوي الذاكرة شديد العارضة[1] يستظهر[2] الكلام ويرويه الناس فينقلونه عنه. إلا أنه كان معرضاً للتحريف والتصحيف وللزيادة والنقصان. ومن كان ضعيف الحافظة غير مستطيع أن يحفظ في مخيلته كل ما ينظمه وينثره فلم يكن له نصيب وافر من علمه وتعبه.

فلما وضعوا بعد هذا إشارات ورسوماً لمقاصد مخصوصة ومعان معينة، تمكن بعض العلماء أن يثبتوا بها شيئاً من آثارهم غير بالغين مرادهم في إثبات كل ما يرومون إثباته أو من إثبات جلَّ كلامهم، وذلك لأنَّ تلك الإشارات والرسوم لم تكن وافية بالمرام، ولأنَّ النقش على الحجر أو على الخشب كان صعباً وكان يقتضي نفقة عظيمة أكثر من اقتدار ذلك الشاعر أو الخطيب أو العالم.

فلما ظهرت الكتابة بالحروف وظهر الرق دخل العلم في الدور الثاني، فترقت

1 ـ العارضة: البيان واللسن. يقال: فلان ذو عارضة.

2 ـ يستظهر الكلام: يحفظه ويقرأه ظاهراً، أي حفظاً بلا كتاب.

المعاملات واستحكمت المعاقدات والمعاهدات وتقوّت العلاقة البشرية والرابطة الإنسانية، وذلك بإثبات وتدوين قواعد الدين التي أنزلها الله سبحانه وتعالى على أنبيائه ورسله العظام رأفة بالناس ورحمة لهم، فنجم عنها تهذيب الأخلاق وتثقيف العقول وإيقاف الإنسان عند حد معلوم لا يتجاوزه، فاجتنب كثيراً من المناهي والمحارم، وكان ذلك سبباً لظهور مدنيتكم وحضارتكم فعرف الإنسان تقريباً معنى كلمة الإنسانية. ولما ظهرت المطابع دخل العلم في دوره الثالث، وله أدوار أخرى، فترقى الترقي المعروف عندكم وتأخر من جهات أخص منها اختراعه الأسلحة السريعة التفتك بالنظر إلى غاياته.

ولنعد إلى الكلام عن الفصاحة والبيان فأقول: من المعلوم أنَّ المراد من علم المعاني والبيان وعلم البديع هو معرفة اختيار الألفاظ المأنوسة الرقيقة السالمة من التنافر ومعرفة التراكيب السهلة الخالية من التعقيد. ولهذين العلمين فائدة عظيمة وهي الرقة والمتانة، لأنَّ المتكلم حينئذ يرق لفظه ويجزل منطقه في عذوبة ولطافة. إنَّ الكلام الرقيق لا يجري على لسان الفظ الغليظ من الناس.

فتبين مما ذكر أنَّ الإنسان لم يحفظ نوعه هذا الحفظ، ولم يطب له بعض العيش، ولم يعظم قدره إلا بالعلم، وأنَّ أجدادكم عانوا المشقات وزاولوا الشدائد حتى توصلوا إلى معرفة بعض أسباب الراحة والرفاهة، وقد وضعوا لكم قوانين وقواعد وتراتيب وعادات يتحسن بها عيشكم.

غير أنَّ المتأخرين بعد أن أخذوا أخذهم وذهبوا مذهبهم في البحث والتدقيق، أضافوا إلى تلك العلوم والفوائد أشياء أمست ضرورية لكم ومفيدة بالنظر إلى أحوال الزمان وتقلبه وتغيره. فيجب على الإنسان العصري أن يتتبع تلك العلوم وما أضيف إليها بجملتها ويتعلمها بحفظ وإتقان غير متعلل بشيء، فإنَّ العلم أصبح هيناً قريب المنال سهل المأخذ لا يجد الطالب في الحصول عليه مشقة، بخلاف عهد أجدادكم فإنهم كانوا يجوبون القفار ويجوبون البلاد ويقاسون المكاره في طلب العلم، بل يعرضون نفوسهم للمخاطر.

أما الآن فقد أصبحت المدارس أكثر انتظاماً من قبل وهي تبتسم في وجوه الطلبة، والعلماء بين ظهرانيكم يرغبونكم في التعلم، وهم ما برحوا يضعون الكتب التي هي أقرب تناولاً من غيرها تسهيلاً لكم لئلا تملوا. وأما نفقة التعليم فيلاحظ بها أحوال الناس واستعدادهم أيضاً ترغيباً لهم وتشويقاً.

فمالي أرى أكثر الناس مقصرين في تعليم أبنائهم؟ ألم يهتدوا إلى الآن ويدركوا أنَّ قيمة الإنسان ما يعلمه؟ ألم يشعروا أنَّ زمن أولادهم أصبح غير زمنهم وأنهم إن غادروهم جهلاء ضلوا بجهلهم وأصبحوا وراء البشر؟ يا أيها الناس علموا أبناءكم ليعلموا قدر نفوسهم، فإن لم تعلموهم عاقبكم الله تعالى.

الفصل الثامن منه
_ في الشعر والشعراء _

قال والدي: إذا برع أحدنا في الزهرة وفاق أقرانه في المعارف والفنون وعلم من نفسه أنَّ له قريحة شعرية كتمها، ونظم الشعر سراً ولم يظهره لئلا يكون غير صحيح فيفسد لغة حافظيه. فحينما يرى أنه بلغ مبالغ الشعراء المجيدين ينظم في كل نوع من أنواع الشعر قصيدة، ويقدم القصائد إلى الندوة الشعرية، فإذا استجادت شعره اتفقت على تعيين النوع الذي كانت إجادته فيه أكثر من غيره وخصته به، وحظرت عليه أن ينظم الشعر في نوع آخر، أي إنَّ الشاعر إذا أحسن في الحِكم مثلاً فلا يسمح له أن ينظم المديح، فإذا اختلفت الندوة في التعيين ورأت الشاعر أجاد نظم نوعين أو ثلاثة، خيرته في اختيار النوع الذي يروقه. وبعد هذا يعلن اسمه بالتكريم والتعظيم وترفع مرتبته إذا لم يكن من أرباب المراتب العالية، فإذا كان منهم امتاز امتيازاً عظيماً.

فإذا رأت الندوة أنَّ القصائد غير جيدة منعت صاحبها من إشهارها، غير أنه يسمح له وهو في الزهرة أن يلقي الشعر على من يريد من شعراء الأرض.

أما أوزان الشعر فإنها بعدد أنواعه، أي إنَّ شعراءنا الأولين جعلوا لكل نوع وزناً خاصاً به يزيد الشعر تأثيراً في السامعين، فللشجون مثلاً وزن ترقق نغمته القلوب القاسية وتكرهها على الرحمة. وللحماسة وزن آخر يهيج الخواطر ويشدد القوى إلى غير ذلك.

واعلم أنَّ شاعرنا إذا أثم وطرد إلى الأرض ظهرت قريحته فيها، غير أنَّ طبقته تدنى وتفقد تلك المعاني والفصاحة التي كانت له في الزهرة، فإذا رجع إليها أعيدت قريحته إليه.

فقلت لوالدي: وددت لو عربت لي قصيدة من شعركم. فقال: لا تستطيع أن تفهمه، مع هذا فإني أتصرف في التعريب وأجعل القصيدة قريبة الفهم والتناول،

فالمعنى الذي لا يهون عليك فهمه أبدله بغيره. قال الشاعر الذي تعريب اسمه «صبر» وهو الشيخ فتح الله النحاس الحلبي: لما رأى الله تعالى أن يخلق العباد على أنهم لا يأتلفون ولا يحفظون نوعهم إلا إذا تقرب بعضهم إلى بعض بالمحبة فأوجدها لهم، فتجلت بحسن رقتها ولطافتها للعقل فأثرت فيه تأثيراً خاف أن يفقد به سداده وحكمته، وهو عالم أنه لابدَّ لكل مخلوق من المحبة. فقال لها: إنَّ الله جعل مركزك القلب لأنك إذا تسلطت تسلطاً يخشى عليه منه نبهته وحذرته، فنزلت إلى القلب واستقرت فيه، فظهرت بهذا التجلي والاستقرار الرابطة الطبيعية بين العقل والقلب، على أنهما خافا أن يختلفا فجعلا الإرادة لهما حكماً مسؤولاً عنهما، فتسامت المحبة بتنبه العواطف الشريفة إليها وشعورها بلذاتها، وتنورت بها القلوب المظلمة تنوراً نجم عنه الائتلاف فتلطفت خشونة العيش. فبناء على ذلك أمر الله تعالى عباده بأن يحب بعضهم بعضاً وجعل المحبة قاعدة من قواعد الدين الكبرى.

ورأى جلَّ جلاله أنَّ آفة المحبة الطمع، فجعل العيش ميسراً لجميع عباده فلم يضطروا إلى المضايقة فالنفار للقتال، لأنَّ أحدنا يستطيع بقليل من السعي والجد أن يعيش عيش أخيه الرغد، ثم أمرهم بالقناعة.

ورأى الله تعالى أيضاً أنَّ الائتلاف والاختلاط يتسببان بالفساد، فأمرهم بأن يتعففوا وجازى المخالفين جزاءً مهيناً أليماً فتحابوا حتى أصبحت المحبة عامة بينهم وهم بها أعفاء فارتاحوا وسعدوا.

فلما تلذذوا بالراحة والسعادة الصادرتين من المحبة وهم يعلمون أنها من فضل الله تعالى، أدركوا أنهم يحتاجون إليه في كل شيء، وأنه لا يحتاج إليهم في شيء واحد، لأنهم كالهباء المنثور بالقياس إلى اقتداره وعظمته واغتنائه بذاته عن سواه. وعقلوا أنه ليس في وسعهم أن يقدموا إليه شيئاً من عندهم يفصحون به عن سرورهم العظيم ويستعطفونه ليديم عليهم هذه النعم، فأقروا له بعجزهم فأرشدهم ذل العجز إلى حمده وشكره اللذين هما مكافأة العاجز الذليل على فضل الفاضل وإحسانه.

وقد كان إقرارهم بالعجز وحمدهم إياه تعالى منبعثاً عن شدة حرصهم على طيبات الحياة فأخذوا يتقربون إليه بالتواضع والرقة. وهو كلما تواضعوا ورقوا أحسن إليهم بآلائه فنمت المحبة في قلوبهم حتى فاضت فيضاً عظيماً سُرَّ به، لأنه كلما رسخت له المحبة فيها ازداد حب الخلق لبعضهم بعض، وهذا غاية ما يتمناه الله تعالى فإنه مسؤول بحكم عدله ورحمته عن راحتهم وهي لا تدوم إلا بالمحبة.

إنَّ هذه المحبة لم تنشأ فينا بسعينا واعتنائنا، بل هي هبة من عند الله تعالى كما علم، فكان من الواجب أن تكون له وحده وما زاد منها فللعباد.

هذا ومن المعلوم أنَّ الله سبحانه وتعالى لم يقبل منا محبتنا ولم يرض علينا بها لأنها شيء مذكور لديه، بل لأنه يريد من توجه قلوبنا إليه بالمحبة أن نكون طاهرين فنعتاد الطهارة في كل فعل يصدر منا. فالإفراط في حب الخليقة إذاً خيانة منا لله تعالى وإساءة من وجهين. ففي الوجه الأول يرى عبده لها عن حبه من أجل لذة وقتية جزئية نسي بها اللذات العظيمة التي أعدها له. ونسي أيضاً أنه لم يشعر بهذه اللذة إلا بما جعله الله تعالى في خلقه من الاستعداد الطبيعي لقبولها، فالفضل في ذلك هو بجعل الخلقة مستعدة لقبول اللذة لا للذة نفسها. فيلزمنا أن لا نفرط في المحبة لئلا ننسى خالقنا العظيم الذي جعلنا نتلذذ في كل وقت بمواهبه.

وفي الوجه الثاني يرى إفراطنا في غير محبته فيسؤه، لأنه يهيجنا فيمسي لنا شغلاً شاغلاً نلهو به عن واجباتنا وندع كل شيء وراءنا فلا نستطيع الوصول إلى حاجاتنا. وهناك أمر آخر وهو أنَّ الإفراط في الشيء مضر بصاحبه ضرراً منهياً عنه، فمن ثم يجب علينا أن نكون في المحبة حكماء.

ولكن كيف أنهي عن الإفراط وأنا مصاب به غالباً لا أستطيع الإقلاع عنه؟ إنني أستغفر الله تعالى إذا قلت لك يا حبيبتي إنَّ محبتي تكاد تكون غير معتدلة.

إنني أحبك، إنَّ جملة قولي «إنني أحبك» كتبتها بيدي الراجفة ثلاثاً وأنا في كل مرة أمحوها استحياء منك، ثم كتبتها وأثبتها لأنَّ قلبي الصادق أصر على إثباتها فلا أخاله يغشني.

لقد اتفق القلب والإرادة على كتابتها، أما العقل فإنه لم يتعرض لنا، ولا شك أنَّ عقلي لا يسومني خسفاً ولا يعرضني لما تكرهين.

إنَّ الخلقة السامية لا تكون سامية إلا إذا كانت حرة في المحبة. إنَّ المحبة الطاهرة لا يجب كتمها، غير أنَّ محبتي ليست بشيء يبيض به وجهي لديك لأنني أحبك لنفسي. إنَّ كثرة محبتي مع علمي ضررها أمر عجيب لا يحسن صدورها من مثلي.

يا وردتي البيضاء عسى أن تتعطفي، عسى أن تنتبهي إلى ما أقول (لقد خطر ببالي الآن أنك تحبينني) فإن صح هذا فلا يبقى محل للعجب، لأنَّ المحبة تعزّزت بمثلها فهي كثيرة بمحبتك إن شاء الله تعالى، وعليه فلا أكتمها عنك، فإن لم تقبليها وإن أنكرتها علي زالت، لأنها لا تقوم بذاتها بل تقوم إذا اتحدت بغيرها.

محبتي شريفة طاهرة لا تضع من قدرك ولا تعيبك إذا كانت محبتك مستعدة لقبولها والاتحاد بها.

محبتي صافية لأنها استمدت صفاءها من قلبك. اعذريني إذا كان لا يسمح لي أن أذكر قلبك الصافي مقروناً بذكر محبتي. إنَّ الفصاحة الشعرية لا تجيز تكرير الكلمات، أما أنا فأكرر كلمة قلبك في شعري لأنه يشتهي أن يتلألأ به، أما هو فمنير بنور الطهارة.

لقد نمت المحبة وعظمت فلم يسعها قلبي فنفذته وسرت إليك بقوة الجذب الصادرة من جميع جوارحك. إنَّ حالتي تكاد توصلني إلى حيث لا ينفعني قربك فتداركيني بإشارة منك تحيي فيَّ الأمل.

إنَّ حالتي أجارك الله تعالى من مثلها تضغط النفس في أعماق القلب فيكاد يتمزق، ولولا تعلله بأنه سيكون سعيداً بقربك لأسفت عليه الحياة ورحبت به الأبدية وقالت: ادخل بسلام يا شهيد الغرام. هذا إذا كنت تحبينني وكانت الأيام لا تسمح بقربك. إنَّ الله تعالى لا يريد عذاب عباده بالمحبة.

لقد علمت أنني مؤاخذ إذا لم أستعد كلامي وأرده إلى نفسي لأني أفرطت وخبطت، فالرحمة الرحمة يا خالقي العظيم العليم كل حسنة منك وكل سيئة من نفسي التي لا تريد أن تضغط بالصبر.

إنَّ قلبك لا يستطيع أن يسألني عن محبة غيرك. أية فتاة تقول إنني نظرت إليها ولو بطرف خفي؟ لا أنظر إلى أحد برغبة غيرك.

لقد ابتدأ الحب بك وقلبي يحدثني بأنه لا ينتهي إلا بك، فبك بداءتي في المحبة ومنك حسن نهايتي إن شاء الله. إنني أراك بقلبي أكثر مما أراك بعينيّ فتحسدانه عليك، إنني أرى نفسي أهلاً لك، هي النفس العزيزة التي تعز على كثيرين من أكارم سكان الزهرة فهي بالطبع عزيزة لديك أيضاً، هذه النفس التي ذابت وسالت إليك تسألك الإنصاف.

إنَّ صديقتي هي نفسي فلا يعز علي شيء بعد الله تعالى غيرها، فأحب وأشتهي أن تكوني أليفتها لنقطع سوية أدوار هذه الحياة ونمضي بعدها إلى حيث السعادة الدائمة في المريخ، ألا نكون سعيدين إذا أقمنا بالجنة؟ إنَّ الجنة لك يا إحدى فتياتها وأرجو أن يجعلني الله تعالى أهلاً لها.

أنت من الطبقة الأولى بين غادات الزهرة، فالعباد يتسابقون إليك وكل منهم

يعلل نفسه بأنه يظفر بك، فلمن تكونين يا ليت شعري؟ يتسابقون إليك لأنك عالمة أديبة رضية الأخلاق ولأنك متفردة بالمحاسن.

لقد ابتهجت لما علمت بأنك ستهتدين قريباً إلى اكتشاف جديد في علم تدبير المنزل يعود على سكان الزهرة بالمنافع والفوائد.

لقد سرني منك أنَّ الفتيات يقتدين بفضائلك وأنَّ كثيرين من الرجال يريدون أن يكون لهم شيء من مزاياك.

أكرر قولي إنك تفردت بالمحاسن مع أنَّ حسناً واحداً منها يستحق محبة أعظم رجل، أقول هذا وقلبي يخفق علماً مني أنني لا أضاهيك في كثير من المزايا، فأنا دونك غير أنني أضاهيك بعظمة وفائي وشرف قلبي وصدق محبتي وصفاء نيتي.

إنني لا أتمدح بهذه العبارات لأنَّ ما أمدحه غير مكتسب بهمتي بل هو هبة من خالقنا. أشكر الله تعالى لأنه جعل فيَّ صفات تروقك أكثر من غيرها. يظهر لي أنَّ الله لم يخلق فيَّ هذه المزايا إلا لأكون أهلاً لك وذلك حباً بك، أي إنه أحبك فخلقني لك. فما تقولين ولكن مالي وهذا الكلام الذي يعرب عن عظمة في صاحبه هل أعظم به في عينيك؟ إنك تعرفين الحقائق وتعلمين من أنا. اعذريني يا نور الحكمة، إذا وجدت كلامي أعظم مني. إنك ستجدينه كذلك، اعذريني فقد زعمت أنني أسترضيك به.

آه ما أحلى المحبة إذا عدلت وما أمرها إذا جارت! إنَّ المحبة الجائرة تستخف بصاحبها وتهجم على عقله وتزيغه عن مركزه قسراً، ولكن السبب في ذلك هو أنَّ المحب إذا لم يعتصم بالحكمة نقمت عليه المحبة نقماً عادلاً، فإذاً أنا مخطئ بقولي إنَّ المحبة تجور. لا تجور لأنها من الله.

أعود إلى ذكر محاسنك فأقول إنَّ الله تعالى لم يخلقك عجباء يتعجب من حسنك إلا ليعجب المتكبرون من اقتداره وعظمته الفائقتين.

لعينيك نور يدخل القلوب فتكرمي وألقه على قلبي لتنظرا هل فيه غير اسمك الجميل مكتوباً بأحرف نارية تلتهب فيه.

إنني خشيت أن تسقط نفسي في الكبرياء وأردت أن تتواضع رحمة لها، فنظرت إلى مرآة وجهك الصافي ليظهر الفرق العظيم بيني وبينك.

إنَّ وجهك كله أجمع بهجات في محاسن، أما وجهي إذا قابلته بوجهك فيشبه وجوه سكان بعض الأجرام الحقيرة، مع أننا نحن سكان الزهرة اقتبسنا شيئاً مذكوراً من جمال سكان المريخ.

ما أعدل قوامك الذي علمنا الاستقامة والاعتدال.

ما ألطف أنفك الذي تشتهي زهرة القلب أن تحاكيه (هي زهرة مشهورة بلطافتها وحسن رقتها تسمى عندنا بالقلب).

إنني أسألك بالمحبة الطاهرة أن لا تكلميني كثيراً إذا سمحت لي بالقرب منك، فإنَّ قلبي حينئذ يضطرب في صدري من شدة التأثر فأشتغل به من حسن التمتع بمشاهدتك.

لا أجد لائماً يلومني إذا قلت إنني أحسب كلامك مثل كلام القاضي «سا» العظيم (هو قاضٍ من سكان الزهرة اسمه «سا» كان إذا كلّم رجلاً أسكره أو أذابه، فمنعه قاضي القضاة أن لا يكثر من خطاب الرجال وأمره أيضاً بأن لا يخاطب أنثى، وكان ذلك من نحو مئة وخمسين ألف عام).

لا يحق لك أن تعتبي علي لأني لم أصف حسن جيدك، إنني أذكر السبب ولا أخالك تجهلينه، وهو أنَّ نور عنقك غلب بصري فلم يقوَ على النظر إليه فإذا وعدتني أنك تسترينه بشعرك على الأقل تجاسرت على لمحه لمحاً خفيفاً ووصفته.

أحب أذنيك الصغيرتين اللتين هما كصدفتين جميلتين في بحر الزهرة (هو بحر له صدف صغير متلألئ كلما لمحته نصع لونه، تزينه حمرة خفيفة كأنها من ذائب ياقوتة حمراء لطيفة الحمرة).

وأحبهما لأنهما تحرصان على درر الحكمة حينما تفرغ فيهما وتنبذان كل شيء غيرهما، أحبهما لأنهما تسمعان عن بعد ضربات قلبي العليل التي هي نقرات حروف سريعة الحركة أسرع من البرق، ولا عجب في ذلك لأنَّ مصدر سرعتهما نور المحبة، وهذه الحروف تتركب منها جمل الغرام الاستعطافية فتنقلها أذناك اللطيفتان إلى قلبك، غير أني أخاف عليه حرارتها لأنها منبعثة من قلبي.

أكتفي بهذا القدر من الكلام ولا آتي على ذكر بقية محاسنك علماً مني أن وصفها غير مستطاع.

وأقول في الختام: إنَّ المحبة راضية عني أني وفيتها حقها، فيا ليت شعري هل أنت راضية مثلها؟ أجيبيني بحق المحبة.

لما فرغ والدي من تعريب القصيدة قال: إني أتصرف أيضاً في تعريب شيء من شعر زاهد الشاعر، وهو الخوري نيقلاوس الصائغ الحلبي. قال: إنَّ الجسم البسيط القائم من مادة واحدة لا ينحل ولا يتجزأ فيجب علينا أن نظل في اعتقادنا أنَّ الله

تعالى أحبنا فخلقنا، وأن نبقى ثابتين ويلزمنا أن نحبه محبة لا تنحل ولا تتجزأ. إنَّ السعادة في الجنة والمحبة بابها. شاء الله تعالى فكان كل ما في الإمكان.

إنَّ الأجسام المركبة القائمة من مواد مختلفة هي قابلة الانحلال وهي لا تستطيع إلا أن تتجزأ. فإذا أردنا أن لا ينحل نظام كياننا، وإذا أحببنا أن يستمر عقد انتظامنا، فمن الضرورة أن تكون محبتنا من مادة واحدة، أي لغاية واحدة وهي مرضاة الله. شاء الله تعالى فكان كل ما في الإمكان.

إنَّ المواد يختلف بعضها عن بعض في القوة والضعف. فالمادة القوية هي التي فيها قوة الجذب أشد من غيرها، فكما أنَّ الحيوان يطلب قوته بجده ونشاطه كذلك المواد، فإنَّ قويها يعالج ضعيفها ويجذبه إليه ليتغذى به ويتقوى. شاء الله تعالى فكان كل ما في الإمكان.

إننا كثيراً ما نرى بمكبراتنا المادة الضعيفة المجذوبة تجذب مادة أضعف منها وتضمها إليها لتغتذي بها أيضاً وتتقوى، ويظل هذا الجذب والضم حتى تصبح هذه المواد كأنها جسم واحد، غير أنها لا تتحد بل هي في اضطراب دائم. إنَّ الجذب مبدأ الحركة. شاء الله تعالى فكان كل ما في الإمكان.

ومن المعلوم أنَّ المواد الضعيفة المكرهة على الانضمام إلى غيرها لم تفقد قوتها وحالتها الطبيعية بتغلب القوية عليها، بل بقيت مع جاذبتها في اضطراب ونزاع شديدين دائمين، تريد القوية الثبات في التآلف وتبتغي الضعيفة حرية الافتراق حتى صارت هذه الحالة طبيعية وصار التحرك فيها عادة منتظمة فكانت الحركة. أعلمتم ما هي الحركة؟ شاء الله فكان كل ما في الإمكان.

إنَّ هذا المركب إذا تخللته المياه واتخذت لها فيه مركزاً ضغطته ضغطاً قوياً، وهاجت فيه الحركة هيجاناً ينجم عنه اصطدام، فتظهر قوة نارية، فلا يقوى هذا المركب على الثبات بل يميد ويتزلزل ثم يتجزأ. وربما استقلت بعض المواد بنفسها وعاد بعضه إلى أصله. شاء الله تعالى فكان كل ما في الإمكان.

وبعد ذلك انتشرت في الفضاء من هذه المواد المتحركة ذرات أصابتها ريح مائية فكانت المائرات[1] وهي الحييوينات الأولى المترددات في عرض، أي التي كانت شبه

1 ـ مار الشيء: تردد وتحرك في عرض.

حركتها أفقية، فالماصعات[1] وهي الحييوينات الثانية التي لها مع شبه الحركة الأفقية شبه حركة عمودية، فالمتخلجات وهي الحييوينات الثالثة التي كانت فيها الحركة أظهر، فالمتحركات وهي الرابعة وقد انتظمت فيها الحركة. ثم الناقصات وهي الخامسة التي لم تكمل وظائف أعضائها بل كانت ناقصة، فشبه الحيوان وهي التي مرتبتها أدنى من الحيوان. شاء الله تعالى فكان كل ما في الإمكان.

فلما أتمَّ التعريب قلت له: أحب أن تنشدني شيئاً من شعرك. فقال: اسمع وتأمل: إنني كنت نظمت قبل فراقي الأرض قصيدة ألقاها علي الشاعر المسمى بعلم وهو العلامة الشيخ ناصيف اليازجي. فلما أتممتها اشتدَّ علي دائي فتركتها حول سريري. وقد كانت الخادمة تسرق ما يصل إليها من مأكول ومشروب فسرقتْ قليلاً من البن وجعلته في القصيدة ودفعته إلى أخ لها، فذهب به إلى رجل متظاهر بالتقوى وقال له: خذ هذا البن وأعطني به سكراً، فأخذه وهو يعلم أنه مسروق وأعطاه السكر وحفظ القصيدة، فمر عليه أحد الأتقياء المغفلين فقال له بعدما جعل يده على صدره وأمال عنقه وأحنى رأسه: يا سيدي إنني لما عدت اليوم من صلاة الصبح رأيت في يد بعض الصبيان هذه المواليات، وأشار إلى القصيدة وهي في يده فأخذها الورع الذي كان لا يحسن القراءة ونظر وتأمل وقال: «نعم نعم لا تجوز أبداً قراءة المواليات العشقية» ثم مزّق القصيدة وطرحها وهي:

زعـــم النـــاسُ أنهـــم علـــماءُ ... أيهـــا النـــاسُ كلنـــا جهـــلاءُ

مـــا عرفنـــا إلا الأباطيـــلَ هـــذا ... شـــأنُ قـــومٍ دليلهـــم عشـــواءُ

أعلمتـــم لأيّ أمـــرٍ خُلقنـــا؟ ... شـــاءَ ربي مـــن خلقـــهِ مـــا يشـــاءُ

ليـــس في الكـــون للحقائـــق نـــورٌ ... إنمـــا الكـــونُ ظلمـــةٌ وخفـــاءُ

كل شيءٍ عندي سوى المـوت وهـمٌ ... كل شيء عنـــد اللبيـــب هبـــاءُ

مـــا خُلقنـــا إلا لـــكي يتســـاوى ... بيننـــا الأقويـــاءُ والضعفـــاءُ

فـــإذا كانـــت الحقـــوقُ ســـواءً ... فأخـــو المـــال والفقـــيرُ ســـواءُ

وإذا كانـــت البرايـــا جميعـــاً ... بالتســـاوي فكلهـــم ســـعداءُ

1 ـ مصعت الدابة بذنبها: حركته وضربت به.

غـير أنَّ الحقـوقَ مـن غـير خـوف لا تُــؤدَّى مــا دامــت الأهــواءُ

إنَّ أطماعنــا لتنمــو فينمــو معهــا الــشُّر بيننــا والشــقاء

فاتقــوا اللــهَ إن أردتــم خــيراً كــم حقــوق يصونهــن اتقــاءُ

وأطيعــوا وإنْ أبيتــم فاعصــوا كل أمــرٍ لكــم عليــه جــزاءُ

أيهــا الأغنيــاءُ والعيــش رغــدٌ كــم تجــدُّون إنكــم فقــراءُ

أيهــا الطامعــون هــلا قنعتــم ضجــت الأرض منكــمُ والســماءُ

تزعمــون الحــروبَ للنــاس خــيراً كيــف يُرجــى مــن البــلاد هنــاءُ

أيهـا النـاس مـا لكـم قـد حرصتم ليــت شــعري أفي الخلــود رجــاءُ

نحـن أبنـاء مـن مضـوا قبـلَ هـذا ســوف نمــضي كــما مــضى الآبــاءُ

يذهــب الســعيُ والعنــاءُ محــالاً غــير ســعي يــدوم فيــه الثنــاءُ

ثم قال لي: وهذه قصيدة نظمتها في صباي ففقدت مني بعد نظمها، فلما رجعت إلى الزهرة علمت أنَّ أحد أصدقائي كان طلبها فلم أعطه إياها فسرقها، وقد كان ألقاها عليَّ فهم الشاعر وهو الأستاذ بطرس كرامة، قلت:

لا تعجــبنَّ إذا صالــت عــلى المهــج ألا تـرى كيــف ثــارت فتنــةُ الدعــجِ

رنــت فهاجــت علينــا أســهماً وظبــى بغــير مقلتهــا الدعجــاء لم تهــجِ

قامــت تميــس فنــادى رمــح قامتهــا لا تطمعـوا بعـد هـذا اليـأس بالفـرجِ

تبــدو إليَّ فيخــشى شــمس طلعتهــا طـرفي وأخـشى عـلى قلبـي مـن الوهـجِ

تبســمت ثــم قالــت إذْ رأت ولهــي علمـت كيـف يضيـع العقـل بالفلـجِ[1]

يـا ليـت شـعري متـى تحنـو عـلي وقـد تاهـت وهامـت بمعنـى حسنها البهـجِ

قــد كان قلبــي طوعــي قبلهــا فغــدا يـروح في حبهـا كيـف اشـتهت ويجـي

يـا حسـن بيـت بـذوب المـاس مكتتـب في صفحــة الجيــد بالكافــور ممتــزجِ

---

1 ـ الفلج: تباعد ما بين الأسنان

إني جعلتُ عقول الناس في عنقي   فما على عاشقي إن جنّ من حرجِ

إن كان يرضيك يا سلمى الوفاء فمن   مثلي تنزَّهَ عن شين وعن عوجِ

قالت هو الحبُّ بحر قلت يا أسفي   أنا الغريق فلا أخشى من اللججِ

سريتُ أحسبُ أنَّ الصبح منبلجٌ   فقيل ذا مستهام غرَّ بالبلجِ [1]

شكوت وجدي فقالت كم وكم كلفٍ   شكا إليّ تباريح الهوى وشجِ

فمات لم تُجْده الشكوى فقلت لها   إني أموت شهيد الحب فابتهجي

بذكرك الموت نادى السمع يا طربي   فعذب لفظك أحلى لي من الهزجِ

إذا سُئلتِ وقد حلَّلت سفك دمي   فهل لديكِ وُقيتِ الحد من حججِ

أعرضتِ عني ولازمت العذول وقد   أبيت أن تعرضي عن عذله السمجِ

إن كنت تصغين للواشي فلي صمم   عن كل واش بأسرار الهوى لهجِ

إنَّ المليحة يا سلمى من ابتعدت   عن لائم ليم في شرع الهوى وهجي

سلي المحبين إن أنكرتِ معرفتي   فقد علوا بمقامي أرفع الدرج

إذا ذُكرتُ لهم طابت نفوسهم   وفاح من طيب ذكري طيب الأرج

إني انتهجت طريق الحب منفرداً   به فكنت لديهم خير منتهج

قالت رأيتكَ من أهل الوفاء كما   شاء الهوى فأقم بالحي لا تعج

وانظر إلى القصر في الظلماء مقتبساً   من نور وجهي فقد أغنى عن السرج

واستنشق الريح إنَّ الريح حاملة   مني السلام وسر سراً ولا تلج

أما أنا فكنت أنظر متحيراً فقال لي: ما بالك في حيرة؟ فأطرقت أقول في خلدي: لقد طال هذا الحلم. فقال: أهكذا يكون الحلم؟ ما بالك مللتني؟ ألم تستطع صبراً؟ فخجلت منه حتى كاد يحرقني ثوبي من حرارة الخجل. فقال: لماذا لا تجيبني؟ فقلت: رأيتك تنشدني شعري الذي نظمته بعد خروجك من الأرض. فقال: قد طمعت

1 ـ البلج: الفرجة بين الحاجبين.

نفسك في شعري فلا بأس عليك إذا ادعيته. فقلت له: لعلي مخطئ فضحك وقال: إنَّ الشعر شعرك وقد أنشدني إياه سديد الشاعر قبل أن يلقيه عليك وهو الشيخ حبيب اليازجي. فقلت: كيف يكون هذا الإلقاء؟ فقال: هو أنك إذا أردت أن تنظم شعراً في الحكمة مثلاً فتتصور شيئاً من المعنى فأتممه وألقيه عليك إلقاءً سهلاً فيشربه ذوقك ويرتاح إليه قلبك ويأنس به طبعك حتى تخاله لسهولته مسبوكاً بألفاظ جزلة وتراكيب رقيقة فتنظمه.

غير أني لا أستطيع أن ألقي عليك معنى لم تفتكر بشيء منه. ثم قال: وهذه قصيدة ثانية ألقاها عليك نبيه الشاعر وهو فرنسيس المرَّاش وأنشد:

يا صباي الذي مضى يا صبايا	**كيف بالله ضيعتك يدايا**
بتّ من حرقتي أناديك مهلاً	**ليت شعري متى تجيب ندايا**
كنتَ لي إن أتيتُ ذنباً شفيعاً	**لا ترى الغيد زلتي وخطايا**
كنت مني الهدى إذا النفس ضلت	**يا مشيبي لقد سلبت هدايا**
كنت أجفو إذا الرباب جفتني	**لست أخشى إذا طلت جفايا**
كم أدلُّ إذا أدلت وقالت	**ما ترى العاشقين حول حمايا**
أنا أشكو إلى الزمان مشيبي	**يا مشيبي عدمت فيك هنايا**
لست أشكو إلى زماني لا لا	**فيه بلوتي ومنه شقايا**
أنا أبكي على شبابي ولكن	**رُبَّ يوم سأبكي فيه بكايا**
رحت أدعو على مشيبي وإني	**لست أرجو أن يستجاب دعايا**
فاجتنبت الحسان خوف التجافي	**وكتمت الهوى بغير رضايا**
وتظاهرت بالسلو احتشاماً	**يا سلوي لقد أذبت حشايا**
كيف أسلو هوى الغواني وإني	**في هواهن أستلذ ضنايا**
لست أشكو الضنى وإني لأخشى	**أن يزول الضنى فأشكو شفايا**
إنَّ في القلب لوعة فأعذروني	**أيها العاذلون أوهت قوايا**
ومهاة تبسمت لي وقالت	**كيف أبصرت بهجتي وسنايا**

فرأيــــت الأعـــراض أولى وإلا حرمتنـــي بمقلتيهـــا نُهايـــا

وأجبــت: الشـــباب أعـــرض عنـــي فدعينـــي وذلتـــي وبلايـــا

واتركينـــي خلـــو الفـــؤاد فقالـــت أنـــا أهـــواك فابتهـــج بهوايـــا

أنـــا أهـــواك شـــاعراً وأديبـــاً فـــدع الشـــيب لي وثـــقْ بوفايـــا

فاقتســـمنا الغـــرام لا أتمنـــى غيرهـــا وهـــي لا تـــروم ســـوايا

فقلت لوالدي: كفى ما تنشدني من شعري، فقد شعرت من القصيدة الأولى أنك تريد أن تقول لي: ألم يأن لك حتى الآن أن تقلع عن الحب؟ ولهذا قلت في قلبي: «أهكذا يكون الحلم؟». وكان قولي مني خجلاً واستحياء منك لا مللاً، على أني سأريك بعد الآن ما يسرك إن شاء الله. فسكت ولم يجبني.



الفصل الأول من الباب الخامس
ـ في بنات الهوى أو الغواني ـ

قال والدي: يخرج الفتى من مدرسته فيرى الغادات المعصرات[1] واقفات له بالمرصاد وفي أيديهن أقواس الحب ليرمينه بنبالهن، فإذا لم تكن عليه درع المتانة، ولم يكن رصين العقل قوي القلب، رمته إحداهن بسهم فيسقط، ثم تهرب غير متوارية عنه، فيضع يده على قلبه الجريح ويتبعها ليطلب شفاءه عندها. أما هي فتمشي وتتغدّن[2] تغدن الغصن النضير كأنها لا تعلم شيئاً، حتى إذا أدركها وهو يتعثر بأذياله وقف أمامها ذليلاً منكسر القلب متلعثم اللسان، فتبتسم له ابتسامة يقوم ويقعد بها قلبه حتى يكاد يطير من صدره، وتمد يدها إليه وهي ترتجف ولوعاً وغراماً كأنها تريد نزع السهم منه، فإذا رأته لم يخترقه ضغطته ضغطة تبلغ سويداءه، ثم تقوده كيف شاءت وتستخدمه في هواها وتستعبده وتمنعه من حسن السعي والاسترزاق، فيضيع مستقبله وتذهب أوقاته أدراج الرياح. تراه دائباً في استنباط الأساليب التي ترغب فيه حبيبته وهو لا يدري ماذا أعدت له الأيام. فإذا استفاق بعد ضياع الزمان من غفلته أبصر أبواب الرزق مغلقة في وجهه فيعيش شقياً تعيساً لا يجديه ندمه ولا ينفعه تأسفه. إذا استسلم الفتى لهوى نفسه أضاع مستقبله.

إني لا أنهي عن الحب، ولكن أنهي عن الغرام والهيام اللذين يلهيان الفتى عن السعي في مصالحه ومصالح غيره، وأنهاه أيضاً عن فتاة ليس له معها في دنياه نصيب

---

1 ـ عصرت المرأة: بلغت شبابها أو أدركت.

2 ـ تغدن الغصن: تمايل وتعطف.

لأنه أحبها من غير أن يتروى ويتأمل، فتَبَلَه ودلَّهَهُ الحب[1] حتى أغواه وأضله.

من أفرط في حبه ولها به عن شغله فقد خرج من الحب وصار من جملة العشاق القاصرين الغافلين عن أمورهم الذين هم كالسكارى أو كالمجانين، لا يشعر بهم المجتمع الإنساني ولا يعلم لهم وجوداً فيه، لأنهم لا يعول عليهم ولا يركن إليهم في شيء فهم من الأموات.

الفصل الثاني منه
ـ في العذرات والمنتديات أي أماكن القهوة ـ

قال والدي: إنَّ سكان الزهرة لا يعرفون العذرات[2] والمنتديات، وهم يعجبون منكم كيف تتلهون بها عن نسائكم وأولادكم وأشغالكم ومصالحكم وشؤونكم، بل عن حب الله تعالى أيضاً! ومما يزيد في تعجبهم هو أنكم أدركتم مضارها بنفوسكم فنهيتم أولادكم وأنتم لا تنتهون فكيف لا يقتدون بكم! لقد جنيتم على نفوسكم وعلى أبنائكم فاسترحموا لعلكم ترحمون. يا أيها الناس دعوا هذه المجالس فرُبّ مجلس كان مفسدة لكم وأنتم لا تعلمون.

الفصل الثالث منه
ـ في التلهي بالزهرة ـ

قال والدي: ليس في الزهرة ملاهٍ ولا مراقص، فإنَّ الرجل منا إذا فرغ من شغله تلهى بامرأته وأولاده وشؤونه الداخلية وبأقاربه، لا يأنس بغيرهم ولا تلذ له معاشرة سواهم. يستعذب كل ما تقوله زوجته وأولاده، وتستعذب هي كل ما يقوله قرينها وبنوها لأنَّ أقوالهم مستعذبة مستحلاة.

لا يصدر قول الواحد منهما إلا عن علم ورصانة وحكمة في محبة. ولذلك يستحسن كل منهما ويستلطف ما يستحسنه ويستلطفه الآخر، أي إنهما لا يختلفان في شيء. يسر

1ـ تَبلَ الحبُّ فلاناً: أسقمه وذهب بعقله. ودلَّهَه الحبُّ والعشقُ: حيّره وأدهشه.

2ـ العذرة: مجلس القوم.

بها ويبتهج وتفرح به وتستبشر كأنهما عروسان لم تمر عليهما ثلاثة أيام.

يجتهدان في ترقية أفكار بنيهما وتنويرها وفي إصلاح أخطائهم. إذا فاهوا بكلام غير مهذب وكانوا لا يعقلونه دلاّهم على معناه بقدر ما يستطيع سنهم ونهياهم عنه من غير زجر. لا يفارق الرجل أهله حرصاً على محبتهم وآدابهم ذلك لأنه مسؤول عنهم ومؤاخذ بهم. إذا غفل عن تهذيبهم وتربيتهم وهو علة وجودهم وتأليفهم وجمعهم بعد الله تعالى فقد أساء إليهم. لا يجوز له أن يهملهم ويتخلى عنهم ويمضي أوقاته في الملاهي وامرأته في البيت تشتغل وتهتم وتمارس، فإذا تخلى كان سبب شقائهم وعذابهم. ألم يخلقنا الله تعالى ولم يتخلَ عنا؟ أما أحبنا وقدّم إلينا كل ما نحتاج إليه وأنزل علينا وصاياه فكان السبب في سعادتنا؟ لا ينظر الرجل إلى غير امرأته ولا تنظر المرأة غير رجلها (إلا ما ندر) لأنَّ المحبة ملأت قلبيهما لذّاتٍ فكلٌّ منهما سعيد برفيقه لا يستغني عنه. لا يسمح للرجل بأن يسافر ويترك عياله. فإذا بدا له سفر لابدَّ منه صحبوه في الحل والترحال، وإلا منع من السفر وهذه عادة محمودة تدفع عادات مذمومة.

الفصل الرابع منه
_ في منتديات وملاهي الأرض _

قال والدي: إنني لا أنصح الرجال المتزوجين ولا أسألهم هجر المنتديات والملاهي لأني لا أخالهم ينتصحون ويجيبون، فأنصح فتيانهم وشبانهم أن يجتنبوا تلك الأماكن التي تقتل أوقاتهم وتدفنها وتفقدهم علومهم ومعارفهم وفنونهم بعد ما عانوا أتعاباً ومشقات عظيمة في تعلمها، لأنَّ الطالب لا يكون عالماً في مدرسته بل في بيته حينما ينفرد بنفسه ويكرر دروسه ويعاودها ويتمرن عليها بالتكرير والتجريب ويرسخها في عقله بالمقابلة والقياس.

ليجتنبوا تلك الملاهي المضلة التي ترغبهم في الألعاب الضارة فإنها تضرهم من جهتين. الأولى: تضيع ثروتهم وشرفهم، والثانية: تجرهم إلى البطالة والكسل، هذا إذا كانت الملاهي خيالية من الروايات الغرامية الخلاعية التي تمثلها وتشخصها بنات الهوى المتهتكات اللواتي طالما هجمن على الشبان واقتنصن قلوبهم وعقولهم بخلاعاتهن التي تهيج البلابل وتحرك الأشجان الكامنة، فسلبنهم بعد ذلك أموالهم وأفقدنهم صحتهم فعاشوا عليلين محتقرين لا يجدون من يرق لهم ويرحمهم.

لا يقل الشاب إنني على علم من غدرهن ومكرهن فلا أقع بين أيديهن. لقد ضل وغوى، فإنَّ لهن حبائل امتزن عن غيرهن بالرشاقة والخفة وقوة الجذب فيقع فيها الفتى وهو حريص على نفسه.

إني أخاف عليك يا هذا أن تقع فتشب بوقوعك على الرذائل والمفاسد فلا تجد باباً للنجاة، فإذا وجدت تغافلت عنه إلى أن تأتيك ساعة وهي قريبة منك لا تبصر بها ولا تعي.

ارحم نفسك يا ولدي ولا تنشأ بجهلك على الشقاء فتضيع منزلتك في المجتمع الإنساني حتى إنك لا تصادف من تستعين به على تخفيف مصائبك. لا تنظر بين يديك ولا تبصر غير جماعة من ذويك يرغبونك في الفواحش والمناهي، فيتسع عليك نطاق الشهوة وأنت تطلب من أجلها المال فلا تظفر به، فتهون عليك اللصوصية فتلصّ، وإلى هنا منتهى حياتك الأدبية وستتبعها المادية عما قليل.

فإذا كانت تلك المنتديات والملاهي خالية مما ذكرت لاقتصارها على الألعاب التي يسمونها بالبسيطة كاللعب بالورق المعروف ونحوه، فهي تقود الفتى إلى المقامرة ولو كانت في أول الأمر جزئية، لأنَّ حبها يكثر في قلبه حتى تصبح وتمسي كلية فيعتادها ويألفها وهو لا يستطيع الإقلاع عنها والتخلص منها. إنَّ المقامرة إثم وعار.

لقد علم الناس كبارهم وصغارهم، عاقلهم وجاهلهم أنَّ القمار انتهى بكثيرين إلى اللصوصية، وأقول ولا أظلم نفسي بقولي: إنَّ كل مقامر مدمن لص لأنه تكون فيه أخلاق اللصوص وكل حركاتهم وسكناتهم، وعليه فإني أنصح إخواني وأطلب إليهم أن لا يغفلوا فيصاهرهم مقامر ولو كان غنياً مثرياً من قوم ماجدين فإنه يفتقر في ساعة واحدة ربما انتحر بها.

إنَّ المقامر يتبرأ من عياله، والوالد المقامر شقاء وبلاء على أولاده لأنه يدعهم ولا ينفق عليهم، فإذا أوصل إليهم قوت يومهم فلا يتفرغ لتربيتهم، فإن تفرغ في بعض الأحيان فلا يصلح للتهذيب لأنه قد تمكنت منه أخلاق المقامرين الذين هم في الأكثر على أطوار الرعاع والأسافل.

لا يقل أحد إذا خاتنني[1] مقامر كففته عن المقامرة، لقد قال قولاً محالاً فإنَّ

---

1 ـ خاتنه: تزوج إليه وصاهره.

المقامرين لا يرعوون ولا يقلعون والنادر بحكم العدم. فإذا منع الرجال بناتهم عن المقامرين كان المنع عبرة لهم وتأديباً فتقلّ المقامرة.

إني لأعجب من بعض العقلاء الذين يمضون لياليهم بالألعاب التي منها الورق، وهي وإن كانت أضرارها جزئية لا تضرهم في الوقت الحاضر، فإنها ستضرهم بأكثر أولادهم الذين ينشأون على عادات آبائهم أولاً ثم يتوسعون ويزدادون إلى أن يعتادوا.

إنَّ الإنسان إذا ولع بشيء لم يقدر عواقبه، فإذا قدر شيئاً منها علّل نفسه بالأماني والأباطيل، فيقول مثلاً إنني ألعب الآن إلى أن يكبر ولدي فأمتنع، كأنه يعتقد أنَّ ولده سيكون طوع بنانه غداً كما هو اليوم. أمن العدالة أن تشوق ولدك إلى اللعب وقد تلذذت به واشتهيته كثيراً أيام أكرهت على تركه، ثم تمنعه على ولدك وتغضب عليه إذا خالفك؟

لا تقل إني إذا تركت اللعب أخذه ولدي عن غيري. ليتركه كل واحد منكم يا أيها الآباء فلا يجد الأبناء من يأخذونه عنه. اتركه يا هذا أولاً ورغّبْ في تركه غيرك.

إني أسأل بعضهم وأقول لهم: لماذا لا تنهون الناس؟ أتعتقدون أنَّ تلك الألعاب غير ضارة ومفسدة للأخلاق، أم تخافون النهي لئلا يكرهكم بعض اللاعبين؟ أغاية الدين أن تستعطفوا البشر وتسترضوهم بمجاراتكم لهم فيما يضرهم ويضلهم؟

إذا استفتيت بضعهم في اللعب تردد عسى أن ينقلب الحديث، فإذا أفتى لم تفهم منه شيئاً، ذلك لأنه يقول يجوز اللعب إذا كان غير مضر، ويفسر قوله بهذه الجملة «أي إذا كان اللعب بشيء جزئي» وهنا ينظر إلى المستفتي فإذا رآه من الراغبين في اللعب لم يشدد عليه وذلك تقرباً منه وتزلفاً إليه.

لا يجوز التساهل، والتشديد واجب لابدَّ منه. يا أيها المستفتي الطالب الحقيقة لا تستفتِ صغيراً قريب العهد من الرئاسة، فإنه ضعيف الحزب يخاف على نفسه التصريح فيكتفي بالتلميح، ولا تلح عليه واستفتِ مسناً قوي الحزب فيصرح لك في النهي، ولو كانت للرؤساء عندكم جرايات لأفتوا في المنع وأظنهم يمنعون وينهون قبل أن يستفتوا.

وفي الأخير أقول: لله در أجدادكم الذين كانوا أقرب إلى الحكم منكم، لأنهم لم يكونوا يتساهلون في هذه الألعاب وغيرها ولذلك كانت السعادة أقرب إليهم منكم.

اعلموا يا رجال هذا القرن أنكم تمهدون لأولادكم سبلاً ستكون ضيقة المسالك عليهم وأنتم لا تعقلون إلا يوم يصيرون شباباً أو رجالاً مثلكم. إنكم ستندمون في شيخوختكم وتحترقون ولكنكم لا تذوبون، فلو ذبتم لنجوتم من عذاب أليم.

الفصل الخامس منه
_ في المآكل _

قال والدي: إننا نأكل البقول مطبوخة في الغالب. والفاكهة الناضجة النافعة الصالحة لنماء الجسم. ونأكل اللبن وبيض بعض الطيور أيضاً.

أما اللحوم فلا نقربها لأنها غليظة ثقيلة يعسر هضمها. ولما كانت مآكلنا خفيفة سريعة الهضم رأينا أن نأكل في كل خمس ساعات أكلة، ولذلك لا تعتل أبداننا إلا في النادر فترانا أقوياء أشداء.

لا نستعبد مثلكم للأكل والشرب لأننا أرقى وأسمى منكم. لا نهتم مثلكم بتنويع الأطعمة فنصنع منها ألواناً نتلذذ بها تلذذاً وقتياً يقوي فينا الشهوات، فتعصينا أبداننا فننغمس في الرذائل.

نحن لا نأكل لنتلذذ بل لنتغذى، فإنَّ للعقلاء لذات كثيرات غير الطعام. وعليه فقد رقت عقولنا وتوسعت مداركنا وحفظت أبداننا.

إنَّ المنهمكين في المطاعم ضعيفو الأجسام والعقول، وهم أقرب من غيرهم إلى العلل المهلكة.

الفصل السادس منه
_ في الأطباء وواجباتهم وفي السكر _

قال والدي: إنَّ سكان الزهرة لا يحتاجون إلى أطباء لأنهم لا يمرضون إلا في النَّدَرَى. فإذا مرض أحدهم دعوا له قاضي محلته الذي لابدَّ من أن يكون رجلاً مسناً حنكته الأيام وأحكمته التجارب. ولما كانت الأمراض والعلل لا تتجاوز العشرة عداً لقلة الأسباب والدواعي الممرضة، هان على القاضي تشخيص العلة، فيصف للعليل ماء العين الفلانية أو النبات الفلاني فيشفى. وبعد شفائه يجتهد القاضي أن يعرف السبب، فإذا تبين له أنَّ المريض جرّ المرض على نفسه بتهامله أو بأكله أكثر اشتهائه وحاجته، طلب من المحكمة العقابية أن تعاقبه بذنبه، وهو أي القاضي يجد في التطهير وزيادة التنظيف لمنع سريان العلة. إنَّ التطبيب والتمريض لا يكونان عندنا إلا مجاناً.

قال: أما أكثر الأطباء عندكم فهم القتلة. هم سفاكو الدماء الطاهرة التي اؤتمنوا عليها. هم أعداء الإنسان. هم الموت الأبيض والأحمر والعدو الأزرق[1]، هم الطاعون. هم الأمراض الفاتكة التي اكتشفتم بعضها، سل المقابر عنهم تجبك إننا مجازر الأطباء ومذابحهم.

إني أرى كلمة الطب لا معنى لها، وإنَّ الطب اسم لا مسمى له غالباً كالغول والعنقاء عندكم. فهو سرّ مجهول غامض لا تستطيع الآن مدارك الإنسان كشفه.

إنَّ الأطباء عندكم في أكثر الأمراض مجربون وممتحنون لا مداوون يتوقعون المصادفة الحسنة. يوغلون في المفاوز المهلكة في الليالي المظلمة ويخبطون على غير هدى، فإما أن ينجوا وإما أن يهلكوا. يحمدون اليوم الدواء الفلاني وغداً يذمونه وينكرونه حتى أمست الأدواء عندهم كالأزياء. فلو منع أكثر الأطباء لقلّ الموت، وهذا أمر لا تقدمون عليه. إنكم تقولون إذا منعنا الأطباء أمتنا علم الطب. إنكم جهلاء مكابرون تموتون بطبكم ولا تدركون. ليس كل طبيب مأذون يصلح للتطبيب. يجب أن يكون الطبيب رصيناً رزيناً ذكياً متوقد الفكر سريع الخاطر. إذا لم يعرف العلة معرفة تامة لا شبهة فيها فلا يجوز له وصف الدواء. انبذوا على الأقل الأطباء الذين لم يعرفوا بالنباهة وقوة الحافظة. يا حبذا لو تداويتم بالمجربات المأثورة عن آبائكم وأجدادكم، ويا حبذا لو رجعتم إلى الأطباء الخبيرين المجربين إذا كانوا نبيهين وإلا فاجتنبوهم اجتناباً تاماً.

لقد رأيت كثيرين من أطبائكم في هذا الزمان تمكنت من قلوبهم علة الطمع فأمسوا وهم بها معتلون، يتفانون في زيادة ثروتهم لا في شفاء المرضى، يعودون كثيرين في يوم واحد فلا يستطيعون لكثرتهم وضيق أوقاتهم على ما بهم من الأطماع أن يميزوا العلة من سواها، فيخطئون في تعيينها ويصفون العقاقير الضارة المضادة فيزداد المرض إلى أن يذهب المريض قتيل جهلهم.

ما قولك في عليل يتقلّب على فراشه تألماً، فإذا عاده الطبيب طابت نفسه أو كادت واشتد به قلبه وهو لا يعلم ما خبأ له جهله؟ لقد خبأ السم النافع ليقبض به روحه. وما قولك في رجل يعزه العليل ويبجله ويطلعه على خفياته ويجلسه في صدر مجلسه ويدفع له خيرة دنانيره ليفتك به ويهلكه بها.

---

1 ـ الموت الأبيض: الموت فجأة. والموت الأحمر: الموت قتلاً. العدو الأزرق: قيل معناه الخالص العداوة.

إنَّ لهؤلاء الأطباء فوائد نعلمها وتجهلونها وهي أنهم حينما يقتلونكم بجهلهم يخففون عنكم العذاب في الأرض. كل طبيب أمات عليلاً بجهله عُدَّ قاتلاً غير متعمد القتل، لأنه يخرج كثيرين من الأرض قبل نهاية مدتهم فيها وهم غير مبررين ولا صالحين، مع إنَّ الغالب منهم لو لم يخرجوا منها في ذاك الوقت لكفروا عن ذنوبهم وتابوا وعوضوا وعملوا خيراً يفيد كثيرين ويخلصهم. أما الذي يقتله الطبيب وهو أثيم يرسل إلى مدينة التكفير في القمر ولا يرسل إلى زحل ولو كان يستوجب السجن فيه.

حادثة: لقد علمت لما كنت في الأرض أنَّ طبيباً كان يطبب عليلاً اشتدت علته، فقال لابن حمي المريض: إنَّ صهرك يموت بعد ساعات وهو ذو عيال لا معين لهم غيره، فأشير عليك بأن تجعله يطلب من وكيل شركة ضمان الحياة أن يضمنه بخمسمئة ذهب عثماني، وبما أنني طبيب هذه الشركة فأقنع الوكيل بشرط أن يُدفع لنا خمسون ذهباً وبعد هذا أقدم إلى المريض دواء يخفف عنه عذاب الموت فيقبض عياله الخمسمئة المعينة. فلما سمع الرجل منه هذا الكلام وبخه وتركه وبعد أيام شفي العليل فتأملْ.

أقول: أما الآن، وأنتم ترغبون في الحياة الأرضية والتطبب فأرى أن تختار المجالس البلدية الأطباء الأذكياء الخبيرين المجربين، وأن تعين لكل محلة طبيباً أو اثنين بحسب كثرة الأهالي وقلتهم. وتعين معه طبيبين حدثين من الذين ظفروا بالإجازة ليتمرنا مدة معلومة تزيد وتنقص بحسب مهارتهما، وذلك بموجب جرايات يعيشون بها العيش الرغد. فإذا اعتل أحد الأصحاء احضروا له هؤلاء الثلاثة في الحال فيفحصون ويدققون بتروٍ وتأنٍ. فإذا أشكلت عليهم العلة لزمهم أن يعلموا الأمر جمعية الأطباء العمومية ليحضروا ويشخصوا ويصفوا الدواء الذي لا يكون إلا في النباتات.

ويجب على كل الأطباء أن يداووا بالماء البارد والحار وبالهواء النقي، وأن يداووا بالشمس أيضاً فإنَّ في حرارتها ونورها شفاء كالماء والهواء. ويجب عليهم أن لا يغفلوا عن النظافة وأن لا يغفلوا أيضاً عن جمع النباتات النافعة في أوقاتها، وأن يطلبوا إلى المجالس البلدية تعيين صيدليات عمومية يوزع بها العقاقير مجاناً صيادلة مشهود لهم بالمعرفة والاختبار. وهذه المجالس تعين لقاء هذا كله ضريبة خصوصية يدفعها الناس بحسب استطاعتهم، وبعد دفعها ليس عليهم أن يدفعوا شيئاً للأطباء الذين يحظر عليهم قبض درهم واحد أو قبول هدية، إلا أنَّ ذلك كله يجب أن يجري بنزاهة وتدقيق. ومن خالف عوقب من غير أن تقبل شفاعة فيه. فإذا تمَّ هذا كله كفَّ الأطباء عن المداواة بالأدوية التي يستعينون بها على جمع الأموال إجابة إلى دواعي الأطماع،

فتغلق تلك المعامل المهلكة المعدة لاستخراج الأدوية السامة.

وعلى الأطباء أن يتفقدوا الناس ويفصحوا عما يأكلون ويشربون ويتعهدوا المنازل الخصوصية والعمومية، وأخص منها المعامل التي يشتغل فيها الفقراء والبائسون حيث تكثر الأوخام والأقذار، وأن يعتنوا بتنظيفها في كل ساعة حتى لا تنبعث منها الأمراض المعدية المميتة.

وعلى الأطباء أيضاً أن يمنعوا الفاكهة غير الناضجة والبقول والأسماك واللحوم وجميع المآكل والمشارب الضارة منعاً قوياً شديداً.

وعليهم أن يهتموا بالحلاقين وأماكنهم والحمامات والحماميين وأن يضعوا لهم قوانين لا يتعدونها ونصائح واقية وافية. وعليهم أن يسعوا في اختيار العيون الصافية الطيبة المياه وجرها إلى جميع الشوارع والأزقة والمنازل والفنادق العمومية والخصوصية والى كل المحال أيضاً، فإنَّ للماء تأثيراً عظيماً في الأبدان، به العوافي إذا كان زلالاً وإلا فمنه العلل والأسقام. غير أنه لا يجوز أن يشرب إلا من الينابيع المغطاة والمصونة.

وأرى أن تُمنع المسكرات منعاً باتاً ذلك بأن يسقط مدمنها من الحقوق العمومية فلا يُنتخب للمجالس والمحاكم ولا يُوظف. ولا يُؤذن له أن يكون وكيلاً أو وصياً أو ولياً أو كفيلاً أو مستشاراً أو طبيباً أو صيدلياً، ونحو هذا.

أما الفقراء الذين هم عندكم محرومون هذه الحقوق أو بعضها، والذين لا يسألون عنها، فليجتنبهم الناس إلى أن يرعووا. إني لا أريد إلا وقايتهم من العلل، ومن البطالة والسمعة القبيحة اللتين تعودان بالشقاء الدائم عليهم وعلى أنسالهم وذرياتهم وهم لا يعلمون ما هو أقرب إلى الخير وأبعد عن الشر، غير أني لا أشير في هذا كله بالسجن ولا الجزاء النقدي.

وليعلم الناس أنَّ في التبغ والتنبك سماً يضعف الجسم مهما كان قوياً، إلا أنه لا يفنيه سريعاً بل يسري في دمه شيئاً فشيئاً فينحرف مزاجه وهو يجهل السبب إلى أن تظهر العلة. ومن الناس كثيرون يعتقدون أنهما لا تؤثران إلا في الصدور، فإذا كانت صدورهم صحيحة قالوا إنَّ التبغ والتنبك لا يضران، ولكنهم غفلوا فلم يدركوا أنَّ سمهما يتسبب بكل علة، لأنه كما علمت يسري في الدم فيفسده ولو بعد حين، يا أيها الذين يريدون بنفوسهم خيراً أقلوا القهوة إذا كنتم لا تستطيعون تركها.

أما الأكول النهم المستعبد لشهوات بطنه فهو عندي عدو نفسه، أو هو مختل اختل نظام أمره فلا يعقل ولا يدرك نفعه من ضره ولا خيره من شره. فيجب تهذيبه وتعيين

مقدار أكله وشربه ووقتهما. إنَّ أكلة واحدة تودي بحياة آكلها. فإذا لم يمت سريعاً عاش عليلاً، وولد العليل عليل مثل أبيه، فهو يجني على نفسه وعلى أولاده، حتى على زوجته التي ربما لا يكون لها معين غيره، أفلا يجب بعد هذا كله تهذيبه كما يهذب الصغير؟ إنَّ الذي يهذب صغيراً يهذب كبيراً فإذا لم يرد أو لم يستطع أن يتهذب فحجره أولى.

يا أيها الناس إني أكرر القول وأقول: اعلموا وتيقنوا وتأكدوا إنه كلما ازدادت العقاقير المكلسة ازدادت العلل والأمراض والعاهات والمصاعب والمتاعب والهموم والغموم، وإنَّ أكثر العلل تزول بمنع الأسباب التي أحدثتها وهي غير خافية، وإنَّ الذين يتعالجون كثيراً يعيشون سقاماً، وإنَّ الدواء النافع الذي فيه الشفاء: الحمية.

أما علم الجراحة فإنه مفيد فيما خلا الأبطنة غير المعاينة إلى الآن، إلا إنني أرى بعض الجرّاحين يتمادون فيهجمون بآلاتهم على كل علة.

الفصل السابع منه
_ في العفاف _

قال والدي: إذا كففت عمّا لا يحل ولا يجمل بك قولاً وفعلاً فقد عففت. من كف نفسه عن محرم فقد ملكها، ومن ملك نفسه فقد اكتمل، ومن اكتمل فقد تشبّه بالله.

العفة مزية مستمدة من عصمة الله تعالى، تشرفت بها المزايا والخصال. العفة جلباب الظرف تنبعث منه أنوار الصيانة والكمال فيتلألأ لابسه بالعظمة والجلال. العفة طهر النفوس ونقاوة الأجساد فلا خوف عليها من الاعتلال.

من قصرت نفسه على امرأته ومن صانها من غيره فهي له وحده، ومن تغافل عن امرأته فقد أباحها لغيره، ومن غفل عنها بقلة فطنته لمداق الأمور فهو أبله لا تمييز له.

من أحب أن يسر الناس ببهجة زوجته ولو سلمت نيته فلا مروءة له، ومن سره من بعلته التبرج[1] والإيماض[2] فقد هان عليه عرضه.

إنَّ العفيفة لا تظهر للرجال ما خفي من محاسنها بما تتخذه من الشفوف[3] التي

---

1 ـ تبرجت المرأة: أظهرت وجهها. وإذا أبدت المرأة محاسن جيدها ووجهها قيل تبرجت وترى مع ذلك في عينيها حسن نظر. التبرج: إظهار المرأة زينتها ومحاسنها للرجال.

2 ـ أومضت المرأة: سارقت النظر. ويقال: أومضت فلانة بعينها إذا برقت.

3 ـ الشفوف: جمع الشف وهو الثوب الرقيق يرى ما وراءه.

لا تصونها، فإذا أظهرته فقد تصبّتهم. وإنَّ التي لا تتزين لرجلها بل للناس يقال إنها تريد لها خدناً يخادنها، وإنَّ التي تكثر من التأنق يطمح بصرها إلى الرجال ليعجبوا بها ويتسابقوا إليها، وإنَّ التي تتزيا في ملابسها بزي فتيات الهوى المتهتكات يُخشى عليها أن تكون منهن. إنَّ المرأة الحصناء[1] المدركة الحقائق لا تتزين بالحلي الكثير التي هي زينة الصغيرات الضعيفات العقول بل تتزين بالمزايا والفضائل.

كل من خرج من الأرض عفيفاً نقياً رجع إلى الزهرة حيث يبالغ في تعظيمه ويكلله قاضي القضاة، وهذا الإكليل لا ينزع من رأسه وهو من زهرة في الجنة، لا تذبل ولا يتغير لونها بل يزداد لصوفاً[2] ونضارة.

إذا أثم المكلل في الزهرة فلا يرجع إلى الأرض بل يرسل إلى مدينة التكفير، وهذا نادر لأنَّ الأعفّاء الذين يمنعون نفوسهم عن الشهوات أتقياء. والأتقياء لا يأثمون تعمداً منهم بل خطأ وذهولاً.

الفصل الثامن منه

ـ في الاختلاط والمعاشرة بالأرض وفي الرقص ـ

قال والدي: إنَّ سكان الزهرة في عجب عجاب من كثرة اختلاطكم ومعاشرتكم، ومن فرط انغماس بعضكم في بعض انغماساً أفسد قلوبكم ودنّس ضمائركم مع أنكم كنتم تجتنبون الاختلاط، فلم يكن رب الأسرة يسمح بأن يتردد إليه غير أقاربه. أما الآن فقد نبذتم تلك العادة الحميدة. أما الآن فقد نسخ تمدنكم الحديث تلك المأثرة التي تعد بمآثر كثيرة. أما اليوم فقد أمسى كثيرون من الرجال يسعون وراء الشبان ذوي الجهورة[3] ليجمعوهم ببناتهم فيلاطفونهن ويلاطفنهم، فيا للمصيبة ويا للبلاء! والبلاء الأعظم أنَّ الرجل الذي لم ينقد إلى هذا التمدن الحديث يُحسب في هذا الزمان متوحشاً، أو يقولون عنه: هذا الرجل خشن قديم العقل غير متمدن، وهذا عجب،

1 ـ الحصناء: العفيفة.

2 ـ لصف اللون لصفاً ولصوفاً: برق وتلألأ.

3 ـ الجهورة: حسن القد والخد.

وأعجب منه أنَّ الشاب في هذه الأيام إذا زار حبيبته أزوى[1] أو خنره صديقه. لقد صار كثيرون منكم رجالاً ذوي عيال فهل حمدتم تمدنكم؟ لماذا يعظ بعضكم أولادهم ويأمرونهم باجتنابه. لماذا يخاف كثير منكم على زوجاتهم وبناتهم ويأمرونهن بالتحذر من غوائله ويعدونه ضربة شديدة عليهم؟ «أجيبوني». إذا استحيتم من الجواب أو إذا جاوبتم ولم تصرحوا فأجاوب عنكم، إننا لا نسمح بأن يتمدن الشبان في بيوتنا كما تمدنا في بيوت غيرنا، وإننا لا نريد لبناتنا وفتياتنا ما كنا أردناه لنفوسنا أيام صبوتنا وشبابنا.

ألا يا أيها الغافلون الذين غبي عليهم خيرهم لا تظنوا أنكم إذا عرضتم بضاعاتكم هذه على المتفرجين روجتموها، صونوا فتياتكم من ذلك الاختلاط والاجتماع ليرغب الشبان فيهن ويتسابقوا إليهن.

لا نصيب للمرأة من الراحة والرفاهة إذا تعود رجلها الاختلاط، ولا نصيب له من الصيانة إذا اعتادت زوجته كثرة الاجتماع، فلماذا تجنون على نفوسكم وعلى أبنائكم ونسائكم؟

لا يحسب الرجل أنَّ الشاب يحبه لإنسانيته أو فصاحته أو براعته أو كرمه أو وجاهته. إنَّ الشاب لا يحب في الغالب هذه المزايا، وإنما يحب تلك اللائذة بخدرها المستمسكة بعفافها عسى أن يغريها. لا يقل الرجل إنَّ لي ذات خدر قاصرة الطرف من أسرة عرفت بالتقوى والصيانة، أحبها وتحبني. ليعلم فوق علمه أنَّ الإنسان خلق على الحب وأنه يحب أن يكون محباً ومحبوباً، وأنَّ الحب إذا غلب عمي صاحبه وعمه فلا يبصر ما بين يديه ولا يقدر العواقب.

لا شيء يضر الفتيان والفتيات مثل الاجتماعات العمومية وليالي الأفراح في هذا الزمان الذي أصيب بالتمدن الفرنجي الحديث. ألا ترى النواهد والعواتق يتزيّن ويتحسن وهن متمتعات بالحرية أتم تمتع، ذلك لأنهن إذا دخلن المجتمع سقط عنهن حكم الآباء بحكم هذا التمدن، فيتبارى الشبان والشابات بميدان الرقة والرشاقة، ويتجارون بالمعاني المؤولة المموهة فيفهمون بها ثم يستعينون بجوانب العيون فلا ترى بعد هذا غير الدنو والتقرب بفعل الجاذبية، إلى أن يشاهد كل اثنين في حكاية (أي كل فتى وفتاة) فيعتركان بالإشارات وحركات البدن المتنوعة، حتى إذا انضغط

1 ـ اختز فلاناً: أتاه وهو بين جماعة فأخذه منها.

الجسم بقوة الميل والعواطف أورى ولمعت شرارة الهوى المعترض[1] والعارض بالتصنع، لأنَّ الحب السريع الذي لم يكن ناشئاً من مصدره الطبيعي بقوة التمازج الاختياري الخالي من التصنع والتشبه لا يثبت بل يزول.

أقول: فيفترق المعتركان وقد تعاقدا وتعاهدا على التزوج، فيعترض الأبوان لهما إذا لم يريا بينهما نسبة كما يقولون أو كما يزعمون، أو يعترض والد أحدهما فإما أن يعصيا ويعيشا غالباً عيشةً شقيةً باقترانهما، وإما أن يؤثر فيهما أو أحدهما النصح فيقع الانفصال ويلتعنان. وهذان يهون عليهما فيما بعد أن يعاهدا غيرهما وينقضا عهدهما مراراً، فيكونان قد تعودا الخيانة والمكر والغدر والإخلاف بطيشهما وقلة ترويهما الناتجين عن سرعة الاختلاط.

فإذا كان الوالدان لا يريان ما يمنعهما عن التزوج بحسب الظاهرة، وهما لم يملا نفسيهما، واقترنا حالاً فلا يجدان في قلبهما الارتياح واللذة اللذين وجداهما في الاجتماع الأول، لأنَّ حبهما كان مؤسساً على التصنع والطيش هائجاً ومدفوعاً بفعل الخمور التي كانت كؤوسها تدار عليهما في تلك الليلة.

على أنه إذا كان الاثنان في منزلة واحدة من الرصانة والرزانة، وإذا كانا متقاربين في طبعهما غير متنافرين، وإذا كانا لا يستعينان بالتصنع والتشبه والإضمار، أي إخفاء الفتى شراسته وخلقه الذي لا يوافق في أمر ويخالف ذوق الفتاة، فيكون الحب بينهما محمود العواقب ويكون اقترانهما قريباً من السعادة. أما المتصنع المضمر فأراه غادراً ماكراً محتالاً حتى على نفسه وليس على قرينته فقط، بل أراه قليل العقل ضعيفه لا يعرف خيره من شره وإلا ما سعى برجله إلى العذاب، لأنه لو كان من العقلاء لأدرك أنَّ فلانة لا تصلح له لما بينهما من التخالف في الطباع والأهواء.

قال: لنرجع إلى حديث ذاك المجتمع، فأقول: لقد سرتْ إليكم علل كثيرة من إقبالكم على التمدن الفرنجي، وتمكنت من أبدانكم حتى أزمنت، وامتنع عليكم شفاؤها منها: الرقص الذي يسميه بعضكم بالمخاصرة، فاسمع يا ولدي: يدخل الشاب المتعنفص[2] المرقص وهو نزق طائش يتكلف الخفة والرشاقة، زائغ البصر ينظر إلى

1 ـ المعترض من الهوى: هو الذي يقع من أول وهلة فيسبي القلب في دفعة واحدة إلا أنَّ تركه سريع كما أنَّ أخذه سريع.

2 ـ تعنفص: ادعى بما ليس فيه وكان ذا صلف وخفة وخيلاء وزهو.

الجهات الأربع. يكاد لهوسه[1] يعثر فيسقط لأنه يرقص في مشيته على الأنغام، فيسلم على الجلاس ذلك بأن يحني رأسه وينصف طرفه ويجزم بقلبه على حب غادة في الحال اختارها من الكواعب والنواهد وهو داخل. إلا أنه قبل جلوسه يختار غيرها فتنعقد عندها آماله، فإذا جلس ثم أدار طرفه وتأمل، ندم على ما فرط منه من التعجيل في الاختيار وحار في أمره، وصار لا يعرف أية الأوانس يهوى وهو غافل عنهن غير مبصر في أيديهن أقواس الهوى وقد أوترنها فيرمينه بسهامهن في وقت، واحد فتتكسر النصال على النصال، فيمسي صريع كل الغواني وأسير جميع الخرائد والعواتق، فيضل ولا يعرف بأيتهن هو هائم. وأخيراً يقوم وهو لا يعي شيئاً ولا يبصر ما بين يديه فيقع على واحدة منهن، فيستمسك بيدها في الأول حالاً لئلا يسبقه إليها مزاحمه الذي هو في شاكلته، ثم يخفض رأسه لها وهي الإشارة المعرفة عند الفرنجة في طلب الرقص، فتبتسم له وتعتذر إليه وهي تتلوى وتنعطف في تغنج خفي وشكل لطيف، تخالفه وما بها خلاف، فيخفق قلبه وتبرد أطرافه فتشعر ببرودته وهو قابض على يدها بيديه الراجفتين، فتقوي نفسها وتتجلد وتثبت أمامه قائلة في قلبها: تشجعي تفوزي (أما هو فلا يشعر بخفقان قلبها ولا ينتبه إلى يدها الباردة لأنه أفرط في البرودة فكانت برودتها المعتدلة حرارة بالقياس إليه) وتعتمد على منزلتها عنده بدلالها عليه فيمر على هذا نحو عشر دقائق وهما في مد وجزر، إلى أن يضطرب من ضجره فيجذبها إليه جذبة قوية تكاد ترض بها عظام صدره فيخاصرها[2] أولاً ثم يلف يده في خصرها، ويقومان ويقعدان ويرتفعان وينخفضان ويقفزان ويعثران ويدوسان رجليهما وأنت في طرفة عين تتوقع سقوطهما، فتتعب الناهد وقد أثر فيها ضغط الشاب، فترمي بنفسها إلى المقعد لتستريح، فيسارع إليها فتى آخر ووراءه اثنان أو ثلاثة مثله ويلتمس منها الرقص فلا تقوى على الكلام ولسان حالها يقول: ألا تبصر يا هذا كيف يرتفع صدري وينخفض من شدة الإعياء؟ وهنا تهجم عليها العواتق ويقلن لها: انظري أذيالك وقد تمزقت، فتشتغل بها عنه ويشتعل قلبها تأسفاً على ثوبها الذي لم تحصل عليه إلا بعد ألف حيلة كما تقولون، فيقول الفتى: ليس من العادة أن تمتعي غيري برقصك الذي سلب عقلي أنا الذي أحاسن بك الناس، فتهم بالكلام فلا تستطيع

---

1 ـ الهوس: طرف من الجنون وخفة العقل.

2 ـ خاصرها: أخذ بيدها في المشي.

لأنَّ خفقان قلبها يمنعها منه، وهو لم يصدر عن الرقص فقط بل عن تمزق ثوبها الضيق الذي كاد يخنقها مشده، فتتجلد وتدخل معه في حديث طويل ممل مآله أنَّ المشد لا يضرها ولا يتعبها، وبعد انتهاء حديثها تشدد عزيمتها وتنهض للرقص فترقص هنيهة ثم تقعد وفي الغالب تهرب وتتوارى في إحدى الحجر.

بعد أن يستريح الراقصون زهاء ربع ساعة أو أقل يعودون إلى ما كانوا عليه، أو أنهم لا يستروحون[1] بالرقص العربي الحديث وهو وإن يكن مهذباً بالقياس إلى غيره إلا أنه لا يخلو من أسباب التهييج فيجب تركه، وبعد استرواحهم به يرجعون إلى المخاصرة وهكذا تنتهي الليلة.

على أنه لما كان الناس بالرقص مولعين حتى إنه أمسى عادةً لا يهون تركها عليهم، رأيت أن يعودوا إلى الرقص العربي القديم، ألا وهو الرقص المعروف بالسماح بشرط أن تكون أغانيه مهذبة لا تهيج بلابل الشبان والشابات، فيطرب طرباً نقياً تكون معه رياضة للبدن فيتقوّى ولله در آبائكم ما كان أعقلهم فقد كانوا لا يطربون بغير رقص السماح، فليتكم تشبهتم بهم.

الفصل التاسع منه
ـ في الأزياء وأضرارها وفي النسائج ـ

قال والدي: لو تشبه سكان الأرض بسكان الزهرة واقتدوا بهم في المأكل والمشرب والملبس لخفّتْ ويلاتهم. انظروا الفرق بيننا وبينكم أنَّ المرأة عندنا غنية أو غير غنية لا تجد لديها غير ثوبين، تلبس الواحد وتترك الآخر لتلبسه يوم الغسل، وهما من الكتان الأزرق النقي الزرقة، ولذلك لا نشكو لأننا متجملون بالقناعة.

أما أنتم فتقولون لقد كنا سعداء فأمسينا تعساء. كنا نشتغل قليلاً فنجمع ما يكفينا ويزيد ولكننا اليوم قضي علينا بأن نعذَّب العذاب الشديد، فإننا نكد ونكدح ليلاً ونهاراً حتى انتحلت أبداننا وشبنا قبل المشيب، فلا نجمع ما نستعين به على نفقتنا. فإذا سألناهم عن السبب، أجابوا زيادة الخرج على الدخل. فإذا قلت لهم كيف هذا؟ قالوا كنا نربح عشرة فنصرف منها ستة أو سبعة، أما اليوم فإننا نربح

1 ـ استروح: بمعنى استراح.

مئة فلا تكفينا. فإذا قلت لهم ولماذا؟ قالوا لقد أصبنا بالأزياء الأوروبية. لقد تداركتنا فرنسا أولاً التي تحبنا ورحمتنا بأن قدمت مصنوعاتها إلينا على ما بها من العيوب. أحبتنا فروجت علينا سلعها ثم تبعتها غيرها وغيرها حتى استنزفت ثروتنا. فإذا قلت لهم أراكم عرفتم العلة فكيف لا تداوونها؟ قالوا نحشى أن يغضب علينا نساؤنا. فإذا قلت ما الذي يحبب نسّاج الفرنجة إلى نسائكم؟ قالوا رقتها ولطافتها ونحن لا نستطيع الآن أن نرفقها ونلطفها، فإننا نحتاج إلى أشياء كثيرة صعبة المنال. فإذا قلت وما تبتغي نساؤكم من رقتها ولطافتها؟ قالوا التزين والتبرج فيحسن في عيوننا. فإذا قلت هل كن قبل هذه الأزياء أقل حسناً من الآن؟ قالوا لا فإنَّ الحسناء تمتاز بحسنها والعاقلة بعقلها والفصيحة بفصاحتها في كل وقت وبكل زي.

يا أيها الرجال إنكم تجارون النساء وتوافقونهن في اختيار الأزياء الفرنجية وترغبونهن فيها، لأنكم تمدحون لطافتها أمامهن كأنكم تحبونها أكثر من أن تحبها أزواجكم.

إنكم لتحبونها وتحبون معها تلك المشارب والمآكل التي لا يسعكم أن تحصلوا عليها إلا ببذل ما هو أعظم من وسعكم. فإنْ عوتبتم نسبتم الحمق والنشوز إلى نسائكم.

اتركوا عنكم هذه الأعذار واقتدوا بالعثمانيين حكامكم الذين يزينون منازلهم وعقيلاتهم بنسائجكم وأنتم تكرهونها وتتبرأون منها مع أنكم أولى بها من سواكم.

يا هذا كيف تشوق الناس وترغبهم فيما تصنعه لهم وتصفه أحسن وصف وتؤكد وتحلف، وأنت تمقته وتجتنبه في الفرش واللبس ولا تريد أن تبصره في غرفتك ولا أن تمسه زوجتك؟ أليس من الحكمة أن تسعى في ترويجه بنفسك وبامرأتك وبناتك؟ إذا كانت قرينتك حسناء ولبسته راق في عيون جاراتها فأقبلن عليه فيزداد ربحك من جهتين. الأولى اعتياضك عن نسائج أوروبا السخيفة الغالية بما تصنعه أنت وتنسجه، والثانية ترويجك سلعك وبضاعاتك.

عد من جهلك يا هذا، إنَّ الأمة التي لا تقوم بحاجاتها هي قاصرة وعاجزة، والأمة التي تقدر على القيام بما تحتاج إليه فلا تقوم به بل تقصر يدها عنه وتمدها إلى أمة غيرها، هي جاهلة غلبها جهلها وحمقها فلا نصيب لها من العزة والمروءة ومن العمران والارتقاء في معارج الفلاح، فتموت بجهلها وحمقها، من غير أن تتدارك برأفة رحمة، فإنَّ انقراضها وتلاشيها خير لها من نموها على هذه الحالة الدنيئة القبيحة، وذلك لكي

لا تجني على أبنائها الذي ينشأون على جهلها وحمقها، وإلا فهل سُمع بأمة اشتهرت بإتقان النسائج مثلاً التي هي سبب حياتها، فتركت استعمالها بنفسها واستعملت مصنوعات أمة غيرها ترويجاً لها بيدها، ففرشتها ولبستها وكرهت مصنوعاتها لأنها أقل لطافة من تلك، وهي تلوم الزمان وتذم الأيام والليالي التي جعلت سلعها بائرة وليس من يسأل عنها؟

أي جهل أفظع من هذا الجهل وهذا الحمق والجنون! إنَّ هذه الأمة لا تستحق الرحمة إلا من وجه واحد وهو الجنون لأنها لا تدري ما تعمل.

إنني لا أنصحكم ولا أحضكم وأحذركم، فقد انتبهت الآن وعلمت أنَّ الله تعالى عكس عقولكم عقاباً لكم، ولذلك لا تستطيعون الانفكاك عن جهلكم وضلالكم فإنكم صرتم إلى حالة لا تميزون بها خيركم من شركم.

ليرحمكم الله، لينظر إليكم أنتم الذين تجرون على نفوسكم بأيديكم. أنتم في نظري بحكم الأموات، مثل الجماد الذي تكلمه فلا يشعر، مثل الجبل الراسخ فلا يتحرك، وإلا قلت لكم انتبهوا وتيقظوا وافهموا ما أقول. أقول شرفوا مصنوعاتكم بنفوسكم وروجوها عليكم أولاً، وجدّوا في تحسينها وترقيتها لكي يقبل الناس عليها فتربحوا أكثر مما تنفقون، وهذا هو العيش الهنيء الرغد، لا تهملوها ولا تزهدوا فيها فإنَّ الإهمال يزيلها مع أنكم لا تجدون بين أيديكم حرفة أخرى تضاهيها.

هذه هي الحرفة التي حسدكم عليها الأوروبيون فكدوا وجدّوا أعواماً في سبيلها حتى أخذوها عنكم، وقد كانوا يلجأون بها إليكم فاستغنوا بها وقد كانوا فقراء.

اليوم أنتم وسكان أوروبا في حرب فجاهدوا في سبيل أموالكم ولا ترجعوا القَهقَرى. استغنوا عنهم ولا تلجأوا إليهم فإنهم بذلك أعداء لكم. أليس من الذل أن تقعوا بين أيديهم؟ جدّوا ومارسوا وزاولوا فتتسع دوائر عقولكم فتخترعون كما اخترعوا وتثرون كما أثروا. ولا تقولوا سبقونا بمراحل، لقد كنتم السابقين فأدركوكم فتعلموا منهم وخذوا عنهم. تعلموا كيف أدركوكم وبأية وسيلة صاروا أمامكم. هم بشر مثلكم فكيف يهولكم سبقهم؟ جدوا وثابروا وأثبتوا ترتقوا ويعد إليكم مجد آبائكم وأجدادكم.

هذا ومن المقرر أنَّ تلك المآكل والمشارب والملابس ليست تضيّع الأموال والثروات فقط بل تضر الأبدان، فإنَّ منها ما لا يوافقكم أكله وشربه فيحدث فيكم عللاً وأمراضاً ما عرفتموها. ومنها ما لا يناسب ولا يوافق لبسه فيضعفكم. ولا يخف عليكم أنَّ في

بعض الألوان ما هو سام، ولا تنسوا أنَّ كثيراً منها معدٍ فتتعادون.

اتقوا الله تعالى وارحموا أبدانكم وأموالكم، ولا تجعلوا نفوسكم عبيداً لشهواتكم، ولا تكدوا لتقدموا إلى غيركم ثمرات أتعابكم وتشتروا بها التعاسة والشقاء لكم ولنسائكم ولأولادكم، إنكم لفي ضلال مبين.

الفصل العاشر منه
ـ في البائنة (الدوتا) والفتيات ـ

قال والدي: إنَّ سكان الزهرة يرثون لأحوالكم لأنكم تشترون العذاب بأموالكم وأتعابكم، ولأنكم اتبعتم الأزياء فصرفتم عليها كل مرتخص وغالٍ لديكم. فلما كنتم على ما وصفت في الفصل السابق من ازدياد النفقات أكثر من احتمالكم، أحجم الشبان عن التزوج إلا إذا كانت ثروة الشاب تساعده على الإنفاق (ومثل هذا قليل) حسبما تقتضي الأزياء والدواعي الحديثة المنسوبة إلى التمدن العصري، كالأشياء الإضافية التي يعدونها من لوازم الأثاث ومتاع البيت وهي عبارة عن أوانٍ بلورية وخزفية وخشبية ونحاسية وفضية وذهبية لا ضرورة لها، بل كلها زوائد كأنها عملت لتوليد الأمراض المعدية، هذا عدا كثير من الرياش[1] والعروض[2] المحدثة التي إذا نظرتَ إليها ولم تمسك بنفسك طارت أو كادت تطير، وكذلك الحلي المرصعة بالمعادن البارقة المسماة عندكم بالجواهر الكريمة، فإنك إذا لمستها وقلبتها تجزأت وتبددت. فلما رأى المثرون من الآباء هذه الحالة خافوا على بناتهم العنوس والامتهان مما يضر بأبدانهن وشرفهن، فاضطروا إلى دفع مبلغ يستعين به الشاب على الإنفاق في المهر ومعدات الزفاف، فيقدم إلى المخطوبة عقداً أو تاجاً من تلك الحلي التي أتيت على وصفها، وذلك عوضاً عن القلادة الذهبية المنظومة من الذهب العتيق المضروب وعن السوار والقرطين اللذين هما من الإبريز الخالص. هذه الحلي التي إذا اضطر إلى

1 ـ الرياش: جمع ريش وهو اللباس الفاخر.

2 ـ العروض: الأمتعة التي لا يدخلها كيل ولا وزن ولا يكون حيواناً ولا عقاراً. قيل والمراد به في باب النفقة المنقول.

قيمتها العروسان فيما بعد أو لم يضطرا فهي معدودة من الدنانير المروزة[1] والدراهم النقود بخلاف تلك المرصعات التي هي عندي كالزائف والبهرج والسُّتُّوق[2]، فإنك إذا اشتريت مرصعة منها بمئة دينار مثلاً وبعتها بعد أسبوع أضعت ربع قيمتها أو أكثر.

ومن الشبان من يقدم من هذه الحلي ما هو أكثر من استطاعته طلباً للأبهة والاشتهار بالعظمة، فيبيعها قبل انقضاء أيام العرس ويدفع قيمتها إلى الدائنين الواقفين له في طريقه، فينكسر قلب عروسه ويعتريها الهم والغم وهي لم تزل في ليالي عرسها وأيام أفراحها، فإذا سألها والدها عن سبب نحولها كتمت الأمر لئلا يوبخها على اختيارها رجلها، فتحمل الوالدة هم بنتها وبداخلها من الكرب والحزن ما يقلقها ويقلق أقاربها ومعارفها فيكون الأب اشترى العذاب لنفسه، ولن يلوذ به بتلك البائنة التي لم تكن ثروته تسمح له بدفعها.

ولما كانت هذه البائنة أمست شائعة بين المسيحيين لا يستغنى عنها، اضطر الرجل أحياناً إلى إعطاء ما هو أكثر من اقتداره ليخفي على الناس حالته ويحافظ على سمعته المالية وشرفه، وأنت تعلم ما في ذلك من الضرر الآجل والعاجل ورُبَّ بائنة تسببت بإفلاس.

ولقد رأيت كثيرين من الشبان تقاعدوا عن التزوج رعاية لأخواتهم القائمات بين أيديهم، وذلك لأمرين الأول لأنَّ الشاب لا يستطيع أن ينفق لو تزوج على عياله الخصوصيين وعلى شقيقاته اللواتي غدون بعد والده عيالاً عليه وصرن له الهم الأعظم (لأنَّ الناس لا يرغبون في صهر عنده معاصر[3] وعوانس لا يخرجن من بيته) فيجود عليهن بالدرهم الوضاح ليصرفنه على الأزياء عسى أن يرشد الله تعالى طريقهن. والأمر الثاني لأنه لا يريد أن يكدرهن بتزوجه، فإنَّ لهن حقوقاً إذا سكتن عنها تأدباً وصيانة تعلقت بها جوارحهن، وهذه الفعلة أعدها مأثرة لذلك الشاب الهمام الصالح.

أقول: فلما علم الشبان من التجارب أنهم لا يستطيعون الاقتران لكثرة النفقات أخذوا يتزينون كالنساء ويتظاهرون بخلاف حقيقة أحوالهم الأدبية والمادية معاً،

---

1 ـ المروزة من رازه إذا جربه واختبره وامتحنه.

2 ـ الدرهم البَهْرج الذي فضته رديئة. والسُّتُّوق من الدراهم: الزيَّف البهرج الذي لا قيمة له.

3 ـ المعاصر: جمع معصر وهي من النساء ذات الإعصار أي التي بلغت شبابها. قال الكسائي: العانس فوق المعصر والجمع عوانس وعنوس. وعنس بضم العين وسكون النون. وعنس بفتح النون وتشديدها.

وذلك لكي يحلوا في عيون الفتيات، فَيُكْرِهن الآباء بواسطة الأمهات على دفع البائنات، فتدخل الفتاة بين جماعة تباين جماعتها في العادات والأخلاق، لأنها اضطرت إلى تزوج من لم تكن فيه كفاءة لها منقادة له بحكم ذلك الاضطرار ومغترة بظواهر الزواج أيضاً فيتخالفان في الغالب، فإما أن تصبر الزوجة كرهاً عنها، وإما أن تعرض نفسها للإهانة وفي كلا الأمرين غم للجماعتين وكآبة.

وأقول أيضاً: لما كان دخل الشبان أقل من خرجهم أحجموا عن الاقتران، عسى أن تنفتح لهم أبواب الفرج فيمضي الزمان عليهم وهم لا يزدادون إلا تأخراً، فيرسلون العجائز والدلاّلات في طلب البائنات، فاللواتي بائناتهن أكثر من غيرها يتزوجن قبل سواهن. فأمسى الفتى اليوم ينظر إلى البائنة ولا ينظر إلى الأدب وحسن الخلق والبنية والظرف. وقد علمت أنَّ كثيرين يتزوجون على غير رغبة منهم ومن غير أن تكون في قلوبهم محبة للزوجات فيرتاحون بعد ذلك إلى غيرهن ممن يحبونهن فيدخل النزاع والفساد في الأسر.

وهنا أمر يجب الاهتمام به، وهو أنَّ الجماعات التي اشتهرت بالحسن فُقد منها، لأنَّ الفتى الحسن الذي كان قبلاً لا يقترن إلا بحسناء مثله أمسى في هذا الزمان ولده الذي هو أحسن منه مضطراً إلى حرمان نفسه غادة يصبو إليها لأنها ليست بذات بائنة.

والأسر التي كانت معروفة بالبنية القوية حرمتها بدخول الضعيفات بينها ببائناتهن. والتي كانت موصوفة بالذكاء أضاعته أيضاً وقس على هذا غيره.

وقد أبصرت كثيرين تزوجوا فتيات عليلات خفيفات العقول، فملأوا بيوتهم مرضى ومجانين من الذكور ومن الإناث اللاتي ليست لهن بائنات فكانت المصيبة عظمى. ولكن من يقدر المصاب ويحترز منه قبل الوقوع فيه؟ على أنَّ آباء هذه الإناث أدركوا بعد ذلك أنهم وقعوا في شر مما كانوا يخشون من زيادة الدخل على الخرج، لأنهم لو كانوا تزوجوا غادات عاقلات ممن ليست لهن بائنات وعاشوا قانعين باليسير من دنياهم، لأتت البنات مثلهم ومثل نسائهم فيجدون لهن رجالاً مثلهن غير مثرين، فإذا لم يجدوا تخلصن من المرض والجنون وفي ذلك ربح عظيم لهن ولهم.

وأقول: لا ريب أنَّ الفتاة المطمئنة ببائنتها لا تهتم إلا بالتزين والتصنع والتشبه لتظفر بأحسن شاب في مدينتها على زعمها، فلا تسأل عن التأدب والتهذب ولا عن واجباتها التي أهمها معرفة تدبير المنزل. فإذا تزوجت فلا تمس شيئاً بأصبعها. فإذا

عوتبت قالت مثلاً: أنا سيدة ولست بخادمة، وقد أجدت[1] بعلي ألف دينار فليدفع أجر الخدم. وهذا كلام مرّ المذاق يصدع القلوب فيقع الخلاف والشر والفساد في الأسرتين. هذا ومن المعلوم أنَّ الجارية إذا عنست لم تسلم من علة تنجم عنها في الغالب حالة عصبية تنتابها. بقي علي أن آتي على وصف الفتيات اللواتي لا بائنات لهن. فأقول: إنهن تأملن حالاتهن وقلوبهن منكسرة لا جابر لها فرأين الأولى بهن أن يعتمدن على التعلم والتهذب، فترى منهن غواني حكيمات امتزن بالعفاف والجمال معاً وبكل ما يطلب منهن، فالواحدة هي الطباخة إذا تزوجت والخياطة والخادمة والمشيرة والمواسية، وهي الأمينة المتفانية في حب قومها والمجتهدة في تنجيحهم والمشاركة رجلها في غمه، والمخففة عنه مصائب دنياه بطلاقتها وعذوبة بيانها ونباهتها، والفاتحة أبواب الاقتصاد التي لا يهتدي إليها الرجل، والمشجعة له بثباتها ورسوخها. وترى منهن من هن أعقل من رجالهن فيرشدنهم بحكمتهن وسداد آرائهن إلى سبيل الفلاح والعمران، ونحو هذا من المحامد والمحاسن التي تجعل أزواجهن وعيالهن في نعيم أرضي أي في راحة ودعة. ولكن أين الشبان الذين يقدرون قدرهن؟ إنك لا تجد منهم إذا فتشت إلا عدداً قليلاً لا يذكر لقلته.

إن الله تعالى إذا حكم في الزهرة على رجل وامرأة بأن يفقرا في الأرض، ورأى منهما صلاحاً أو من أحدهما، أراحهما وربما أراح أيضاً أقاربهما المحكوم عليهم بالفقر إذا لم يكونوا أشراراً.

لقد علمتم يا أيها الشبان أنَّ البائنات كثيراً ما كانت وبالاً عليكم، لأنها أذهبت شيئاً مذكوراً من محاسنكم ومحامدكم التي كنتم تفاخرون بها وتنافسون فيها المفاخرين والمنافسين. ولأنها أزالت عاداتكم ومزاياكم الكريمة الموروثة عن آبائكم الذين أضاعوا النفوس والنفائس في إثباتها وتعميمها.

ليعش كل منكم بقدر ما تسمح له ثروته، وليختر له فتاة كريمة الأخلاق جامعة الشروط المطلوبة للمرأة الصالحة الفاضلة. لتكن مناسبة له. لا يزعم أنَّ شرف الرجل يأتيه بتزوجه امرأة من قوم أعلى وأكرم من قومه. إنَّ من يبتغي شرفه من زوجته يعترف لنفسه بالخسة. ليطلب الشرف بجده إذا كان يعلم ما هو، وإلا فليسأل عن تعريفه، وليطلبه بحسن سعيه وبصالح أعماله وبالفضيلة والقناعة والكرم، ليطلبه

---

1 ـ أجاده درهماً: أعطاه إياه. وأجاده النقد: أعطاه نقوداً جياداً.

بالمحبة أيضاً. وبهذا القدر كفاية لمن يسأل عن الشرف.

إذا أردتم يا أيها الشبان أن يكون أولادكم رجالاً مهذبين كرام الطباع صالحين، فاطلبوهم من الفتيات الصالحات اللواتي ذكرتهن ووصفتهن، وفي هذا الطلب إصلاح العيال والوطن وفيه العيش الهنيء الطيب من غير كد مضر وكدح مضنٍ. إنَّ المرأة الصالحة هي الحياة الطيبة والزكاة وهي الغبطة والطوبى والحسنى والنعمى والسعادة الأرضية كلها.

الفصل الحادي عشر منه
_ في التمويه والطلاء والخضاب _

قال والدي: إنَّ نساء الزهرة لا يعرفن التمويه[1] والطلاء، ولا يعلمن ما الخضاب والكحل ولا يدركن لهذه الأشياء محسنات. إلا أنهن يموهن عقولهن بالعلوم والمعارف والفنون وتهذيب الأولاد وتثقيفهم، ويطلين قلوبهن بالمحبة والصدق والعفة والتواضع، ويخضبن أيديهن ويحجلن بنانهن[2] ويغتمسن[3] بالخياطة والطبخ وترتيب البنين والمنازل، ويكحلن عيونهن بردها عن المناظر المنهي عنها، فيا لسعادتنا ويا لتعاستكم!

وقال: لما أخذ الشعب الأوروبي يمجد ويعظم ويشتهر بمحاسن مصنوعاته ولطافتها (وقد راق تمدنه الحديث كثيرين لديكم) راجت في بلادكم رواجاً عظيماً وخصوصاً النسائج النسائية منها، فأقبلت النساء عليها يتبعن كل زي في وقته، وهن لم ينظرن إلى مستقبل رجالهن، مغترات بما كانوا كسبوا حينما احترب الأميركيون سنة 1861 وبما جمعوا بحرب القرم سنة 1854، زاعمات أنَّ تلك المكاسب تدوم لهم، فلما وضعت الحربان أوزارها ووضع رجالهن في تجاراتهم[4] من هبوط أثمان القطن وسائر البضائع، وانقطعت عنهم موارد الأرزاق الكثيرة وقد تعودوا النفقات الحديثة، أدركن وأدرك الرجال أنهم كانوا جميعاً على ضلال. فرأوا أنْ يحجموا فأجمعوا على أنَّ الإحجام عيب

1 ـ مأخوذ من تمويه النحاس أو الحديد إذا طلاه بفضة أو ذهب. والطلاء كل ما يطلى به.

2 ـ حجلت المرأة بنانها: لونت خضابه.

3 ـ اغتمست المرأة: غمست يدها خضاباً مستوياً من غير تصوير.

4 ـ وضع في تجارته: خسر ولم يربح.

وعار، فأقدموا وكابروا في الإقدام حتى تعبوا وأعيوا وكلّوا وملّوا، وبعد ذلك هموا بالإحجام فسقطوا وانقطعوا عن المسير أو عن السرى في كل ليلة مظلمة فانظر ترهم في الطريق يسكعون[1].

ومن البضائع الحديثة الأوروبية التي كان لها النصيب الأعظم والسهم الأوفر من الرواج هي الطلاء المعروف عندهم بحسن يوسف وسائر أنواعه، مع أنَّ أجدادكم كانوا جهدوا في ملاشاته وكف المضرات بإزالته، فأعاده التمدن الحديث ولكنه لم يعده كما كان في قديم الزمان، بل أضاف إليه مواداً سامة تفننت وتنوعت في الأضرار، حتى كان تأثيرها سريعاً فسلبت ماء الوجه النقي الشفاف الرائق، فخشنت بشرته وجفت وتقلصت بعد نعومته الطبيعية ونضارته ورقته، فأمسى الناظر إليه وهو بغير طلي يظن أنه يبصر وجه ميتة لا حياة فيها، فكان الطلاء جناية عظيمة عليه. هذا كله عدا العلل والأمراض التي تحدث فيه عيوباً تنتقل من الأمهات إلى أولادهن.

أقول: وقد علقن بحسن يوسف وأضرابه وشغفن وافتتن حتى صرن في جنون مما في قلوبهن منه، ومن المعلوم أنَّ الإنسان إذا أفرط في شيء وجن به لا يرى عيبه، ولذلك جعلن فوق وجوههن وجوهاً أخرى من الجص، وخفين وجوههن الطبيعية عن الناظرين، كأنهن يعتقدن قبحها وشناعتها فلم يبرزنها خجلاً واستحياء مع أنها ليست كما يزعمن.

يا ليتهن أدركن أنهن أردن التحسين وبالغن في طلبه فصار بهن إلى ضده. ألا ترى أنَّ الناظر إلى بنت الثلاثين يظنها أربعينية؟

إلا أنني لا أنكر أنَّ بعضهن برعن في الطلي فحسنت وجوههن في عيون الأغرار، ولكن هذا الحسن سريع الزوال وسيعلمن ماذا يكون منه. ومن الأمور المستغربة أنَّ الشبان يعلمون أن التمويه مضر ويقولون بقبحه، ويعقلون أنَّ الفتيات يغششنهم ويخدعنهم ويستجهلنهم وهم لا يبالون، ولا عجب في ذلك لأنهم يقترنون بالبائنة لا بالفتاة. ومن المدهش أنَّ الرجل يرى لبنته وجهين أي إنه يبصر وجهاً للناس مزيناً ووجها آخر له، وفي كليهما فرق ظاهر فلو أمكن أن يرى الوجهين في وقت واحد لحار. فأنصح الأمهات أن يمنعن بناتهن، لأنهن إذا موّهن ولو أياماً فلا يستطعن بعدها ترك التمويه لسرعة تأثيره في بعض الفتيات أكثر من غيرهن، فيتكلح الوجه ويكمد

1 ـ سكع: مشى مشياً متعسفاً لا يدري أين يأخذ في بلاد الله وتحيّر.

ويتشنج، فيفضلن إذا تركن الطلاء العود إليه وهن كارهات له لأضراره، وكل مضر مكروه.

على أنني أمدح العقيلات العاقلات والفتيات المهذبات اللواتي يتزين بالآداب والفضائل وترتيب المنازل على فنون صحية، وأتمنى لهن الثبات بل أرجو أن يكثرن من زينتهن هذه التي تملأ بيوتهن خيرات وسلاماً.

وفي الختام ألتفت إلى ذلك الرجل وأنا مشمئز منه، وهو الشيخ الجاهل والأحمق المتصابي[1] والغبي المستصبي[2] المتهتك الغاوي الخالع العذار، المنهمك في الغي، المتبع هوى نفسه والملقي عنها جلباب الحياء، الذي ما برح حب الغواني يدلهه، والذي لم يخصه الله تعالى بمزية يمتاز بها عندهن، فخضب شعره ليحسن في عيونهن، فينظرن إليه ويعطفن عليه ويرحمن شبابه الكاذب، إنه ليكذب على نفسه، وإنهن عنه لمعرضات وبه هازئات ومنه ساخرات وله كارهات وعليه ضاحكات.

ويا أيها المسوّد شعر وجهه، اعلم أنَّ الحسناء الغيداء لا تصْبي[3] الشيخ مهما تكن عنده من مزايا. غير أنه ربما امتاز عند المليحة الطامعة في مدحه لها ليشنف أذنيها بوصف محاسنها فتطيب نفسها. فكيف تصْبيك وأنت شيخ شائب مخنث تتزين بخضابك، بل تريد وتحاول أن تتزين وتتحسن بصقل شعرك، فتجلس أمام المرآة في كل يوم ساعات تخضب وتقنأ[4] كل شعرة من شعرات رأسك وعذارك وشاربيك ولحيتك؟

لماذا تنكر التطلية على المرأة وهي أحوج منك ومن كل الرجال إلى التحسن ولا تنكر خضابك كأنك تود لو أنك تموه على الناس وتلبس ليغفلوا عنك؟ فما مثلك إلا مثل الفاطر المتظاهر بالصيام، فإذا عرض له مفطر مثله اندفع عليه بالتبكيت والملام والخصام. فإذا قلت إنَّ التمويه مضر بالبشرة قلت لك إنَّ الخضاب مضر بالأعصاب إضراراً عظيماً.

إنَّ الرجل الأبي الكريم النفس أجل وأعظم من أن يتقرب إلى الحسناء بخضابه، وما الخضاب إلا كذب ظاهر وعيب دائم.

1 ـ تصابى الرجل: مال إلى الصبوة واللهو واللعب.

2 ـ استصبى الرجل: فَعَلَ فعْل الصبي.

3 ـ أصبته: شاقته ودعته إلى الصبا فحن إليها.

4 ـ قنأ اللحية: سوّدها بالخضاب.

الفصل الثاني عشر منه
_ في اختيار الزوجة _

قال والدي: إنَّ في الزهرة رجالاً من أعاظم الرجال، ليس عليهم إلا أن يدققوا ويبحثوا عن أقرب الأسباب التي تزيد في راحة الأهالي وسعادتهم. ومن جملتها أنَّ كل مدرسة تطبع في كل عام كتاباً توزعه على جميع الخليقة، فيه ملخص الشهادات التي يدفعها الأساتذة إلى التلامذة فيقرأونها بتأنٍ وتدقيق، وعندما يريد الشاب أن يخطب امرأة ويريد أن يعرف منزلتها من المعارف والعلوم والفنون المنزلية وغيرها من الآداب والفضائل التي هي أفضل ما ينظر فيه ويسأل عنه ويهتم به، يرجع إلى الكتب المذكورة ويدقق فيها مع قومه وأصدقائه عاماً فعاماً، وكذلك الفتاة فإنها تنظر أيضاً وتدقق مع أهلها.

وهذه الكتب في غاية الإحكام والإتقان خالية من الزيادة والنقصان ومن التعقيد والتأويل والتلبيس والإبهام، كلها بيان وتصريح في بيان وتصريح، لم ترم بشائبة الانحراف والتزلف، لأنَّ الأستاذ لا يستطيع أن يفضل تلميذاً على غيره إذا لم يكن يستحق التفضيل. ولذلك ينفرد بنفسه أياماً لا يرى فيها أحداً لكي يُحكم وضع كتابه، فإذا انحرف طُرد وعوقب. وعليه فقد رأينا هذه الطريقة أعدل من غيرها وأقرب من سواها إلى الحقيقة، إذا لم أقل هي الحقيقة بعينها بنت التحقيق والتنقيب فنعتمد عليها كلنا في اختيار الفتيات والفتيان.

فإذا كان الفتى والفتاة متجملين بالمزايا والفضائل والرصانة، فلا ضرورة لشدة التدقيق عن أحوال فصيلتهما وثروتهما. فيا ليتكم تقتدون بنا أو تتشبهون لأننا بحثنا أكثر منكم فعلمنا بالطبع فوق ما تعلمون. ولما كانت غايتنا نقية شريفة كنا مطلقي الحرية في اختيار الأصلح غير مقيدين بقصد يراد به خير خصوصي ومنفعة شخصية.

أما أنتم فيجب على الفتى منكم أن لا يغلب على عقله هواه في اختيار الفتاة ليعلم علم اليقين أنها تصلح له، وأنه يصلح لها وتناسب أخلاقه أخلاقها وتناسب أسرته أولاً، فإذا غلبه هواه فقد حكم على نفسه بأن يسقط عنه حق التمييز والانتقاد. فليصغ في ذلك إلى حديث والديه اللذين لا يتمنيان له غير الخير، ولا يقل إنني أبعد نظراً منهما لكثرة علومي ومعارفي وغزارة مادتي وذكائي ودهائي. ليعلمْ ويعتقد أنَّ والدته المسنة نقّادة لا يستطيع الحكم أن يضاهيها في نقد بنات جنسها.

ليختر له فتاة رصينة رزينة، أبية متينة العقل قوية الجسم صحيحة البنية، لئلا يملأ منزله أولاداً مصابين بالعلل والجنون والعاهات. وليختر له أيضاً امرأة مزينة بالقناعة عارفة بترتيب المنزل لتكون سيدة وخادمة ومرتبة ومشيرة. لتكن جميلة أو كما تقولون خفيفة الدم قريبة من القلب.

ولتكن دمثة الأخلاق غير مشاكسة ولا مكابرة. ولتكن متواضعة غير معيبة بالتكبّر والتعظّم فتضطر إلى الإسراف. ولتكن صادقة في حديثها نقية القلب في ذكاء ونباهة. ولتكن قادرة على التصبر والتحمل.

ولتكن يا أيها الشاب مثلها. فإذا كانت هذه الصفات في فتى وفتاة فهما الضالة المنشودة والغاية المقصودة، بل يُكتفى ببعض هذه المزايا فإنَّ كل واحدة منها بفتى وفتاة. أما التزوج فليكن في السنة الخامسة والعشرين.

الفصل الثالث عشر منه
ـ في الخطبة والحب والغيرة والمهر والجهاز ـ

قال والدي: إننا نتزاور مرة واحدة في كل أسبوع ولا نزور إلا أقاربنا، ولا يسمح لشاب أن يتردد إلى جماعة فيها فتاة أكثر من ثلاثة أشهر، فإن زاد عليها زيادة واحدة عُدَّ خطيباً، فإنَّ الواحد منهما يستطيع أن يخبر الآخر بنفسه في هذه المدة، وعليه إذا أحب وخطب فلا يرجع عن الخطبة إلا لعلة من العلل المانعة، وستعرفها، فإذا رجع لغير علة وخطب فتاة أخرى جاذبته[1]، فإذا رجعت الفتاة منعت فلا يخطبها فتى آخر.

قال: وأما أنتم فيخطب الواحد منكم ويرجع عشر مرات وليس من يردعه، وهو في كل رجعة يعتذر عذراً مردوداً، وهذا الرجوع عار عظيم عندنا لا يقبله أحد ولو كان في منزلة غير رفيعة. فلا يستخف الشاب بحق الشابة بحبه الموقف الكاذب ولا يجعل الحب مشغلة له.

ليتأنَّ الفتى منكم ولا يسرع في الحكم على أنَّ فلانة توافقه، وليتروَّ وليدقق ليكون على هدى من أمره، ولا يعجل في المعاهدة لأنه إذا مدّ يده وعاهد أو إذا عاهد ولم

1 ـ جاذبت المرأة الرجل: خطبها فردته.

يمدها فقد التزم. فإذا نقض عهده لغير علة مانعة غدر والغدر قبيح. ليضعْ للحب حداً لئلا يفضي به إلى العشق والهيام فيشغله عن حب الله تعالى وعن الفضائل والسعي الحسن وراء مصلحته وشغله.

لينظرْ إلى نفسه ويمتحنها فإن كان شديد الغيرة فلا يحسن به أن يحب إلا الفتاة التي هي أقرب من غيرها إلى حب الانفراد والاعتزال عن الناس، والتي لا تشتهي المعاشرة والاختلاط، وإلا فقد ظلم زوجته وظلم نفسه لأنَّ الغيرة الشديدة مجلبة لشقاء الزوجين.

يزعم هذا الرجل أنه إذا بالغ في الحرص على بعلته التي تحب العشرة صانها. لقد أخطأ، فإنَّ الغيرة الشديدة تحمل المرأة على اتباع ما لا تحسن عقباه.

ليكن المحب في حضرة خطيبته أديباً رصيناً غير مكثر من المزاح. ليتجنبْ كل ما لا يحمد المرء عليه، فإنَّ المخطوبة تقتبس غالباً من أخلاق خطيبها. وليعلم أنه يجب عليه أن ينتقي له فتاة ستكون أماً لأولاده وشريكة لحياته في حزنه وفرحه.

إنَّ كل شاب من سكان الزهرة يريد أن يخطب امرأة يلزمه أن يقدم إليها هدية لطيفة من عمل يديه إن كان من أرباب الصناعات، أو ثماراً أو حبوباً، وذلك من حدائقه وأراضيه إن كان من المشتغلين بالزراعة والفلاحة، أو كتاباً يؤلفه إن كان من الكتّاب أو نحو ذلك مما يبرهن عن تمكنه من المعارف الاختراعية أو الأدبية أو الصناعية أو الزراعية، فيعلم اقتداره وجدارته أو سبقه وبراعته، وإلا فلا خطبة ولا عروس ولا امرأة لأنه لا يجد فتاة تقترن به إذا لم تكن له مزية. وبناء عليه تكون المرأة التي يخطبها الرجل على ثقة من كفاءة خطيبها في حاضرها ومن حسن تقدمه ونجاحه في مستقبلها. وهي أيضاً تتحفه تحفة من عمل يديها تدل على مهارتها وإتقانها.

قال: وأما أنتم وبناتكم فلا تردون طالباً ولا تدققون في البحث عنه، فتدخل العروس بيت بعلها حينما تهدى إليه وقلبها يرتجف. إنكم قد استمسكتم بمثلكم العامي وهو «تزوجوا فقراء والمغني الله» ولم تفقهوا معناه الحقيقي، كأنَّ المقصود منه لا تمنعوا مطلوبة عن طالب، فلا تستثنون الكسلان ولا المخنث ولا المقامر ولا الجاهل ولا السكير... بل لا تستثنون أحداً من الدميمين والمذمومين.

ثم قال: إنَّ مدة الخطبة عندنا ثلاثة أشهر لا أكثر، فحينما تنتهي يهدي الشاب إلى خطيبته باقة زهر. أما والدها فيصنع لها ثوباً من الكتان الأزرق. وهذا هو المهر والجهاز والمقدم والمؤخر.

الفصل الرابع عشر منه
_ في الملابس والحلي والهدايا من الزهر _

قال والدي: يذهب المدعوون إلى الأعراس والولائم والدعوات وهم بأكسيتهم العادية رجالاً ونساء أغنياء وغير أغنياء، لأنهم لا يلبسون القديم البالي ولا الوسخ من الثياب. وهم كلهم مع اختلاف طبقاتهم وأحوالهم لا يلبسون غير كساء واحد من الكتان البنفسجي وذلك في الفصول الأربعة، لا يزيدون ولا ينقصون لأنهم عودوا أبدانهم لبسه وحده فلا يشكون به برداً ولا حراً، ولأنَّ فصولنا لا تتغير إلا قليلاً. هذا وكل واحد وواحدة يكتفي بثوبين فقط كما علمت. فالغنية لا تُعاب لأنَّ ثوبها كثوب جارتها التي هي دونها بل تُمدح. على أنها تُعاب إذا كان وسخاً.

ومن العادات المستحسنة أنَّ القضاة لا يسمحون بأن ينسج نسيج أفخر من الكتان، فإذا نُسج عوقب الناسج وإذا لُبس عوقب اللابس أيضاً ومنعا.

ملابسنا عريضة يدخل إليها الهواء ويخرج منها فتقوى أبداننا وتتحسن، أما الزي عندنا فواحد للنساء والرجال لا ثاني له، غير أنَّ المرأة تتميز عن الرجل بخمارها.

أما الحلي عندنا فنوعان تضعهما المتزوجة على كتفيها لتعرف أنها ذات بعل، وهما من خشب براق تجمعت فيه أحاسن الألوان، له رائحة طيبة تقوي البدن وتطيبه ونحن نتقن صوغهما وصنعهما إتقاناً عظيماً.

إنَّ المرأة عندنا لا تتقرط ولا تتقلد قلادة ولا تتوشح ولا تتختم خاتماً ولا تتسور سواراً...

قال والدي: إننا لا نتهادى في الزهرة بغير الأزهار التي راقت وطابت ورقت روائحها ولطفت، فلا تؤثر في أعصابنا ونحن نعتني بها اعتناءً شديداً، ونباهي بها في مجالسنا ونتنافس، هذه التي عرفنا كيف نجمع بينها ونؤلفها ونستخرج ما هو أنفس منها، وعرفنا كيف نحدث أزهاراً تأخذ بمجامع القلوب رقة وبهجة ونضرة فهي أحب شيء ندخره للمهاداة. منها ما هي على هيئات لطيفة من الخلق والطير وسائر الحيوان، ومنها ما تقدم في الأعراس، كُتب عليها ما معناه «لكما التهاني بطول العمر في صحة ورفاهية» ومنها ما يُهدى في الولائم والدعوات مكتوبة عليها عبارات رقيقة تناسب واقع الحال. إلا أننا نجتنب الزهر التي تكثر فيها الأمراض السامة المعدية.

الفصل الخامس عشر منه
ـ في البضع[1] والاقتران والعرس ـ

قال والدي: يذهب الخطيبان وأقاربهما إلى أحد المعابد في وقت واحد من الأوقات المعدة للصلوات، فتدخل كل جماعة من الجماعتين في باب من أبواب المعبد وذلك في دقيقة واحدة ثم يصلي الجمع الصلاة اليومية. وبعد نهايتها يقف الخطيب والمخطوبة تحت كلمة «الله» وتحت الكلمات الأربع التي عرفتها، فيقول القاضي وهو على كرسيه: «إن فلاناً وفلانة الحاضرين (ويشير إليهما) يقترنان فأنصفوهما من نفوسكم ومجدوا الله تعالى بصدقكم تمجيداً». ثم يسكت دقيقة ويقول: «إنَّ فلاناً وفلانة الحاضرين بين يدي الله سبحانه وتعالى يقترنان ويفلحان ويزرعان في كرمه ويخرجان ثمرهما بإذنه تبارك وعلا فأنصفوهما من نفوسكم ولا تخفوا ما في قلوبكم إنَّ الله جلّ جلاله يعلم الخفيات». ثم يسكت فيقول الجمع: «فليباركهما الله تعالى».

فإن كان لا يجوز لهما أن يتزوجا لعلة من العلل المانعة كالقرابة الدموية، أو كارتباطهما أو ارتباط أحدهما بعهد ملزم، أو كوجود علة في بدنهما أو في بدن أحدهما، أو كوجود ريبة فيهما أو في أحدهما، وقف من له علم بذلك ومد يده، فيأمر القاضي حالاً بانصراف الناس فيذهب الخطيبان إلى منزلهما، وبعد هذا يفحص القاضي عن مسألة المنع، فإن كان ثمة ما يمنع من الاقتران وهو قليل نادر الحدوث أثنى على المخبر وعلى المخبرين إن كانوا كثيرين وذلك في المعبد علناً بعد نهاية الصلاة التالية، ووعدهم بحسن المكافأة وهو لا يخلف وعده.

فإن لم يثبت الادعاء بالمنع وكان في الأمر سهو، وبخ القاضي المخبر علناً وتلطف بالعروسين واعتذر إليهما والى جماعتهما. فإن كان المخبر تعمد الكذب أمر القاضي بأن يُخرج، وأمر الحاضرين أن لا يجالسوه مدة يعينها لهم. فيخرج حالاً فينزوي لا يكلمه أحد وبعد نهايتها يحاكم وينزل إلى الأرض إلا إذا كان به جنون. ثم يمضي العروسان وأهلهما بعد أن يباركهما الحاضرون مرتين، ويذهبون إلى دار الشاب فيهنئونهما ويدعون لهما بالنجاح والتوفيق. ثم تجز الأزهار الطيبة الروائح وتدار بأطباقها البلورية النفيسة على الجلاس فيأخذ كل واحد زهرة.

---

1 ـ المهر: المهر وعقد النكاح.

وبعد نصف ساعة ترد أطباق أخرى زاهية بالنقاوة والنظافة، عليها فاكهة طيبة شهية كأنها الكُمَّثْرَى غير أنها ألذ بكثير، فيأكلون ثم ينشدون نشائد أدبية حماسية تُذكر فيها مشاهير رجالنا، وكذلك النساء فإنهن في نشائدهن يذكرن الشهيرات منهن فيطربون جميعاً طرباً عظيماً.

وبعد نصف ساعة يُدار عليهم عصير العنب وهو ابن ساعته في كؤوس تكاد تبتسم في وجوه الشاربين من حسن نقائها وصفائها. وبعده يأتون بذلك الرمان الشهي الذي كله لذاذة في طيبة وحلاوة فائقتين والذي ليس له عجم[1]، والذي تقدر كل حبة منه بعشر حبات من رمانكم، والذي يختلف بعض ألوانه الزاهية الفائضة بالنور عن بعض، فإنك تبصر في كل رمانة ألواناً كثيرة. وبعد هذا ينصرفون. إنَّ المدعوين في المنزلة سواء فلا يفضلون أحداً على غيره.

1 ـ العجم: نوى كل شيء أي ما كان في جوف مأكول كالزبيب وما أشبهه, الواحدة عجمة.



الباب السادس

الفصل الأول من الباب السادس
_ في طبقات العباد _

قال والدي: إنَّ الخليقة عندنا طبقتان. الأولى القضاة والثانية الصنّاع والزّراع. أما الخدمة فلا نعرفهم، أي لا وجود لهم عندنا، وأما طبقات البشر في الأرض فثلاث: الأولى الملوك والعلماء والكهنة وأرباب السياسة والقوّاد والحكام وكل محام صادق. وهم يرعون الأمة ويعلمونها ويهذبونها ويرقونها ويرشدونها إلى سواء السبيل، ويهدونها ويكفون عنها مطامع أعدائها، ويحكمون بينها وينصفون ويدافعون عن حقوقها ولذلك لهم المنزلة الأولى. والطبقة الثانية هم الصنّاع والزّراع غير المعرضين للفقر الذين تحتاج إليهم الطبقات الثلاث مع أنهم أقل احتياجاً منها إليهم، وهم أكثر صدقاً وأعظم قناعة وأشد مروءة وأطيب قلوباً وأصفى سرائر وأقوى أبداناً من جميع البشر، ثم يليهم التاجر الذي يعيش بفضلهم لأنه ليس إلا ناقل المصنوعات والأقوات وبائعها، والطبقة الثالثة السوقي أي التاجر الصغير والخادم.

الفصل الثاني منه
_ في الزراعة والفلاحة بالأرض وفي القرى وعيشها _

قال والدي: يقول سكان الزهرة إنَّ الفلاحة والزراعة خير الحرف وأقربها إلى التقوى فاعتمدوا عليها، لأنَّ الإنسان منكم يعيش بها العيش الرغد ويستفيد فوائد كثيرة وجب عليكم أن تنتبهوا إليها وهي أولاً: إنَّ الزارع يستثمر الأرض ويستخرج نباتها الطيب من غير أن يزاحم أحداً على أسباب عيشه فلا يعادي ولا يعادى. ثانياً: إنَّ الزارع ينفرد بقريته مبتعداً عن شرور البشر وويلاتهم، فإنَّ الاختلاط غير محمود العواقب غالباً. ثالثاً: إنَّ الزارع يقوي بدنه وأبدان عياله بالهواء النقي والماء الصافي والكسوة العريضة والطعام البسيط وبراحة العقل والقلب وأتعاب البدن تعباً معتدلاً. إنَّ التعب يقوي الجسم ويمنع البطالة المفسدة للأخلاق. رابعاً: إنَّ القرى بعيدة عن المنتديات والملاهي والمراقص والملاعب والمسارح والأماكن الضارة، فينام الزارع في راحة وسلامة غير مضطرب خوفاً على بنيه. خامساً: إنَّ الزّراع سكان القرى لا يحتاجون إلى ما يحتاج إليه سكان

المدن من النفقات التي تصرف في سبيل الأزياء والاختلاط والشهوات والخلاعات. سادساً: إنَّ القرويين قليلو الانهماك في الأمور فيمكنهم أن يتفرغوا لتربية أولادهم وتهذيبهم وتثقيف عقولهم بتقوى الله تعالى وخوفه ليكونوا في المستقبل رجالاً صالحين. سابعاً: إنَّ الزارع القانع المكتفي ينجو من شوائب المدنيين ونقائصهم، أريد منها الكذب والمكر والغش والغبن في المعاملات هذه التي يزعمون أنها فراسة ونباهة وبعضهم يسمونها كياسة ومهارة وبراعة. ثامناً: إنَّ الزارع الصالح الحكيم البسيط يستغني عن الاستعانة بثروة الناس فلا يضطر إليهم والاستغناء عن الناس في هذه الحالة وأمثالها سعادة أرضية لكم. تاسعاً: إن الزارع إذا أقام بقرية طيبة الهواء تجري إليها من الجبال عيون صافية عذبة، وإذا جعل له حدائق وحقولاً فيها فاكهة شهية وبقول طيبة، ونصب له كروماً من العنب والتين والزيتون والفستق، وجعل في جهة منها خلايا يعسل فيها النحل ويشتار العسل من العسالات[1]، وإذا اعتنى بتربية الغنم والماعز والبقر والدجاج ونحوها، عاش عيشاً صالحاً مطمئناً لا يسأله ضميره ولا يحاسبه كأنه في وليمة دائمة. فمالي أرى الإنسان بعد هذا كله يشكو ويتظلم ويتضجر؟ ومالي أسمع بعضهم يقولون لقد ضاقت الأرض بأهلها فلا يكفي الرزق منها؟ ألا يرون مسرة القروي العاقل الذي يستطيع أن يعيش العيشة التي وصفتها؟ لماذا لا يتركون المدن وحسد سكانها وشرهم؟ ولماذا لا يرفقون بنفوسهم ويخلصونها من المصائب والنوائب المدنية ورزاياها المتتابعة؟

لا يقل المدني إنني أعيش في العمران يا هذا ماذا رأيت من تمدنك؟ ألم أسمعك تئن من ثقله وأنت كما تقول تموت في كل ساعة مرة وتعيش؟ وساعة تعيش تسير كالسكران الذي يسري في الليلة الظلماء أو كالمصاب بعقله وذلك من ضيقتك التي كادت تخنقك.

أتظن أنك إذا عشت في القرية لا تجد لذاذة أعظم من لذة المدينة؟ إني أراك على جهل عظيم. اطلب من القرية حقة المدينة تجدها.

هناك الراحة والسلام. هناك السرور والابتهاج. هناك الخلاص من رؤية الحكام الجائرين. هناك الحرية المشروعة. اطلب من الله تعالى أن يوفقك إلى الهِجِرّ[2] لتقل في القرية آثامك وتهون عليك التوبة بها فلا تعود إلى الأرض بعد خروجك منها صالحاً.

يا أيها العاقل قم واختر لك من أصدقائك المعروفين بالصدق والوفاء رفقاء وارحلوا

1 ـ العسالات: جمع عسالة وهي الشورة التي يتخذ فيها النحل العسل من راقود وغيره.

2 ـ الهجر بكسر الهاء والجيم وتشديد الراء: المهاجرة إلى القرى.

إلى قرية طيبة الهواء والماء، وارحموا نفوسكم وعيالكم رحمة دائمة تتبعها رحمات. ولا تقولوا إننا لا نجد بين أيدينا ما نستعين به على اشتراء قرية وابتياع مواش، فإنَّ في منازلكم من الأثاث والرياش ما يزيد على احتياجكم فبيعوه وأنفقوا في سبيل خيركم وصلاحكم، هاجروا واتركوا الشقاء في المدن المتمدنة بتلك المدنية الحديثة.

فإذا هاجرتم اقتدى بكم غيركم فتتركون ذكراً حسناً ينقله الخلف عن السلف. وإذا تمَّ هذا لكم فاتخذوا من الآلات المحدثة ما تساعدكم على إتقان فلح الأرض وبذرها وعلى الحصاد والرجاد والمدارس، وأوصيكم بأن تتبعوا الطرائق والاصطلاحات الحديثة التي أُدخلت على علم الزراعة والفلاحة عندكم، وهذا يتم لكم إذا أدخلتم أولادكم إلى المدارس الزراعية، أو إذا رغبتموهم ورغبتم نفوسكم في قراءة كتبها واستظهارها وعرضها[1]، لكي تسددكم إلى العمل والتجربة وحسن التكرير والثبات في دقة ونشاط حتى تستفيدوا وتفيدوا. وأوصيكم أيضاً بأن لا تتصدوا لحرارة الشمس إلا تدريجياً إلى أن تعتادوها، وبأن لا تقدموا على العيش الخشن مرة واحدة بل تدرجوا إليه تدرجاً.

لا تجوروا على الحيوان بل أرفقوا به وارحموه. ولا تستخدموا رجالاً غير معروفين بالصلاح وحب الفضيلة لئلا يفسدوا أولادكم. والعاقل من استغنى بعياله عن الخادم والأجير، غير أنَّ هذا لا يتم إلا بعد أن ينشأ له أولاد قرويون أشداء.

أقلّوا من أكل اللحوم شيئاً فشيئاً إلى أن تستغنوا عنها فتقوى أبدانكم. لا تغفلوا عن إرهاف[2] أحداثكم ذلك أن تتخذوا لهم رجالاً أتقياء ورعين يعلمونهم دينكم ويهذبونهم ويؤدبونهم ويعلمونهم العلوم الابتدائية الضرورية، فإذا أنفقتم عليهم أفادوكم وعوضوا لكم بصلاحهم وعلمهم أضعاف ما تنفقون ليكونوا شيوخاً حكماء ليحلوا لكم مشاكلكم ويفصلوا الخصام حينما تختلفون. فإذا فعلتم هذا كله عشتم عيشاً هنيئاً.

وفي الأخير أوصيكم وصيتين الأولى أن تعتنوا بالنظافة اعتناءً لا تقوون على أكثر منه. والثانية إذا قال لكم أولو الأمر: «إنا جعلناكم قضاة وأعضاء مجالس». فقولوا لهم: «إنَّ الله تعالى لم يجعلنا أهلاً لها». فإذا ألحوا عليكم فاستعفوهم بالتي هي أحسن وجملوا استعفاءكم بالشكر، ولا تطلبوا النجاح والفلاح من أبواب الحكومة والسياسة، بل اطلبوهما من المحراث لعلكم تفلحون.

---

1 ـ عرض الكتاب: قرأه عن ظهر القلب.

2 ـ أرهف السيف: حدّده ورقّق حده.

وقال والدي: لقد برع علماء النبات عندنا براعة حيرت عقول كبار المكتشفين والمخترعين، لأنهم تمكنوا بجدهم واجتهادهم من إيجاد نباتات لم تكن معروفة في الزهرة قبلهم. منها أنَّ العالم الشهير المسمى «أردوم» أي إرادة الله ولد القاضي «مجدوم» أي مجد الله، كان أوجد من زمان قديم جداً فواكه طيبة شهية، أخص منها بالذكر فاكهة كبيرة الحجم بقدر الرحى العظيمة (وهذا عجيب وهل تستطيعون أن تصدقوا أنَّ العالم يمكنه أن يوجد فاكهة وبقولاً وأثماراً؟) وأعجب من ذلك أنَّ الناظر إلى هذه الفاكهة يقرأ عليها كتابة بحروف نافرة جلية تعريبها: «أنا أردوم ابن القاضي مجدوم من مدينة القضاة في الزهرة أوجدت بإذن الله تعالى هذه الفاكهة النافعة للهضم اللذيذة فاعصروها واشربوا عصيرها فإنَّ فيه منافع لكم. أما قشرها وثُفْلها[1] فاجعلوها سماداً لأرضها فتجود». وهذه الفاكهة هي المعروفة عندكم بالبطيخ الأصفر إلا أنَّ بطيخكم أصغر حجماً، فإذا أبصره أحد سكان الزهرة قرأ الخطوط التي عليه كالتعريب الذي تقدم. وقد أنبت الله تعالى هذه الفاكهة في أرضكم حباً بكم، وقد توصل هذا العالم بحسن خبرته إلى جعل بعض الفاكهة والأثمار في بعضها. فإذا تناولت مثلاً جبسة ونظرتها رأيت في قلبها بطيخة أو تينة كبيرة أو غير ذلك. وإذا مددت يدك إلى شجرة تفاح وجنيت منها تفاحة أبصرت ضمنها كرزة أو مشمشة ونحو ذاك. وقد جعل هذا العالم الفاضل في العنقود الواحد أنواعاً كثيرة من العنب بطعومه وألوانه المختلفة فتعجب. أما البقول التي تأكلونها مطبوخة فهي عندنا لا تحتاج إلى الطبخ لأنَّ الأرض تؤثر فيها.

الفصل الثالث منه
_ في الآلات والأدوات النقلية والزراعية وغيرها من مخترعات سكان الزهرة _

قال والدي: إنَّ الآلات والأدوات عندنا كثيرة وكلها مفيدة إفادة عمومية، أذكر لك شيئاً منها.

أولاً: المركبات النورية وهي مركبات تسير وتسري في الهواء بسرعة النور وتمر قطراً بعضها وراء بعض، نسافر بها وننقل كل شيء، وهي غير معرضة لخطر وسميت

---

1 ـ الثُّفْلُ:ما استقر تحت الشيء من كُدْرَة. والثفل أيضاً: الحب.

بالنورية نسبة إلى النور، فإننا نستخدمه كما تستخدمون الكهرباء بل أكثر بكثير. ومنها الكراسي البرقية فلكل واحد منا كرسي يقعد عليه فيضغطه برجله ضغطاً لطيفاً فينطاد بنا[1] وهو طوع يديه لا خطر عليه منه وقد استغنينا بها عن البحار.

ثانياً: القلاّب وهو آلة تقلّب الأرض وتجعل أسفلها أعلاها بأقل من دقيقة واحدة.

ثالثاً: السابر وهو آلة نضعها على الأرض فنبصر كل ما فيها ونقدرها. ومثلها آلة نسبر[2] بها البحار ونبصر جميع ما فيها.

رابعاً: الزارع وهو آلة تطرح الزرعة، أي البذر في الأرض تحت المقدار الذي نريده من التراب.

خامساً: المعدّل وهو آلة تعدّل البارد والحار إذا صودف أنَّ الهواء لم يكن معتدلاً، وعليه فلا خوف على الزرع والنبات من الجليد والصقيع ولا من السموم والحرور[3]، أما السليق[4] فلا نعرفه.

سادساً: المنظف وهو آلة تدخل الأرض فتخرج منها جميع الحشرات وتستأصل النبات الذي لا نريده.

سابعاً: المجفف وهو آلة تجفف الزرع حينما نريد.

ثامناً: المستثمر وهو آلة نضعها بجانب الزرع فتجمع إليها الحبوب حالاً وهي نقية نظيفة. ولدينا أيضاً أدوات زراعية كثيرة أغنتنا عن الحيوان فهو يعيش بها في راحة، وحسبي أن أقول إنَّ عيشه أسعد بكثير من عيش الإنسان المرفه والمتنعم في الأرض. إننا لا نربي من الحيوان ولا نستخدم غير البقر والغنم وذلك ابتغاء الحليب وهي كثيرة أكثر من الاحتياج وعليه فلا نأخذ كل لبنها. ونربي أيضاً الدجاج لبيضها.

تاسعاً: الرافع وهو آلة نرفع بها الأثقال التي لا يقوى على رفعها عشرون ألفاً من رجالكم وأكثر.

عاشراً: السماع وهو آلة غير مرتبطة بسلك نضعها على آذاننا فنسمع بها كل ما

---

1 ـ انطاد: ذهب في الهواء صعدا.

2 ـ سبر الجرح والبئر وغيرها: امتحن غوره ليتعرف مقداره.

3 ـ السموم: الريح الحارة. قال أبو عبيدة: السموم بالنهار وقد تكون بالليل والحرور بالليل وقد تكون بالنهار.

4 ـ السليق من الشجر: الذي سلقه البرد فأحرقه والشجر الذي أحرقه حر أو برد.

نريد أن نسمعه من بلاد بعيدة من غير أن نحتاج إلى أحد، غير أننا لا نسمع بها أسرار العباد.

حادي عشر: الناظور وهو آلة نضعها على عيوننا فنبصر بها الكواكب وأدق النجوم وكل ما فيها. وننظر بها البلاد القريبة والبعيدة على أننا لا نرى بها ما لا تجوز لنا رؤيته.

ثاني عشر: المخاطب وهو آلة لا سلك لها نضعها على الأرض ونضغطها ونخاطب بها من نريد ولو كان مقيماً بأبعد مدينة فيسمع ويجيب ببيان، وكل من المخاطب والمخاطب يبصر الآخر.

ثالث عشر: الجاذب وهو آلة نجذب بها ونخرج كل ما يدخل أجسادنا وأجساد الحيوان من شوك وأبر ونحو ذلك من غير أن نلمسها ونمسها.

رابع عشر: آلات لكل عين لا تبصر ولكل أذن لا تسمع ولكل عضو كسر وبتر فتصلح وتصحح وتعوض. وغيرها للأخرس والأعرج والأجنأ والأحدب والأكتع والأشل ونحو هذا فيصبحون بها أصحاء.

خامس عشر: المطفئة وهي آلة إذا وجهتها إلى النار أخمدتها حالاً.

سادس عشر: الكابح وهو آلة إذا أشير بها إلى ثور هائج جامح وغيرها سكنته وأوقفته حالاً.

ومن الاختراعات النافعة أننا نرى بين أيدينا آنية تختلف ألوان بعضها عن بعض، فإذا صببت سائلاً مثلاً في قدح رصاصي[1] برد. وإذا أرقته في مركن[2] أحمر حرَّ، وإذا سكبته في باطية[3] لازوردية حلا. وإذا جعلته في إناء زنجاري حمض. وإذا وضعته في قِدْرٍ[4] سمراء ملح. وذلك بقدر ما تريد من البرودة والحرارة والحلاوة والحموضة والملوحة إلى غير ذلك من الطعوم...

أقول: إذا اخترع أحدنا اختراعاً أعلنه حالاً وطلب من الناس أن يساعدوه على تعميمه وتوزيعه، فيذهبون إلى المعامل ويشتغلون بهمة ونشاط ومحبة كأنهم أشقاء

---

1 ـ الرصاصي: ما كان لونه كالرصاص.

2 ـ المركن: الإجّانة التي تغسل بها الثياب.

3 ـ الباطية: الناجود. وعن أبي عمر: هي إناء من الزجاج يملأ من الشراب يوضع بين الشَّرْب يغترفون منه.

4 ـ القدر: إناء يطبخ فيه. مؤنث أو يذكر ويؤنث.

متحابون، فحينما يتم العدد المطلوب من الآلة المخترعة يأخذ كل من الخلق واحدة متى أراد، وذلك بغير بدل ولا عوض. كل اختراع يمكن أن يحدث منه ضرر ولو كان جزئياً لا يجوز إظهاره. أما المخترع فينقل إلى مدينة القضاة لأنها مسكن لكل من تفرد بشيء. فإن كان المخترع من ساكنيها فيجعل من القضاة وإن كان منهم علت منزلته لأنهم طبقات.

الفصل الرابع منه
ـ في حرف سكان الأرض ـ

قال والدي: لا تسمح لأحد من أولادك أن يتخذ حرفة دنيئة ولو كان ربحها كثيراً كما يفعل بعض الطامعين لأنهم يفسدون آدابهم ويذلون قومهم. إني أرى العامل الفقير خير من الخمّار الغني.

إنَّ الصناع والعمال العاملين بأيديهم يُقدمون على التجار الذين يغشون ويغبنون العباد في البيوع غبناً فاحشاً وهم كثيرون. ألا تعلم أنَّ أولئك الصناع والعملة والفعلة المستخدمين والأجير الخاص والعام مهما كانوا أدنياء وطامعين، لم تزدد دناءتهم عن إضاعة ساعتين من نهارهم تذهب بالبطاءة والكسل فلا يكون إضرارهم عظيماً كأضرار التاجر؟

إنَّ الأجير ينام من غير أن يحاكمه ضميره ويوبخه توبيخاً شديداً، لأنَّ بطاءته لم تكن خفية فتعد سرقة، بخلاف التاجر الذي لا نوم له إلا بعد أن يعتاد السرقة والحيلة فلا يبالي. خير الأرباح ما حصلت لك بالنشاط والإنصاف وخير الناس وأغناهم من كان قانعاً.

لا يكن ولدك سوقيّاً لئلا يعيش كذاباً سافل النفس مثل أولئك اللصوص الذين يسرقون من الكيل والميزان، فإنهم سرقة مدمنون اللصوصية ومواظبون عليها، وليسوا كالذين يسمونهم لصوصاً لأنهم يسرقون في كل شهر مرة مثلاً. فيجب على الناس أن يجتنبوا السوقي اللص وأن يؤاخذوه بذنبه في السرقة الأولى. وهؤلاء اللصوص لا يقتصرون على السرقة من الكيل والميزان فقط، بل يعمدون إلى المزج وهو حرفة قبيحة سافلة أتقنوها كمزج السمن بالمواد الدنيئة القيمة الضارة. وفي المزج تفاوت في الضرر،

فالذي يمزج الحليب بالماء ليس كالذي يخلط ملح الليمون بالشبّ[1] ويبيعه للمساكين.

يا أيها الناس انتبهوا للذين يخلطون العقاقير ويمزجونها بما هو دونها على عمد واهجروهم ونددوا بهم وحاكموهم فإنهم لصوص قتلة ولا ترحموهم، ولا تقولوا إننا لا نؤذيهم ولا نقطع رزقهم. ولا تقولوا النفس ضعيفة والخطأ أقوى منها لأنهم يتعمدون إضراركم بطمعهم، فمن رقّ لهم وعذرهم وتغافل عنهم فقد شاركهم، فنبهوه واعلموا أنَّ مثله مثل الذي يهدم مئة قصر لإخوانه ليبني لصاحبه داراً صغيرة. من وقي أخاه شرهم فقد كفه عنه بيده.

الفصل الخامس منه

ـ في البيع والشراء ـ

قال والدي: إنَّ الدنانير والدراهم لا وجود لها في الزهرة لأننا لا نتخذ ذهباً ولا فضة، بل نقاول ونتعامل ونبيع ونشتري ونتاجر في الأمتعة، وننسأ[2] المثرين في البيع ونستلف ونتداين، ولكن كل ذلك بالعرض[3] والمقايضة[4] والمعاوضة[5]، أي إننا نبيع عرضاً بعرض، فأعطيك بقرة مثلاً على أن تعطيني ثوباً. فإذا أردت أن تحتذي[6] ولم يكن لديك عوض فتقول لصانع الأحذية: أحذني نعلاً، فيحذوك غير متردد ولا متأخر، فتعاوضه يوم إيسارك بعرض يضطر إليه أو يضرب لك أجلاً فإذا حلَّ حقه عليك وجبت التأدية، وإذا شاء عرضت[7] له من حقه ثوباً وربما تركه لك هبة. إذا طال إعسارك فلا يعسرك إلا إذا علم منك الطمع.

---

1 ـ الشَّبُ: ملح متبلّر. اسمه الكيماوي: كبريتات الألمنيوم والبوتاسيوم.

2 ـ نسأ فلان فلاناً في البيع: باعه بأخرة. والأخرة: النظرة وهي التأخير والإمهال.

3 ـ عرض بسلعته: بادل بها فأعطى سلعة وأخذ أخرى.

4 ـ قايضه: عاوضه وبادله. ومنه بيع المقايضة وهو بيع عرض بعرض.

5 ـ عاوضه: أعطاه خلفاً وبدلاً.

6 ـ احتذى: انتعل. أي لبس نعلاً.

7 ـ عرضت له من حقه ثوباً: أعطيته إياه مكان حقه.

أما أنتم يا أهل الأرض المستميتين في المطامع القبيحة الشائنة التي تذل نفوسكم، تماطلون ثم تتنازعون وتخاصمون وبعد ذلك تنكرون وتزورون فتقتلون، وفي النهاية تتركون كل شيء في أرضكم وتذهبون وأنتم تحملون على ظهوركم الحقوق الثقيلة التي كنتم تزعمون أنكم هضمتوها فلا تسألون عنها، إنَّ الله تعالى ليس بغافل عنكم ولسوف تعلمون.

الفصل السادس منه
ـ في التجارة ـ

قال والدي: إذا أردت أن لا تعرض نفسك للكذب فاجتنب الاصطلاح التجاري والحالة التجارية الشائعة الآن بين أكثر التجار الغشاشين الذين لا يفكرون إلا في خدع العباد ليسلبوهم أموالهم، ولاسيما الذين يحتكرون القوت ليبيعوه للفقراء بدماء قلوبهم طمعاً في زيادة ثروتهم وهم في غنى عن معظمها. لا تحكر الطعام فإذا تحكرته فاذكر إخوانك بالخير والمعروف، ولا تغل الأسعار كثيراً واجتنب الطمع فإنَّ فيه مذمتك.

لا تغر ولا ترغب، بل قل إني أبيع هذا الحاضر بكذا أو أجعل الثمن محدوداً معيناً لجميع الناس. تجنب البضاعات الرديئة الفاسدة ولا تبع كل الناس بنسيئة[1]، فمنهم من إذا أدنته وطالبته بحقك يوم حلول الدين اغتاظ منك وعاداك فإذا لم تطالبه هضم حقك.

الفصل السابع منه
ـ في الرباء ـ

قال والدي: اجتنب المراباة ما استطعت، ولا ترابِ الناس مراباة فاحشة، فإنَّ المرابين كالمحكرين الطامعين الظالمين بل أشد منهم إضراراً وظلماً وغدراً يخربون البيوت العامرة ليبنوا بها اصطبلاتهم.

1 ـ النسيئة: التأخير. يقال باعه بنسيئة, أي بدين مُؤَخر.

إني أراهم يمتصون دماء إخوانهم. هم آفة المجتمع الإنساني. إنَّ العاقل لا يأخذ الدينار بالرباء الفاحش ولو اضطر إليه لأنه يمسي عبد المرابي وأسيره إلى الموت فيخلص، أما عياله فلا يخلصون.

إذا أبيت ألا أن ترابي وتربي[1] فاتقِ الله ولا تفحش بطمعك فتعمل خيراً مع كثيرين. اعلم أنَّ الظلم وخيم العاقبة.

الفصل الثامن منه
_ في طمع سكان الأرض _

قال والدي: إنني طفت في أكثر الممالك في الزهرة والأرض. وولجت كل بيت. وسبرت كل غور. وعجمت[2] كل عود، وتعرفت كل مقدار. وأكلت كل طعام. ووزنت كل درهم. وذرعت كل ثوب. ولبست كل لباس. وبذرت كل أرض. وضربت كل مثل. ونشدت كل ضالة. ومضغت كل طعام وشربت كل ماء. وعرفت كل كنه وقرأت كل كتاب. وبلوت كل رجل. وأدركت كل حقيقة. فلم أر شيئاً يضر بشرف المرء وسمعته ويعيبه ويشينه ويسقطه ويدنئه ويضيع ثروته مثل الطمع.

وقد تكلمت إلى الآن كثيراً بهذا الموضوع وانقطعت عنه وعدت إليه ليكون أرسخ في الأذهان وأثبت في العقول وأمكن في القلوب وأمتن في النفوس وأقوى في الجوارح والأعضاء. فأنصح وأكرر نصحي وأشير وأنبه وألح وأصر على أن تجتمع كل عشيرة في كل صباح ومساء وتتواصى باجتناب الطمع، لأنه إذا بدأ بالإنسان أضله وإذا تمكن منه أعماه وجعله يخبط كالمصروع.

الطمّاع مختل العقل لأنه يضيع الكل في طلب البعض. لينتبه الطامع لئلا ينتهي به الطمع إلى اللصوصية. الطامع مكروه ممقوت يجتنبه الناس كما يجتنبون الأجرب. الطماع يخذله الله، إنَّ الله تعالى سيعاقبه عقاباً شديداً. اللهمَّ زدني قناعة ولا تخذلني.

---

1 ـ رابى الرجل: أعطى ماله بالرباء فهو مراب. وأربى الرجل إرباء: أخذ أكثر مما أعطى.

2 ـ عجم الشيء: عضه أو لاكه للأكل أو للخبرة كما تأخذ العود بسنك لتعلم صلابته من رخوته.

الفصل التاسع منه
_ في الحسد _

قال والدي: الحسد يتولد من الطمع. الحسد إقرار الحاسد بفضل المحسود وفواقه وسبقه. لو علم الحاسد أنه يسر عدوه بحسده لما حسده. الحاسد دون المحسود فلو كان فوقه كما يزعم لما حسده.

رُبَّ محسود على حالة يتمنى لو كانت له ويود لو كان بها حاسداً.

الحاسد لا يهنئه طعام ولا يسوغ له شراب. قلبه مغموم وصدره ضيق وعيشه ناكد. اجتهدْ أن تكون محسوداً لا حاسداً. لو ترك الحاسد الحسد وجدّ وراء المحسود للحقه، ورُبَّ حاسد ارعوى فأصبح محسوداً. إنَّ الحسد داء يأكل قلب صاحبه وجمرة تلذعه حتى تذيبه.

البـــاب السابع

الفصل الأول من الباب السابع

ـ في الرجل ـ

قال والدي يوصي الرجل الأرضي: يا أيها الرجل لا تحب من النساء غير زوجتك، فإذا خالفت وأخلفت ومكرت وخدعت واتبعت هوى نفسك الشريرة وأحببت غير امرأتك، فلا أقل من أن تحذر كل الحذر أن تعلمها حبك إلى أن ترجع عن غيك وترعوي عن فسادك، وإلا فقد جنيت على نفسك وعلى عيالك جناية لا كالجنايات، لا تشعر بها إلا بعد أن تفيق ويعود إليك عقلك فتندم وتسدم[1].

إني لأعجب كيف تسمح لنفسك بأن تحب غير زوجتك ولا تسمح لها أن تحب غيرك. لماذا ترى حبها جناية منها ولا ترى حبك سواها جناية أخرى؟ لقد حكمت فجرت والله سبحانه وتعالى لا يحب الجائرين، ومن لا يحبه الله فقد أهمله.

كأنك تحسب أنَّ الزوجة إذا أحبت عيبت وأنت إذا أحببت لا تعاب! كلا كلاكما معيبان. إنَّ الله لم يجعل لعباده شريعتين الواحدة للرجل والثانية للمرأة. إنَّ الشريعة واحدة وعليه فأنت وبعلتك متساويان موثقان بعهد ملزم لا فكاك لكما منه إلا بموت أحدكما، ومن ظن غير هذا فقد بخس المرأة حقها وأخطأ واستوجب العقاب. والزوجة التي بخست حقوقها لا يؤمن فسادها إلا إذا كانت أبية النفس طيبة العنصر، فتصبر قهراً عنها فيعتل بدنها وربما أودت بها العلل. إنَّ العفيف قرة عين امرأته.

---

1 ـ سدم الرجل: كان به سدم. السدم: الهم أو مع ندم أو غيظ مع حزن.

إني أنصح لمن لا يكتفي بزوجته أن لا يتزوج، لأنه لا راحة ولا سلام في الأسرة إذا كان الحب لغير البعلين.

يجب على الرجل الصالح العادل الذي يحسب نفسه شريفاً أن يختار لنفسه في ذلك ما يختاره لزوجته وأن لا يريد لها ما لا يريده لنفسه.

يا أيها الرجل إياك والبخل فإنه يكسر قلب المرأة. فإن كنت لا تستطيع إلا أن تعيش ضنيناً فضنَّ على نفسك الخبيثة، وأهكلها بطعمك وشحك، ولا تضنّ على زوجتك وولدك لئلا يمّدا يديهما إلى غيرك والعياذ بالله تعالى، ولئلا تنقلب عنك محبتهما فلا يطيب لهما ولك عيش إلا بموتك. اعلم أنه لا عز لبخيل.

لا تذل امرأتك، فإنَّ المرأة الذليلة لا تصلح لتربية أولادك وتهذيبهم. لا تهددها ولا ترفع يدك عليها لئلا تخشاك فيكون توقيرها لك خُدْعة منها فتجعلك خدعة[1]. إنَّ الخديعة يتولد منها الكذب والكذب آفة المجتمع الإنساني.

إذا ظلمت امرأتك فقد ظلمت نفسك وجرحت قلبها، والقلب المجروح يمقت جارحه ولن يحبه، ولا عمار إلا بالمحبة.

لا تكن كلك لنفسك بل كن لها ولزوجتك. إذا كنت لا تشتهي شيئاً وهو لا يضر بها فلا تسألها أن لا تشتهيه معك، فإنَّ لها ما لك ولك ما لها، ونفسك مثل نفسها وحقوقكما بالرضى والغضب متساوية. ولا تُمِتْ إرادتها ولا تجعلها تريد كل ما تريده أنت، بل اجعل نفسها كبيرة لتكون شريفة. وأطلقْ لها إرادتها لتعيش حرة فتسأل عما تفعله وإلا فقد أصرتها خادمتك البلهاء ولم تتخذها الشريكة التي تشاطرك متاعب الحياة بعد أن تخففها عنك بتدبيرها وإتقانها وصبرها وطلاوة كلامها ورقتها. إذا كانت أخلاقكما متباينة فتقاربا بالمحبة. إنَّ المرأة إذا رقيتها رقت أولادك وانتفعتم كلكم بها، وإن أهملتها ووضعتها أضعت مستقبل عيالك وعشتم وضيعين مهانين.

وأقول أخيراً: إذا نزلت على قوم وأردت أن تعرف منزلتهم من المدينة الحقة، فسل عن نسائهم، فإن كن مثلهم في الحقوق فقد بلغوا من الحضارة والإنسانية المنزلة الرفيعة وإلا فارحل عنهم.

---

1 ـ الخَدعة بفتح الخاء: المرة من خدع. والخُدعة بضم الخاء: ما يخدع به ومن يخدعه الناس كثيراً.

الفصل الثاني
ـ في المرأة ـ

قال والدي: إنَّ النساء في الزهرة كالرجال، بل هن مكرمات أكثر منهم لأنهن يتعبن ويشتغلن مثلهم وأكثر، وهن أهم منهم لإتقانهن فن التربية والتهذيب. ونحن لا ننكر عليهن أفضالهن بل نشكرهن ونبجلهن لأنَّ الشكر والتبجيل يزيدهن ولوعاً بالمزايا على دعة منهن واتضاع. فيا ليت النساء في الأرض يسلكن مسالكهن، لأنَّ المرأة كلما خفضت جناحها لرجلها تمكنت من قلبه أكثر تمكناً. إنَّ المرأة العاقلة هي التي لا يهمها غير رجلها وولدها وبذلك تكون سعت لنفسها سعياً حسناً.

توقوا المرأة الطوافة في بيوت جاراتها والجالعة[1] والكاذبة وشر النساء المتطرفة[2]. والمرأة الصالحة والرزينة هي التي لا تحمل رجلها على الغيرة ولا تجعله يشك في محبتها له وإخلاصها وقناعتها. إنَّ خير النساء امرأة قاصرة الطرف لا تحب غير زوجها.

ثم قال: الشجاعة والبأس للرجل، وللمرأة الرقة والدعة من غير جبانة منها ولا خشونة منه. إذا أطاعت المرأة رجلها مع حفظها حقوقها وخدمته بطيبة فقد خدمت نفسها، لأنَّ في كل جسد من جسديهما نصف روح الجسد الآخر، فهما حارسان وشريكان يسعيان في مصلحة واحدة وفي طلب خير واحد. لتحرص المرأة على مال رجلها حرصها على حسنها فإنه مالها أيضاً ومال أولادها. إنَّ المرأة الطامعة في ثروة رجلها تبذيراً وإسرافاً جاهلة معيبة. ليتها تعقل أنَّ التبذير والإسراف ينفذان كل ثروة ومال ويتسببان بالبطر فتغلب الأهواء والشهوات وهناك الفساد الذي لا صلاح معه.

لتكن المرأة صبوراً عند حلول المصائب غير جازعة منها. لا يلذ للعاقلة غير ترتيب منزلها ولا تجد بهجة إلا به. إنَّ مهارتها وفراستها تُعرفان من ترتيبها المنزل والأولاد ومن نظافتهم. إذا نظرت إلى الولد وثيابه عرفت منزلة أمه من الإتقان والذوق والتهذيب. إنَّ التي لا تشتغل في لوازم نفسها فهي زائرة لا منزل لها.

---

1 ـ الجالعة: السافرة القليلة الحياء والمتكلمة بالفحش.

2 ـ تطرفت المرأة: استطرفت الرجال ولم تثبت على زوج.

التربية فن شريف من فنون الحكمة، فعلى المرأة أن تتقنه وتحكم وضعه وإلقاءه على أولادها بتأن وبراعة، تُعلم بهما سعة مداركها ويعرف صبرها. إنَّ المرأة الصالحة المدركة يؤثر صلاحها في رجلها.

إنَّ التي لا تريد أن ترضع ولدها لغير علة مانعة من الإرضاع فهي لا تحبه. وأي عار أشد وأعظم من أن يقول قائل إنَّ فلانة لا تحب ولدها ولا تحن عليه لأنها لا تحب غير نفسها، فإنَّ المحبة الدنيئة ألا وهي محبة الذات تغلبت عليها. ولأنها لا تحب رجلها أيضاً، بل لا تحب أحداً. إنَّ التي على هذا الخلق القبيح لا تصلح للأمومة لأنها دون الإنسان والحيوان.

إنَّ الزوجين كالأخوين في المنزلة، فالرجل هو الأخ الأكبر والمرأة الأخ الأصغر. والعاقل منهما من حمل على النفس ضيمها وصَبَرَ صبْرَ الكرام فقد رضي الله تعالى عنه والناس أجمعون.

الفصل الثالث منه
_ في الأصدقاء بالأرض _

قال والدي: اجتنب الناس ما استطعت فتنعم وترفه. كلما عرفت العالم الأرضي وأدركت سراً من أسراره الغامضة كرهته وزهدت في أهله. لا خير في أكثر الناس عندكم فإنَّ كبارهم يأكلون صغارهم، هم وحوش ولكن عاقلة، ولذلك نراهم أشد توحشاً من الحيوان لأنَّ عقولهم تساعدهم على الفتك الذريع والقتل الفظيع والطمع الشنيع.

ابتعدْ عن البشر تنجُ من الشر، وإلا فاختر لنفسك منهم أصدقاء ولو كانوا لا يصدقون إلا قليلاً لأنك يا أيها الإنسان لا تطيق الانفراد. ليكونوا ما استطعت من الطبقة الأولى لأنهم في الغالب أقل ضرراً من غيرهم. فإن كنت لا تصل إليهم فاقصد الطبقة الثانية واطلب منها الذين ربوا في النعمة ونشأوا على المكرمة. إياك أن تختار من هم دونك، بل اتخذ لك أصدقاء أرفع منك قوماً وأرقى منزلة لتتأدب وتتهذب عنهم وتقتبس من عاداتهم الحسنة، فتنتقل من حالة إلى أحسن وأرفع منها وهم لا يطمعون فيك ولا يحسدونك، لأنه لم يطمع بك ولا يحسدك إلا من كان دونك. غير أنه يلزمك أن تخفض لهم جناحك وأن تجتهد في تطبيق أخلاقك

على أخلاقهم وفي مشاكلتهم ومماثلتهم غير مخالف لهم في شيء، إلا أنك رأيت منهم ما يستهجن فاجتنبه.

لا تحاسبهم ولا تطالبهم ولا تعد زلاتهم، لأنك إذا لم تغض طرفك لهم لا تظفر بصديق واحد ولا بنصف صديق ولو عشت عمرين.

لا تقاوم صديقك إذا غضب ولا تنصحه وهو ثائر بل هيّبه إليك[1] إذا تسخّط وتغضب، وانصحه إذا عاد إليه حلمه، ولكن احذر أن تنتقصه وتعيبه لئلا يصير نصحك توبيخاً وملاماً.

اصحبه في غمه وحزنه بقدر صحابتك له في سروره وفرحه. كن ثابتاً على المودة. ما أحسن الصديق إذا لم يكن معفياً[2] إذا أصابه الدهر بماله، فلا تنقص من تكريمه. ادفع عنه اغتياب المغتابين وكن أميناً على مجلسه كما أنت أمين على عرضه ونفسه.

زن نفسك دائماً لئلا يستثقلك. لا تتقرب إليه بالمجاملة ولا بالمصانعة ولا تجاره على أمر لا يحمد عليه. ولا تجعل مزيتك لديه تبجيله وتعظيمه.

إذا سمعت الناس يذمونه وكان الذم في محله فلا تخفه عليه بل تلطفْ وانقله إليه. جدَّ في مساعدته وقضاء حاجته، فإذا تعبت في سبيله فاكتم تعبك عنه لأنَّ إظهارك إياه عيب من عيوب الصديق المخلص. إنَّ صديقك مثل نفسك تتعب من أجلها ولا تحاسبها.

يا هذا كن كلك لصديقك ولا تعلل بأنك تجد لك أصدقاء كثيرين، فإذا ظفرت في كل عمرك بصديق أو صديقين فقد أفلحت حينئذ لأنك صديق.

أما أولئك الذين تعاشرهم وتؤاكلهم وتكثر من التردد إليهم، والذين يسألون عنك إذا غبت ويعاتبونك ويبتهجون بك إذا حضرت، فهم أصحاب ألفتهم وألفوك وليسوا بأصدقاء، لأنَّ الإنسان ألوف يحزن لكلبه إذا فقده، وأما الصديق فهو من سعى من أجلك فأغناك عنه وعن غيره.

---

1 ـ هيّبه إليه: جعله مهيباً عنده.

2 ـ المعفي: من يصحبك ولا يتعرض لمعروفك.

الفصل الرابع منه
_ في الأعمار والموت بالزهرة _

قال والدي: إنَّ سكان الزهرة يعمرون ويعيشون لا أقل من خمسمئة عام ولا أكثر من ألف. فإذا دنا أجل أحدهم علم به من نفسه وقال لأهله وهو فرح مبتهج: «إني ذاهب إلى لقاء ربي»، فيفرحون ويسرعون فيعلمون قاضي قضاة المدينة فيذهب إليه (إذا كان المدنف من الذين لم ينزلوا إلى الأرض) ومعه جميع القضاة يحملون بأيديهم باقات من الأزهار النقية المختصة بالمائتين، كتب على كل زهرة منها «اذهب بسلام أيها العبد الصالح»، هذا إذا كان المائت متزوجاً وأما إذا كان متبتلاً فيحملون زهراً مختصة بالمتبتلين كتب عليها «نعماً أنت يا أيها العبد الصالح». فحيثما يصلون إلى منزل الميت يضعونه على الآلة[1] وهي مزينة بأزهار كتب عليها الكلمات الخمس التي عرفتها (وهي «الله» «المحبة» «الصدق» «العفة» «التواضع»). ثم يحمله قاضي القضاة بيديه ويساعده في حمله كل القضاة، ويسيرون به إلى المعبد الأعظم وهم والعباد ساكتون. غير أنه يتقدمهم قاضي يصيح بصوت جهوري له تأثير عظيم في النفوس ويقول: «أسعدنا يا ربنا كما أسعدت هذا العبد الصالح الذي تنقله إليك. نسبحك اللهمَّ لأنك جعلت موت الأبرار بهجات لهم يبتهجون بها ويستبشرون. نسبحك اللهمَّ ونشكرك لأنك جعلتهم يستقبلون وجهك الكريم ويقولون في حضرتك. نسبحك اللهمَّ ونحمدك ونشكرك لأنك أحببتنا فخلقتنا لنستحق المثول بين يديك الكريمتين». ثم يقول: «اللهمَّ انقلنا إليك وقربنا منك لا كرهاً بالزهرة وسكانها وعيشها بل تبركاً بك. الزهرة مسكننا الذي نسكن إليه والسكان إخواننا الذين نأنس بهم والعيش طيب ونحن مرغدون، فاجمعنا بين يديك لنشكرك على نعمتك بقدر استطاعتنا المستمدة منك. إننا عن شكرك لعاجزون».

حينما يدخلون المعبد يضعون المحمول تحت الكلمات الخمس المكتوبة في صدره (كما سبق الكلام). ثم يصعد قاضي القضاة إلى كرسيه ويقول بصوت مرتفع: «الله الله يا مكافئ المحسن على حسناته بأحسن منها إنَّ عبدك (وهنا يذكر اسم الميت) البار يسألك السعادة الدائمة في مقر عرشك الأقدس»، فَيُسْمَعُ كلام فصيح بصوت رخيم

1 ـ الآلة: سرير الميت.

عن لسان الحق سبحانه وتعالى وهو «يا عبدي الذي لم يلبس ثوب آدم ولم يتدنس بسجن زحل. يا عبدي الذي تفيض المحبة منه والذي يزهو بنور الصدق ويبهو بالعفة ويتلألأ بالتواضع: إني آمر بأن تنتقل نفسك إلى الجنة العظيمة حيث عرشي الأقدس لتقيم مع أخوتك الأبرار في راحة وسعادة دائمتين». وبعد هذا ينقطع الصوت والخلق كلهم مطرقون خاشعون فتخرج النفس كأنها عصفور غاية في الحسن والجمال، لونه بين البياض الفضي والزرقة اللامعين، مكتوب على رأسه «الله» وعلى جناحه الأيمن «العادل» وعلى جناحه الأيسر «المكافئ». يراه الناظر صاعداً محفوفاً بالأنوار وهو يشكر ويحمد ويسبح والحاضرون يقولون: «يا ربنا انقلنا إليك وقربنا منك. اللهمَّ لا تطل أيامنا في الزهرة لنتمتع بمشاهدة وجهك الكريم».

أما الصدى[1] فيلقونه في بئر كبيرة، ثم يتفرق الجمع وهم يتمنون لأنفسهم ما ظفر به فقيدهم الذي لم نره يتألم دقيقة خروج نفسه، بل نراه يحمد ويشكر ويسبح ويبتهل وهو مبتسم، كله سرور وحبور.

قال: فإذا كان المائت من الذين أنزلهم الله تعالى إلى الأرض، أمر قاضي القضاة قاضي المحلة أن يمضي بعشرة من القضاة لحمل السرير الذي لا يزين كله بالأزهار بل بعضه، فيذهبون وفي أيديهم باقات من الزهر كتب على كل زهرة منها «اذهب بسلام»، والقاضي الذي يتقدم السرير يقول: «اللهمَّ يا من أمرتنا بأن لا نرد سائلاً إننا عبادك الذين اعتصمنا بك ولجأنا إليك، والذين توكلنا عليك نسألك بمنّك وفضلك أن لا تنزلنا إلى الأرض كما أنزلت هذا الذي أفسد في الزهرة، فصلح بعد ذلك فأعدته طاهراً نقياً يشكرك ويسبحك بكرة وعشياً. اللهم قربنا منك ولا تبعدنا عنك. اللهمَّ زدنا شوقاً إليك ورغبة فيك كما زدت هذا العبد بهجة وسروراً بنقله إليك ليقف أمامك وهو مطرق خجلاً واستحياءً مما أثم وأفسد فيما مضى. اللهمَّ إنه يرتجف من هيبتك فاشدد قلبه ومتّعه ببهاء من وجهك الكريم ليشكرك حق شكرك ويسبحك تمام تسبيحك فيسعد بمجدك الأعظم وينعم بالراحة والسلام».

فحينما يصلون إلى المعبد (غير المعبد الأعظم) يضعونه تحت الكلمات الخمس فيقول قاضي القضاة: «إنَّ عبدك هذا (ويشير إليه) يسألك أن تنعم عليه بالسعادة الدائمة حيث عرشك الأقدس، فيسمع الحاضرون ذلك الصوت القائل: «يا عبدي

1 ـ الصدى: الجسد من الإنسان بعد موته وقد ذكر.

الذي لم يتدنس بسجن زُحل والذي رجع إلي فتبت عليه إني آمرك بأن تخرج نفسك من جسدك وتذهب إلى الجنة العظيمة لتقيم مع إخوتك الصالحين في راحة وسلام دائمين». ثم تخرج النفس على هيئة عصفور أبيض مكتوبة عليه الكلمات الثلاث التي ذكرتها لك، فيعلو غير محفوف بالأنوار وهو يشكر الله تعالى ويسبحه تسبيحاً.

فلما فرغ والدي من كلامه قلت له: ألا تريد أن تعلمني كيف تكون حالة المحتضر في الأرض؟ فقال: إنَّ الاضطراب أو السكون اللذين يظهران على المدنف لا يدلان على تألمه أو عدمه، لأنهما حالتان ملازمتان ومختلفتان باختلاف العلة فتقويان وتضعفان وتزيدان وتنقصان.

إلا أنَّ الذي يتوب توبة صادقة على اعتقاد منه قوي متين، يؤثر ابتهاجه العظيم (الصادر عن اعتقاده قرب السعادة) في كل عضو من أعضائه تأثيراً لا يجعله يشعر بألم. فإذا رأيته يضطرب ويقوم ويقعد فلا تحسبه متألماً متوجعاً. والذي لا تكون توبته كاملة يتألم غير أن تألمه أقل بكثير من توجع الطالح المحتضر ولو كان ساكناً تظهر عليه الراحة، فإنَّ الألم هنا لا يدل على الاضطراب ولا السكون كما علمت.

ثم قال: اعلم واعتقد أنَّ الميت يسمع كل قول ويعي ويظل على الوعي والسمع ساعات وأنت وكل طبيب تحسبونه غير شاعر بشيء. فيجب على أهله وأقاربه أن لا يبكوه ويندبوه إلا بعد مضي سبع ساعات على الأقل، وأن لا يولولوا ويعظموا فقده على زوجته وأولاده، وأن لا يذكروا سوء حالهم بعده إلى غير هذا مما يؤلم الميت ويعذبه وهو لا يستطيع الحراك.

الفصل الخامس منه

ـ في الأحزان ـ

قال والدي: لقد علمت مما تقدم أنَّ سكان الزهرة لا يجزعون ولا يحزنون بل يهنئ بعضهم بعضاً ويفرحون عند الموت لأنَّ الحياة فيه.

أما أنتم يا أهل الأرض فإنكم تحزنون الحزن الطويل الشديد على فقيدكم وخصوصاً إذا كان صالحاً مع أنه نجا من العذاب ومضى إلى الراحة والسلام.

لقد أوثقتم نفوسكم بوثاق من عاداتكم فتنقادون بها إلى مصاعب الأحزان،

وتكرهون على حفظ قواعدها وقوانينها ونظاماتها وموادها ومسائلها وقضاياها وشروطها إلى غير هذا من الأثقال التي تحملونها فوق وسعكم.

إذا فقد أحدكم فقيداً شكا وبكى وعج وضج وصاح وأكثر الندب والنواح وحبس نفسه في بيته أياماً وليالي لا يأكل طيباً ولا يشرب لذيذاً ولا يلبس جديداً.

فإذا اشتهى طعاماً بنفسه امتنع عنه أو أكله سراً. فإن قُرع بابه وهو يأكل وارى الطعام متلصصاً وإلا عابه الناس وقالوا عنه هذا لا حاسة له، فلا يحس بشيء ولا يشعر، فيلازم منزله كرهاً عنه حتى يذبل بعد نضارة ويضعف بعد قوة ويكسل بعد نشاط، فتراه حين يخرج من بيته كأنه ناقهٌ من مرض مزمن لكثرة تغيره، فيظن ناظروه أنَّ الحزن أنحله وأضناه وهم غير مصيبين في ظنهم، فيا ليتهم يستبطنون[1] الأمر ويعلمون أنَّ الذي أضناه هو حبسه وانقطاع أصحابه عنه.

وبعد خروجه لا يؤذن له أن يخالط ويصاحب أحداً، لأنَّ القاعدة تجبره على البروز من داره صباحاً والعود إليها من شغله مساء، فإذا أراد التنزه أبعدَ كأنه غريب انقطع عن أهله وعن العمران البشري لأنه لا يجوز له أن يبصر الناس، أو كأنه محكوم عليه بالحبس ليلاً وبالانفراد والانزواء نهاراً. أو بالتنزه في الفلوات والقفار مع الوحوش. وهذه عادة حرمها الله تعالى لأنه لا يريد بعباده إلا خيراً. فقد وضع سبحانه لهم القوانين الصحية حفظاً لأبدانهم فكيف يسمح لهم بأن يعرضوها للعلل والمخاطر؟ إنهم لفي غواية وإنهم يأثمون ويجنون على نفوسهم وهم غافلون. إلى أن قال: لقد كان أجدادكم يجرون على مثل هذه العادات يوم كانوا لا يتزاورون. يوم كانوا يكرهون الاختلاط فيلازمون منازلهم، لا يظهرون للناس إلا أوقات الصلوات والأشغال فهم بالطبع محبوسون فيما خلا هذه المواقيت فلا تصعب العزلة لأنهم نشأوا عليها. فلو رجعتم إلى عادات آبائكم لكان لكم منها خير عظيم. أما الآن وقد تغير عيشكم فيلزمكم أن تقلعوا عن كل عادة أمست مضرة بكم لكثرة اختلاطكم. انتبهوا من غفلتكم ولا تسيئوا إلى نفوسكم وتضغطوا أبدانكم وأنتم تلومون العادات القبيحة مع أنكم نبذتم أكثرها، فكيف تنبذون الحسنة منها وتمسكون بأهداب السيئة وأنتم لا تقوون على الثبات؟ دعوها قبل أن تفلت أيديكم فتسقطوا.

1 ـ استبطن الأمر: وقف على دخيلته.

ومن العادات التي لا لزوم لها ولا اضطرار إليها الحداد[1]، فتلبس المرأة لباس الحداد وهي كارهة لها. ولا أعلم ماذا يريدون منها اليوم. فإن كانت علامة الحزن والاكتئاب فلماذا يجعلونها تطابق الزي وتوافقه كسائر الملابس الصالحة للتزين والتبرج، حتى أمست غرامة على الذين يعسر عليهم تبديل ثيابهم لضيقتهم واحتياجهم إلى ما هو أهم منها وألزم، مع أنَّ كثيرين يتضجرون من الحداد ويتأففون؟

لقد رأيت كثيرين في الأرض يذهبون إلى الملاهي والمنتديات ويسمعون الأغاني وهم بثياب الحداد فماذا يبتغون من لبسها؟ إذا كانوا يريدون أن يعلموا الناس أنهم فقدوا أحد أقاربهم فليعلنوا به في الجرائد وعلى الجدران.

ومن العادات المستهجنة أنَّ كثيراً من البشر عندكم يعولون ويندبون ويقلقون ويزعجون مع أنهم فرحون مبتهجون. إني أشير عليكم وأنصحكم بل أحتم أن تقروا وتسكنوا وتكفوا عن الإعوال والولوال لأنهما يزعجان العباد ويضران بكم، فإنَّ في القرار والسكون كرامة لكم.

لقد رأيت كثيرين في الأرض من عقلاء الناس وأذكيائهم غير المتينين ينوحون نواح النوائح ويلازمون المناحة[2]، ويرفعون أصواتهم كالمرأة السالقة[3] ويتدعّون تدعّيهن[4]، ويعددون أمواتهم تعديداً لا يحسن صدوره منهم ويجمل نقله عنهم، فاستخف بهم السامعون حتى نقصت منزلتهم عندهم أو كادت. إنَّ الذي يجزع عند الملمة جزعاً شديداً ويضج يستذله الناس وهو غافل عن نفسه. فكتم الألم يوم الشدة أصون للمرء وأكرم، والتألم والتفجع من النازلة يبعثان الناس على التوجع. فإذا توجع لك عدوك أصابتك منه نازلة عظمى، فكيف لا يخفي العاقل البلية لينجو من أعظم منها ويحفظ لنفسه كرامتها؟

فعلى العاقل أن يتقوى عند الملمة بالمتانة والرسوخ وأن يتدرع عند جولان الهموم بالرزانة والرصانة، وأن يجتنب الحسرة على ما فات ويعلم أنه لا يدري ما يعمل وأنَّ

1 ـ حدت المرأة وأحدت: تركت الزينة والخضاب بعد وفاة زوجها المتوفى فهي حاد ومُحِد. والحداد مصدر حدت المرأة. وثياب الأتم السود.

2 ـ المناحة: موضع النوح. يقال كنا في مناحة فلان.

3 ـ امرأة سالقة: أي رافعة صوتها عند المصيبة أو لاطمة وجهها.

4 ـ تَدَعَّت النائحة: طرَّبت في نياحتها على الميت.

النقادين واقفون له بطريقه. والأجدر بالرصين السكوت فإنَّ فيه وقاراً.

ليزن نفسه دائماً في غمه وفرحه، لا يستخفه الطرب ولا يستفزه الحزن، وعليه أيضاً أن يجتهد ويقوي قلبه وأن يسترشد ما استطاع ليدرك المصيبة ويقدرها حق قدرها، لئلا يكبرها ويعظمها فيهلع ويدهش ويضطرب عقله. ليعلمْ أنَّ المصيبة تهجم عليه كأنها الجبل العظيم ثم تصغر تدريجياً إلى أن تزول في وقت قريب وهو يحسبها تدوم.

ومن العادات المستهجنة والمستقبحة والمستكرهة في الأحزان تهافت كثيرين من أولي البطالة والمفاسد على الحزانى باللوم والتنديد لتقصيرهم فيما أوجبته عليهم قواعد الحزن الضارة. وهذا يا أيها الفضوليون تعرضٌ منكم لأمر ليست فيه مصلحتكم ولا تتعلق به حقوقكم، فإنهم أدرى بشؤونهم وأحق من سواهم بتقديرها وإعطائها ما وجب لها، فيفعلون الأوفق لهم والأخلق بهم ويختارون لنفوسهم ما يناسبهم لا ما يناسبكم أنتم الفظاظ الجفاة الذين خلت قلوبهم عما يشغلها فشغلوها بالحزن. فيا حبذا لو اشتغل كل منهم بنفسه وبحث عن نقائصها وعما قبح فيها فاجتنبها فيصلح الناس كلهم في أعمالهم، فيكفون عن التقبيح والاغتياب وعما لا يعينهم من كل أمر. فإذا كفوا اجتمعوا على كلمة واحدة وتضافروا وتعاونوا على خيرهم ونجاحهم وجدّوا في سبيل تقدمهم وعمرانهم فيسعدون السعادة الأرضية بعد شقائهم وينعمون.

على الرجل العاقل كلما رأى في خلقه ما لا ينطبق على أخلاق الناس أن يجتهد في تطبيقه ليوافقها. فإذا وافقها دخل بينهم وَعُدَّ منهم، فيكّف عنهم فيقربونه إليهم ويؤانسونه مؤانسة تطبب بها نفسه، هذا إذا لم يفيدوه علماً ومالاً.

الباب الثامن

الفصل الأول من الباب الثامن
ـ في وجود الله تعالى وخلقه الخلق ـ

لما وصل والدي إلى هنا قال: إذا أردت أن تستفيد فسل عن كل ما تريد، فقلت له: ما الحجج الدامغة والبراهين المقنعة على وجود الله سبحانه وتعالى وخلقه الخلق؟ فقال: اعلم أننا لا نشك في وجوده جلَّ جلاله لأننا نراه بعقولنا وقلوبنا. وأما أنتم فكيف تلفت أحدكم وحيثما اتجه وأنى تحرك رأى ضعفه وقوة الطبيعة القاهرة. رأى أشياء كثيرة من أشياء أكثر منها لا عدد لها هي أعظم منه وأقوى على ما به من العظمة والقوة. رأى ذله ورأى عجزه. رأى ما لا يقوى على تصوره، رأى ما هو فوق مداركه، رأى ما ترتعد له الفرائص فيدهش فيسقط فيستغيث بما يرى إقراراً منه باقتدار كل ما يرى. كأنه يشعر من نفسه باقتدار قادر، بل يشعر حقيقة بوجوده فيسميه القادر الموجد.

إذا تأمل الكائنات العظيمة المدهشة وما يختص بها من الأعمال الغريبة المختلفة والمتباينة في أحوالها وشؤونها وغاياتها مع انتظام حركاتها وسكناتها، بحيث أنها إذا طرأ عليها خلل جزئي خربت خراباً، فتكاد تقف حركة عقله من دهشه وعند ذلك يقر شاء أو أبى بوجود مكون مدبر. فإذا وصل إلى هنا ولا بدَّ له من الوصول اضطر بحكم القياس إلى الإقرار أيضاً بأنَّ ذلك القادر الموجد المكون المدبر الذي أوجد الكائنات العظيمة، يقدر بالطبع على خلق الإنسان الحقير بالنسبة إليها، وعلى خلق الحيوان بطبائعه المختلفة على ما به من القوة الطبيعية المدركة المحافظة على أنواعها الواقية لها من الدمار والاضمحلال. وهو أي ذلك الإنسان لا يقوى على خلق أحقر بعوضة فيكرر إقراره بعجزه وبوجود قوة خالق عظيم.

ليتركْ كل شيء في الإنسان والحيوان ولا ينظرْ في كل تراكيبهما ولا يتأمل الفرق الكائن بين الذكر والأنثى مع اختلاف طبيعتهما وميلهما، بل لينظرْ فقط إلى العين الباصرة ويطيل ويدقق في تركيبها فيدهش أيضاً ويقر بقوة صانع عجيب.

لينظر في النبات واختلاف طبائعه وخاصياته فيدهش أيضاً ويقر بوجود مبدع حكيم. فهذا القادر الموجد الكون الخالق الصانع المبدع الحكيم هو واحد وهو الله تعالى.

لا بدَّ للإنسان القوي المدارك النبيل الغاية الخالي من الأهواء التي تدعوه إلى

العناد والمكابرة من الإقرار بوجود الله تعالى تقدست أسماؤه، لا بل لا بدَّ للإنسان النبيه الذكي مهما كان جاحداً منكراً مكابراً من الإقرار بوجود الله تعالى ولو بعد حين.

ما مثل الذي ينكر وجود الله إلا مثل الذي ينكر وجود نفسه في الحياة. لا ينكر وجود الله تعالى إلا من به جنون التأله. إنَّ الإنسان دون هذا الكون بل هو من فضلاته فكيف يجعل نفسه فوقه ويريد أن يجعله خاضعاً لمداركه.

من علّم الناس أن ينكروا وجود الله تعالى فهو عدو لهم مبين تعمد الإخلال بنظام الكون والمجتمع الإنساني.

الفصل الثاني منه

ـ في الأديان ـ

وقلت: أريد أن تعلمني أي دين من الأديان هو الأفضل، فقد رأيت كلاً يعظم دينه ويفضله على غيره. فقال: كل دين يعلّم حب الله جلّ وعلا وحب الخلائق بعضها بعضاً، ويعلّم أيضاً اجتناب المعاصي والآثام، هو مقبول بالطبع عند الله جلّ جلاله.

ثم قال: اعلم أنَّ الأديان من حيث التعليم والإرشاد سواء، وما اختلف منها عن الآخر فقد روعي به الزمان والمكان وأحوال الناس وعيشهم ومداركهم وعاداتهم وطبائعهم وميلهم. فمن عمل صالحاً منكم واجتنب المعاصي ومناهي الشرع فقد صلح وخلص ولا شك في هذا.

وقال أيضاً: إنك تعلم أنَّ الله عز وجل أراد بالدين أن يعيش خلقه في راحة وسلام، لا يتعادون ولا يعتدون ولا يفسدون، فكيف والحالة هذه يجوز لنا أن نحكم بهلاك رجل صالح مطيع لله تعالى في جميع أحكامه، إذا كان غير متدين بديننا؟ ألم يكن الله سبحانه وتعالى رحيماً عادلاً يريد من الإنسان قلبه؟ ماذا ينفعني ديني إذا كان قلبي غير نقي طاهر وغير منزه عن الرذائل؟

إذا وجد أحدكم رجلاً صالحاً ليس على دينه وجب عليه أن يحترمه وأن يتعظ بصلاحه ويقتدي بتقواه، ووجب عليه أيضاً أن يحبه محبة عظيمة لأنه يعمل بأمر الله سبحانه وتعالى، وعليه أن يثق به لأنه صالح تقي مثله في الصلاح ولأنه يوافقه ولا يخالفه في اجتناب المحرمات.

ماذا أبتغي من المتدين بديني والذاهب مذهبي إذا لم يكن على صلاح؟ ماذا أبتغي منه وهو يؤذيني ويضربني ويترقب عثاري؟ ألا أفضل عليه ذلك الصالح الساعي وراء خيري ونجاحي الذي إذا عثرت أخذ بيدي ودرأ عني الشبهات وهو ليس على ديني؟ أي الاثنين أفضل: هل هذا النافع الصالح الذي تسميه بالكافر، الخائف الله تعالى الزاهد في الملاهي، الراغب عن لذاتها، الواقف نفسه على خدمة بني الإنسان، المجتهد في تخفيف ويلاته ومصائبه، المحسن إليه والمتصدق عليه والمعتكف على عبادة الله تعالى بالطاعة وحسن الصبر، أم ذاك الطالح العاصي القاتل الذي تسميه مؤمناً، المنقطع في الحانات، المقامر اللص الزاني النمّام المحتال؟ كيف تسمي هذا مؤمناً وذاك كافراً؟ ألم يخلق لك الله عز اسمه عقلاً لتميز به الخير من الشر؟ فإن قلت: هذا الأثيم لا أعده مؤمناً لأنه ليس فيه صلاح المؤمنين، فأقول وماذا تعد ذاك الذي تدعوه كافراً وقد رأيت فيه صلاح المؤمنين؟ أجبني. لا شكَّ في أنَّ قلبك يحكم حالاً بأنه أفضل من الذي تدعوه مؤمناً، ولكنك لا تصرح خوفاً من جماعتك على زعمك، وهذا الخوف ناشئ عن جهلك.

نزّه قلبك وعقلك ولسانك عن الاعتساف والفخفخة اللذين لا يكون معهما عدل. احكم بعد ذلك فتعدل وتنصف. قل لي: أبعد هذا يسمح لك لسانك بأن تسمي الصالح كافراً؟ إني أقول عنك لا.

إنَّ كلمة الكافر التي ألفت لفظها فهانت عليك تجرح قلوباً مؤمنة كثيرة لا تعلم بها. ربما لو راعيتها أو تركتها نفعتك وحافظت عليك. إنَّ هذه الكلمة تورث قائليها محناً وبلايا ورزايا وهم لا يعقلون.

لا يستغني أخ عن أخيه ولا قريب عن قريبه ولا جار عن جاره ولا إنسان عن إنسان مثله.

يجب على البشر أن يجمعوا ويتحدوا ليتشاركوا في المنافع التي تزداد نمواً كل يوم بحسن التساعد والتعاون، ولكن كيف يتم هذا لكم يا أيها الذين ينظرون ولكنهم لا يبصرون؟ كيف السبيل إلى هذا، والتحزب الديني يجر عليكم الشر، ويمنعكم من الخير؟ كيف الوصول إلى هذا الخير القريب منكم؟ إنه بين أيديكم فلماذا تستبعدونه؟ ما هذا الجهل؟ ما هذا الحمق؟ ألم تعتبروا بغيركم؟ ألا تقتدون بسواكم؟ اعقلْ وأدركْ يا هذا أنَّ الدين وجد لخير إنسان ونفعه، فكيف تجعله لضرك وتعاستك وتعاسة غيرك بتحزبك وجهلك وبلاهتك؟ اقلعْ عن تغفلك واعلم أنَّ كل مضر يجب اجتنابه،

فلماذا لا تجتنب هذا الاعتساف الذي لا يضرك غيره، والذي أجمع الناس على أنه مضر؟

أقول: إذا عودتم نفوسكم كره من ليس على دينكم فقد علمتموها البغض فيتمكن منكم حتى إنكم تبغضون من يتدين بدينكم أيضاً وأنتم لا تدرون.

إنَّ البغض يرسخ في القلب فيصير فيه طبعاً وغريزة، فيصبح ويمسي على البغض من غير أن يستثني أحداً، ولا عجب في هذا فإنَّ الإنسان ابن العادة.

لقد رأيت وسمعت كثيرين يخاطبون بالأنفة والكبر والترفع مفخفخين مدعين بأنهم يشرفون بدينهم، فلا يجوز لهم أن يكرموا من لم يكن عليه. فأقول لهم إنَّ الشرف لا يكون شرفاً إلا إذا كان صعب المنال، لا يحصل عليه ولا يوصل إليه إلا بشق النفس، مع أنَّ دينهم غير ممتنع على أحد. فيه الرفيع والوضيع والعظيم والحقير. من قال لهم أنا على دينكم ضموه إليهم حالاً.

فإن قالوا: إنَّ الله تعالى جعل الشرف بديننا دون غيره، وإن كان قريب المنال غير ممتنع على أحد، ولكن هذا الشرف لا يظفر به إلا من كتبت له السعادة وأراد الله تعالى به خيراً. فأقول لهم: إنَّ الناس عند الله سواء، لا يفضل عبداً على عبد إلا بأعماله الصالحة. وإنَّ الله تبارك وعلا يريد بجميع عباده خيراً فالعظيم عظيم ولو بخسه بعض الجاهلين حقه. ألم تعلموا أنَّ الجاهلين لا يدركون؟

إني رأيت المتحزب مكروهاً يتأخر كل يوم. إنَّ المتحزب يكره الناس دينه وأما المتودد فإنه يرغبهم في دينه.

الفصل الثالث منه
_ في توحيد الأديان _

وقلت لوالدي: أمن الممكن توحيد الأديان فينجو البشر من الويلات والرزايا التي تنجم في كل زمان ومكان عن التفرق والاختلاف؟ فقال: إنَّ الله تعالى أمر الأنبياء والرسل أن يتوافقوا في تعاليمهم. فإذا تمَّ ما جاء في الكلام عن «الحروب والمذابح والفظائع». فالتوحيد ممكن، غير أنه لا بدَّ بعد ذلك من تأليف مجمع عام يجمعون فيه على تعظيم وتبجيل الأنبياء والرسل، ثم يتفقون على تلخيص عادل ينظر فيه إلى

أحوال الزمان وتقلباته في كل وقت، فيعبد الناس كلهم الله تعالى بكلمة واحدة حال كونهم يعبدونه وهم متفرقون متشتتون، فهل يختلف أحد في تفضيل الاجتماع على التفرق والوفاق على الخلاف والقوة على الضعف؟

فإذا فاز الإنسان بهذه البغية صارت الأرض مواسم وأعياداً، حيث يكون قام الإصلاح العام ودخل الناس في طور جديد أدركوا به أنهم من أب واحد وأم واحدة، وأنهم لا ريب عشيرة واحدة نمت حتى لم تسعها بقعة واحدة فتفرقوا اضطراراً، يجمعهم دين واحد ولغة واحدة وكلمة واحدة وعادات غير متباينات إن شاء الله تعالى وما هذا على كرمه ببعيد.

فانتبهوا يا أيها البشر وتعقلوا وأدركوا أنكم قادرون على راحتكم وراحة أولادكم، وأنكم قادرون أن تخلصوا من عذاب أليم، فيرث هذا الخلاص أبناؤكم وتخلدون لكم ذكراً سعيداً دائماً. واعلموا أنكم إذا أقدمتم ساعدكم الله تعالى وقواكم وأرشدكم. فمن أحب فليقدم وليساعد.

الفصل الرابع منه
_ في قولهم لو كانت الأديان كلها من الله تعالى لما اختلفت في الاعتقاد _

وقلت لوالدي: يقولون لو كانت الأديان كلها من الله تعالى لما اختلفت في الاعتقاد وتباينت في التعاليم. فقال: إنَّ أساس الدين ودعامته الكبرى، بل الدين نفسه هو أن يحب الخلق الله سبحانه وتعالى وأن يتحابوا، وأن يكفوا عن الآثام ليعيشوا في راحة وسلام. وكل دين من الأديان مؤسس على المحبة واجتناب الكبائر والمعاصي. فالأديان إذاً يؤيد بعضها بعضاً ولا تتخالف كما تقدم القول.

أما الاختلافات التي يشيرون إليها فليست بأساسية طبيعية بل هي وضيعة، يحق لكل نبي ورسول ولكل حكيم وضعها ليهذب بها أمته ويحفظ لهم صحتهم.

فلما تسامى البشر رغبوا فيما بعد في الجنة وسعادتها، وَهُددوا بجهنم وعذابها، ومن المقرر أنَّ هذا كله يراد به خير بني الإنسان، ولذلك يتأمل النبي أحوال قومه واستعدادهم ومنزلتهم من العقل، ويختار لهم الطريقة الفضلى ولو كانت في الظاهر

مباينة غيرها من طرائق الأنبياء إلا أنها في الباطن وفي الحقيقة ليست إلا موافقة. فزعمهم أنَّ الأديان متباينة خطأ لا يدركه إلا أولو البصائر.

إنَّ النبي حكيم وطبيب، فكما أنَّ الطبيب مداوي الأبدان يداوي مثلاً خمسة من المرضى المصابين بعلة واحدة في وقت واحد، ويصف لكل منهم دواء غير الذي وصفه سواه مراعياً بذلك اختلاف أبدانهم وأمزجتهم وتربية بلادهم وهوائهم ومائهم، فكذلك النبي فإنه يداوي النفوس والأجساد معاً بالأدوية التي هي أنجح من غيرها وأنفع، فتنوعها لا يسمى تخالفاً في الحقيقة ما دامت العلة واحدة، وإنما الرائي يرى بحسب الصورة الظاهرة أنَّ هذا الخلاف الذي يراه واقع في المادة المنظورة إلا أنَّ الغاية الجوهرية المقصودة هنا واحدة، وهي فعل الدواء وتأثيره ليحصل بها الشفاء وقد تمَّ وحصل.

الفصل الخامس منه
_ في قول بعضهم إنَّ الأديان قوانين وضعها عقلاء البشر _

وقلت لوالدي: يقول بعضهم إنَّ الأديان قوانين وضعها العاقلون غير مقرين بالأنبياء والرسل. فقال: لو تأمل الإنسان حكمة كل نبي ورسول التي تفوق مدارك قومه، وإذا دقق في تعاليمهما السامية وغايتهما الشريفة منها، وما يصدر عنها من الفوائد العائدة على الإنسان بالخير والراحة، ونظر في معانيها التي هي أرقى وأعلى من معاني قومه بكثير مع أنه منهم، وإذا حقق في حالة ذلك النبي والرسول وعيشهما وزهدهما ونسكهما وفقرهما وصبرهما على المكاره والتعذيب وعلى القتل والاستشهاد؛ أقر بأنَّ فيها «حكمة» «قوة» «روح» «محبة» تمتاز عما في الإنسان امتيازاً غريباً عجيباً، امتيازاً أعلى من تصور البشر، فهذا الإقرار بقوة النبوة والرسالة.

رأينا كثيراً من الملوك امتازوا عن البشر، نعم امتازوا وفاقوا لأنهم كانوا مختارين في الزهرة كما علمت، غير أنهم كانوا راغبين في العظمات والأبهات وفي حب التسلط والتملك بخلاف النبي والرسول (في الأكثر) مع أنهما بالنظر إلى امتياز مداركهما وحكمتهما كان يهون عليهما أن يرأسا قومهما ويفتحا الممالك العظيمة ويعيشا ملكين من أعاظم الملوك. غير أنهما احتقرا المجد وزهدا في كل شيء ووقفا نفسيهما على محبة البشر، وهذا أمر يفوق الطبع البشري لأنَّ كل شيء ممكن ما خلا السماح

والرضى بسفك الدم فداء وتضحية عن المحبة التي ليس فيها بالطبع فائدة حسية تعوض للمسفوك دمه.

نعم إننا رأينا في الناس من يعرض نفسه للهلاك أملاً منه بنجاة شريفة ترفع منزلته فيدرك بها المعالي، بخلاف النبي فإنه زهد فيها وابتعد عنها لأنَّ غايته شريفة سامية أشرف وأسمى من تلك الغاية.

فهذه المحبة الفائقة المجردة عن رغبة في فائدة ومقصد ينتفع بهما في الأرض، ليست بمحبة بشرية أرضية تصدر عن قوة إنسانية وحالة إنسانية وغاية إنسانية، بل هي لا تصدر إلا عن قوة عالية سامية إلهية يؤديها الله سبحانه وتعالى.

حيث أنك أقررت بالنبوة والرسالة وجب عليك أن تتبع أوامرهما وتثق بهما لأنهما لا محالة من الله تعالى كما علمت.

الفصل السادس منه

_ في المجوسية والوثنية _

وقلت لوالدي: ما رأيك في المجوسية والوثنية ونحوهما؟ فقال: هي عبادات وشرائع مدنية وضعها الفلاسفة والحكماء ليكفوا بها الناس عن الإضرار وعن التعرض للقوة الحاكمة التي كان للكهنة فيها التأثير الأعظم.

وقد كان من الممكن أن تفيد تلك العبادات والشرائع لو لم تختلط بالأباطيل والخرافات التي أضافها أولو المآرب. ولم تزل تنحط مع توالي السنين حتى صارت وثنية محضة.

وقد كان قصد واضعيها أن يعبد البشر الله تعالى ليكفوا عن المعاصي. غير أنَّ الشعوب القديمة لم تكن تؤمن إلا بما يقع تحت حواسها. فقالوا لها مثلاً إنَّ الشمس قوية عظيمة نحيا بها ونعيش لأنه لولا حرارتها لهلكنا ولم تخرج الأرض نباتها. وقالوا أيضاً هي الشمس مكرمة عند الله تعالى لعظمتها كما ترونها وإلا لم يخلقها عظيمة فيلزمنا أن نطلب منها التوسط بيننا وبينه تعالى وأن تشفع فينا إليه. فطلب الإنسان منها أولاً ثم سألها ثم التمس ثم استغاث ثم توسل ثم عبد. وهكذا كانوا يدخلون في عبادة الأوثان.

أما المحكوم عليه بالزهرة أن يعيش بين أولئك الأمم فإن عاش صالحاً خلص بصلاحه وإن عاش طالحاً حكم عليه بحسب تلك الشرائع التي كان خاضعاً لها. وأما الذي ولد في أماكن لا دين فيها ولا شرائع فيخلص بصلاحه إن عاش صالحاً، وإلا فيحكم عليه بقدر إدراكه فإذا أثم وكان لا يقدر الإثم عذر، والله سبحانه وتعالى رؤوف بعباده.

الفصل السابع منه
_ في التقمص _

وقلت لوالدي: ما هو التقمص وما رأيك فيه؟ فقال: لقد ذهب بعض البشر عندكم إنه إذا خرجت روح الإنسان من الأرض غير مبررة أدخلت بعد خروجها من جسم الإنسان في جثمان حيوان عقاباً لها، وهذا المذهب لم يقل به الأكثرون، إلا أنَّ الذين قالوا به أرادوا أن يهددوا الناس ويخوفوهم، لأنه يكره لديهم أن تحل أرواحهم في جسوم الحيوان وأرادوا أيضاً أن يصونوا الحيوان من جور الإنسان رحمة منهم فيرفق به ويحسن إليه.

الفصل الثامن منه
_ في التشاؤم _

وقلت لوالدي: ماذا تقول في التشاؤم؟ فإني أرى كثيرين يعتقدون إلى يومنا هذا أنَّ الدار الفلانية مشؤومة، فمن أقام بها مات أو خرج منها مفلساً أو مصاباً بولده أو بزوجته مثلاً أو توالت عليه المصائب وتتابعت النوائب. فقال: هذه أباطيل وخرافات نهى الله تعالى عنها، وقد ردها العقل السليم لأنَّ النوب التي تنتاب البشر لم تخصص لها أماكن للانتياب. فلا بدَّ والحالة هذه من أن تصيب الناس وهم بديارهم التي يأوون إليها، فإذا تكررت المصيبة فليس من الحكمة أن تتطيروا منها وترموها بالشؤم.

إننا لا نتشاءم في الزهرة ولا نعتقد أنه من الممكن أن يشأمنا أحد ولا نعرف الشؤم.

أما مصدر هذه الخرافة فهو أجدادكم الأولون، أولئك القبائل الرحل الذين كانوا إذا ضاقت عليهم أرضهم أو أمحلوا وأجدبوا رحلوا وأخذوا ينتجعون[1]، فإذا اضطروا إلى النزول بأرض قليلة الكلأ رديئة الماء خبيثة الهواء هلكت أموالهم وفني زادهم وافتقروا وأصيبوا بكثير منهم ومن مواشيهم لسوء عيشهم وجهلهم، فيرحلون وقد أشاعوا في حلهم وترحالهم أنَّ تلك الأرض مشؤومة. وبالعكس فإنهم إذا أصابوا أرضاً كثيرة المراعي والغدران طيبة الماء والهواء طابت نفوسهم وسمنت مواشيهم ونمت فيقولون هذه أرض مباركة.

فقلت : يعتقد بعضهم أنَّ من أنشأ داراً من مال الظلم كانت مشؤومة عليه. فقال: لا يبعد كثيراً أن يكون كذا لأنَّ الله تعالى قد يعاقب في الأرض أيضاً ويسمى هذا العقاب «العقاب الأرضي الإضافي»، وهو أيضاً العقاب الذي يكون من نفس العمل. ولكنَّ الدار لا تكون مشؤومة على غير منشئها، وهذا لا يعد شؤماً بل عقاباً، إلا أنَّ الله تعالى لا يعاقب بالموت في الأرض لأنَّ مدة الإنسان بها يعينها في الحكم وهو إذ ذاك بالزهرة.

فقلت له: إذا كانت مدة الإنسان معينة كما أبنت، أي لا تزيد ولا تنقص، فلا فائدة من التطبب. فقال: إنَّ التطبيب لا يدفع الموت، وقد وضع الله تعالى وصايا لحفظ الصحة (هي الطب الشافي) لكي يكون الإنسان معافى في مدته المعينة. غير أنه يستثنى العقاب الأرضي الموقوت والعاجل، فالذي يجر العلة على نفسه بعدم تحفظه وبمكابرته في عدم هربه فتسري إليه وتضر به فيعاقبه الله هكذا. فتنبه أنَّ الله تعالى يعلم بسابق علمه أنَّ أهالي مدينة كلكتا مثلاً يعرضون نفوسهم ونفوس غيرهم لتهلكة الوباء وهم لا يكترثون له ولا يدققون في منع العدوى، فيميت حينئذ كثيراً منهم لينتبه المقيمون بمدن أخرى، فيقل الموت، وبذلك تتم مدَّات المعاقبين المقيمن بالأرض. أما أولئك الذين أميتوا فهم الأولى، انتهت مدتهم المعينة لهم والذين عفا الله تعالى عنهم وخلصوا من عذاب الأرض.

وقال: ومن هذا القبيل يعاقب الله تعالى أيضاً بالمرض في بعض الأحيان. مثلاً إنَّ زيداً وخيم والوخامة تضر به وتضر غيره وهو لا يريد النظافة وقد أمر بها، فيعاقبه الله بنفس عمله وذلك أن يسمح بمرضه الموقوت تنبيهاً له ويعجل دواءه النظافة أي

1 ـ تنجع القوم وانتجعوا: ذهبوا لطلب الكلأ وهو العشب.

المنظفات والمطهرات فيتعظ به غيره. أما حفظ الصحة بتناول بعض العقاقير المختبرة فمفيد كما مر بك.

الفصل التاسع منه
ـ في المعتوهين والمشعوذين ـ

وقلت لوالدي: ما تقول بالمعتوهين والبله؟ فقد رأيت كثيرين من الناس يكرمونهم تكريم أولي الكرامات والمعجزات. فقال: إنَّ العقلاء والأتقياء ذوي المحامد والمناقب أمروا من قديم الزمان بإكرام هؤلاء المساكين والرفق بهم رحمة لهم. فزعم بعض الذين طابت سريرتهم أنَّ في كل واحد منهم سراً من أسرار النبوة.

ولولا هذا الزعم منهم لقست قلوب كثيرين على هؤلاء القاصرين فأهملوا وظلموا بالإهمال، لأنهم عاجزون لا يستطيعون أن يحصلوا على قوت يومهم. غير أنهم ليسوا على شيء من الكرامات.

أما الذين يعتدون على الناس ويأتون المنكر في الأزقة والشوارع فهم غير مدركين.

احذروا المشعوذين والمفائلين[1] الدجالين المموهين المدعين علم الغيب ليستعينوا به على كسبهم خدعة منهم، فإنهم يضلون ويغوون من صفت نيتهم ويسلبونهم أموالهم بادعائهم علم الكيمياء، أي إنهم يحولون بعض المعادن إلى بعض وعلى الخصوص جعل النحاس ذهباً.

ولقد رأيت منهم فسقة ظالمين يستخلون المغفلات ليخرجوا لهن الكنوز على وجوههن فإذا خلت لهم الأماكن سطوا عليهن لعنهم الله.

لا يعلم الغيب أحد في الأرض ولا يعلم أين الأركزة أي الخبايا المدفونة. فإذا نُقِل إليكم أنَّ رجلاً من أولئك الدجالين أصاب في شيء فقولوا إذا صدق النقل تلك حيلة استنبطها ليخدع بها أو مصادفة عرف بمكره ودهائه كيف يستفيدها.

ولك دليل على بطلان تلك الأباطيل والترهات هو أنها لا تروج ولا تكثر إلا بين المساكين الذين غلبت عليهم سلامة الصدور في الجهات التي لم يزل الجهل ضارباً بها خيامه. فكلما تنورت الأمة بأنوار العلوم والمعارف واتسعت مداركها نبذت تلك

1 ـ المفائل: اللاعب بالفأل, والفأل ضد الطيرة.

الأكاذيب والأضاليل حتى أصبحت اليوم في كثير من البلدان أساطير الأولين. فعليكم أن تقتدوا بأولئك الذين كشفوا عن بصائرهم غشاوة الجهالة فلم يسلطوا على عقولهم روايات المبطلين وحكايات عجائز الحي المخيفة الهائلة.

ومن الدجالين من هم أشد مكراً وأكثر دهاء من غيرهم فيقولون إننا لا نعلم ما سيكون لأنه لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى وحده فقط، وإنما نعلم ما هو كائن الآن فلا تصدقوهم وكذبوهم لأنهم لا يعلمون أنهم لا يعلمون شيئاً.

الفصل العاشر منه
_ في الكافر والمكابر _

وقلت لوالدي: من هو الكافر؟ فقال: الذي يعرف الله سبحانه وتعالى وينكره ويكفر به. فقلت له: ماذا يجب أن نفعل به؟ فقال: لاطفوه وآنسوه وأحسنوا إليه ولا تنفروه إلى أن يهتدي ويرعوي عن ضلاله ومكابرته. فقلت له: وإذا كان يحفظ وصايا الله تعالى ولا يذكره؟ فقال: اصبروا عليه وأقنعوه بحسن أعمالكم وقوة حججكم وبراهينكم فإنه لا يموت إلا محباً لله جلَّ جلاله مؤمناً به، لأنه من المقرر أنَّ الذي يحب شيئاً لا يكره صانعه بل يحبه وخصوصاً إذا كان ذلك الشيء المحبوب حسناً مفيداً. فكيف يحب وصايا الله ويحفظها لأنها تعود عليه بالخير والنجاح، ولا يحب واضعها والآمر بها رحمة للناس ورأفة بهم وهو تعالى لا يرجو من الذي وضعها له عوضاً ولا بدلاً؟ إنه يحب الله تعالى باطناً وسيحبه ظاهراً أيضاً.

ثم قال والدي: فإذا قال هذه قواعد وقوانين طبيعية وجدت في الناس منذ خلقهم فلم يضعها الله تعالى ولم يأمر بها، فقولوا له لو كانت طبيعية لما أكره الإنسان على اتباعها والعمل بها. ولما قتل ولما زنى ولما سرق ولما شهد عند الحاكم لصاحبه على غريمه بالكذب والزور، ولما ولما...

فإذا قال لكم إنَّ لي عقلاً أعرف به خيري من شري يأمرني بالصلاح فلا أحتاج إلى الإيمان، فقولوا له إنك حينئذ تنهي عن المعاصي جهراً وتأتي أعظم منها سراً.

فإذا قال لا، فقولوا له إذاً أنت ديّن مؤمن تحب الله تعالى وقد أخذت الدين عنه وأنت لا تدري. غير أنك إذا لم ترعوِ عن كبريائك وإنكارك نعمة الله تأثم.

ماذا يضر بك إذا أقررت بفضله وبدينه؟ أتطلب لنفسك العظمة والافتخار بعقلك

وسدادك على زعمك؟ ألا تعلم أولاً أنَّ التعظم إثم؟ وألا تعلم ثانياً أنَّ عقلك هذا الذي تنافس فيه هو هبة لك من عند الله سبحانه وتعالى؟ أتعتقد أنك أوجدته لنفسك؟ لا، أتعتقد أنه وُجِدَ من نفسه؟ لا. إنك تجاوب وقد حرت أنَّ الطبيعة أوجدته لي. أتعلم ما معنى هذا الجواب؟ معناه أنك عجزت وعييت فكابرت وحاولت تكبراً منك وتجبراً، ولم ترد أن تظهر عدالتك وتزكي نفسك بشرف إقرارك.

أجب يا هذا: من أوجد الطبيعة وما هذه الطبيعة؟ مالك لا تجيب؟ إنك لا تحب أن تقول إنَّ الله تعالى أوجدها لئلا يقال إنك أخطأت فغلبت.

يا للعجب! إنك تستحيي أن تنسب إليك المغلبة وحدها فكيف يهون عليك أن ترمى بالغلبة والجهل والكبرياء والمكابرة والمحاولة وبالإلحاد أيضاً؟

يجب على الرجل العاقل المنصف أن لا يجتهد في تأييد أخطائه إذا برح له الخفاء ووضح الحق وانجلى الصواب، وعلى الخصوص في الدينيات، وعليه أن يذعن حالاً لليقين ويقرّ به مصرحاً، فيحسب إقراره علماً منه لا جهلاً وقوة لا ضعفاً واقتداراً لا عجزاً.

ما أحلى قولك لا أدري في مسألة لم تقف عليها ولم تدرك سرها! ألا تعلم أنَّ هذا القول يحفظ كرامتك؟ لأنك إذا أجبت وخبطت خَبْطَ عشواء عرضت نفسك للإهانة. وهذه العادة المستهجنة متمكنة من كثيرين يجتمعون لحل معضلات يتوقف عليها إصلاح أمة أو فسادها، فيجتهد الرجل منهم في إثبات رأيه بفصاحته وبلاغته مع أنه على ضلال، وهو يعلم ضلالته بعد ذلك فلا يريد أن يقلع عنها خوفاً على منزلته على زعمه لئلا يقال عنه تكلم فلان فلم يصغ إليه لأنَّ فلاناً أفسد عليه رأيه وغلبه بقوة حجته وحسن برهانه.

فيبعث حب الذات والكبرياء والحسد هذا الضال المكابر على المماحكة في لجاجة إلى أن ينفرط سلك الجمع، إما بخصام ونزاع عظيمين لهما تأثير شديد على الأمة، وإما بضياع الوقت في الجدال فلا يتفقون فتفوت الفرصة وهناك الضرر العظيم.

فأنصح هؤلاء المكابرين أن يجتنبوا كل اجتماع خصوصي وعمومي لئلا يتمكن منهم حب المقاومة والمخالفة، فيصير فيهم عادة يشتهرون بها فيفقدون منزلتهم ويضرون إخوانهم ضرراً لا أعظم ولا أشد منه.

ليعلم هؤلاء المكابرون والمقاومون أنَّ الذين يدعونهم إلى بعض المجالس يريدون منهم أن يستعينوا بهم على الشر والضلال.

الفصل الحادي عشر منه
ـ في النجس ـ

وقلت لوالدي: يقولون هذا الشيء نجس، وأنا أراه نظيفاً نقياً فلماذا هذا؟ وماذا يريدون بالنجس؟ فقال: كل قذر وخيم وكل عفن. وكل آجن[1] آسن[2] وجب اجتنابه على التعميم، وكل شيء تأباه نفسك وينفر منه طبعك ويرده ولو أكره عليه وجب اجتنابه على التخصيص حتى الدواء.

وكل شيء حسن الظاهر قبيح الفعل وجب اجتنابه كالخمر بفعلها، فإنك إذا نظرت عصير العنب المخمر وجدته نظيفاً حسناً، فإذا أسكر في شربه وظهر فعله وهو الإضرار بشاربه في ماله وسمعته، وجب الامتناع عنه.

والدليل على أنَّ الشيء إذا قبح فعله منع هو أنَّ الخمرة إذا استحالت وخللت، أي إذا حمضت وفسدت، زال المنع وذلك بزوال فعلها وهو الإسكار مع أنها تحولت من حالة إلى أدنى منها أي من الصلاحة إلى الفساد.

الفصل الثاني عشر منه
ـ في التوجع والطلق ـ

وقلت لوالدي: لقد جاء في أول سفر التكوين من التوراة أنَّ الله تعالى عاقب حواء فجعلها تحبل وتلد بالأوجاع لأنها لم تأتمر أمره تعالى، وقد انتقل هذا العقاب إلى جميع النساء، فهل يفهم من هذا أنَّ المرأة من طبعها تحبل وتلد من غير تألم، فلما عصت عوقبت بالتوجع؟ وقلت أيضاً: إني أرى أنثى الحيوان تتألم حينما تنتج فهل حكمها في ذلك حكم حواء؟ فقال: لا بدَّ لإناث الإنسان والحيوان من هذا العذاب، إلا أنه لو لم تخالف حواء لأنعم الله سبحانه وتعالى عليها بأن لا تتعذب كما أنعم على نسائنا في الزهرة ليمتزن عن إناث الحيوان.

---

1 ـ أجن الماء تغير طعمه ولونه وقيل رائحته وقيل غشيه الطلحب والورق فهو آجن وأجن وأجون.

2 ـ أسن الماء: تغير طعمه ولونه وريحه فهو آسن.

البـــاب التاسع

الفصل الأول من الباب التاسع
ـ في الأرض وقدمها ـ

وقلت لوالدي: إنني أسمع كثيرين من العلماء يقولون إنَّ الأرض قديمة أقدم من التاريخ الذي يلوح في التوراة، ويقولون إنَّ الإنسان وجد قبل ذلك الزمان أيضاً، فماذا ترى؟ فقال: لقد صدقت التوراة، ولقد أصاب علماؤكم، لأنَّ الله تعالى كان خلق الأرض وأنزل إليها جماعة من الزهرة وذلك منذ أحقاب ودهور غاية في القدم. غير أنه رأف بعد ذلك بعباده المعذبين في الأرض فعفا عنهم عفواً عاماً وأمر، فصدمها أحد البروج فأحرقها في طرفة عين فخرجت النفوس منها إلى الزهرة.

أما المعذبون في زحل فلم يعف عنهم إلى الآن. وبعد أدهار عاد سكان الزهرة إلى الخطيئة فأنزلهم إلى الأرض بعد ما جعلها صالحة لعيش البشر، ثم عفا عنهم أيضاً وهكذا إلى عهد آدم وحواء، وسوف يعفو عنهم بمنّه وكرمه.

الفصل الثاني منه
ـ في كيف خلق الله تعالى الخلق ولماذا ـ

وقلت لوالدي: كيف خلق الله تعالى الخلق ولماذا؟ فشزرني[1] حتى خفته. ثم قال: لقد تعودتم يا سكان الأرض مثل هذه الأسئلة الدالة على قحتكم وجهلكم الفظيع، لأنكم لم تقدروا قدرة الله تعالى وحكمته وسموه، فكأنكم تزعمون أنكم تضاهونه، ولهذا تريدون أن تدخلوه في فلسفتكم.

ماذا تقولون إذا اجتمعت الأمراض الحقيرة وأخذت تبحث عن حالة الإنسان؟ ألا تهزأون بها وتعجبون من حمقها؟ أنا لا أعلم ولن أعلم ولا أريد أن أعلم كيف ولماذا خلق الله تعالى الخلق ولا يوجد في الزهرة رجل يحب أن يعلم ذلك.

---

1 ـ شزر فلاناً وإليه: نَظَرَ إليه بمؤخر عينه, وأكثرُ ما يكونُ في حال الإعراضِ أو الغضب.

الفصل الثالث منه
_ في قولهم خير للإنسان أن لا يخلق _

وقلت لوالدي: ماذا ترى في قولهم خير للإنسان أن لا يخلق، لأنه يعاقب كثيراً لكونه رهيناً بذنبه منقاداً لأهوائه الغالبة عليه مأسوراً بشهواته المتمكنة منه؟ فقال: إنَّ الإنسان لم ينزل إلى الأرض ليتنعم بها، بل ليعاقب كما علمت. أما الخلق في الزهرة فلا يأثم منهم إلا عدد قليل لا يُعتد به بالقياس إلى كثرتهم. فهل من الحكمة أن لا يُخلقوا وأن يُحرموا السعادة والنعيم في الزهرة والمريخ من أجل جزء منهم يسير لا يريد أن يستعين بعقله على تخفيف شهوات قلبه ورغائبها؟ إنك تجيبني كلا.

مع هذا كله إنَّ الله تعالى يعلم ضعفكم ومنزلتكم من القوة والعقل والتحمل، ولذلك لم يكلفكم أكثر من وسعكم فيعاقبكم عقاباً تستحقون أشد منه وأعظم. وهو تعالى لا يريد أن يمسك عنكم رحمته إلى الأبد فيرفق بكم ويغفر لكم إذا استعنتم به على التوبة ويسر بخلاصكم، غير أنه يجب أن تحذروا الطمع برحمته وأن لا تعصعوه بل يلزمكم أن تنتبهوا لنفوسكم، فإذا زلت بكم القدم وأدركتم سيئاتكم ندمتم واستغفرتم حالاً من غير أن تؤخروا توبتكم ولا دقيقة واحدة، لأنه ربما كان فيها انصرام حبل الحياة.

الفصل الرابع منه
_ في قول بعضهم إنَّ الله تعالى يخلق الحسن وينهانا عنه _

وقلت لوالدي: ما رأيك في قول بعض المعترضين إنَّ الله تعالى يخلق لنا الحسن وينهانا عنه، مع أنه فطرنا على الميل إليه والرغبة فيه؟ فقال: إنَّ الأم توقد النار ليدفأ بها طفلها من البرد فتقربها منه ولا تبعدها عنه إلا إذا مدَّ يده إليها، لأنه يجهل درجة حرارتها وتأثيرها فيه فتحرقه أو تكاد وهو يبكي ويشكو جور أمه لأنها منعته الحسن الذي كان يتلذذ بالنظر إليه مع أنه مضر به وقبيح عليه. وهكذا الله تعالى فإنه خلق الحسن للإنسان ليتمتع به بشرط أن يقف عند حده وأن يدع الإفراط. فإذا تعدى حده وأفرط جرم عليه لأنه انهمك به انهماكاً ضاراً وهو لا يدري ولا يريد أن يدري.

فإذا درى هون عليه هوى نفسه على غيه وضلاله. إنَّ الله تعالى يريد بعباده خيراً وهم لا ينتبهون.

الفصل الخامس منه
_ في قول بعضهم إنَّ الإنسان يلتمس من الله تعالى ما يحتاج إليه فلا يرد عليه _

وقلت لوالدي: ما رأيك في قول بعضهم إنَّ الإنسان يلتمس من الله تعالى ما يحتاج إليه فلا يرد عليه؟ فقال: لقد اتضح مما تقدم أنَّ الله يحكم على بعض أئمة الزهرة بأن ينزلوا إلى الأرض ويعيشوا أغنياء، وعلى بعضهم بأن يعيشوا فقراء. فليس والحالة هذه من الممكن أن يجيب ملتمس الإنسان وأن يمنحه شيئاً حرمه إياه عقاباً له. فقلت: ألا يجوز له أن يطلب منه ما يضطر إليه؟ فقال: ليطلب الأهم والألزم وهو العفو والمغفرة بالتوبة الصادقة، ويلتمس منه أن يصونه من عذاب القتل وغيره، وليسأله أن لا يسمح بعذابه حين خروج نفسه من جسمه. أليس ما ذكر أهم مما يضطر إليه الإنسان في أيامه القلائل في الأرض التي تقيمون بها؟ كما يقيم الراحلون حينما يعرسون[1] إلى أن يبلغوا المدينة التي يقصدونها ويقيموا بها ولعلكم تعودون إلى الطريق الذي جئتم منه فتسعدوا وتنعموا. إنَّ الله تعالى لا يتخلى عنكم فلماذا لا تسترحمون.

الفصل السادس منه
_ في قول بعضهم إنَّ الله تعالى يحكم على زيد مثلاً بأن يفتقر بعد غنى وعلى عمرو بأن يغنى ولا يفتقر _

وقلت لوالدي: ما رأيك في قول بعضهم إنَّ الله تعالى يحكم على زيد مثلاً بأن يفتقر بعد غنى وعلى عمرو بأن يغنى ولا يفتقر؟ فقال: إذا عاش الغني ظالماً سالباً أموال غني مثله فأفقره، وإذا أكل أموال اليتيم والأيم والأرملة، يعاقبه الله تعالى

1 ـ يعرسون: أي ينزلون في السفر في آخر الليل.

عقاباً أرضياً يضيفه على عقاب الزهرة، وهو أن يفقره ليكون عقابه من نفس عمله، مع أنَّ الغني الذي أفقره ذلك الغني كان محكوماً عليه في الزهرة أن يفتقر في الأرض فلم يتسلط عليه الغني والحالة هذه في الحقيقة، ولم يفقره هو، وبيان ذلك أنَّ الغني الظالم أرادت نفسه الظلم وهو من الحاسدين وقد أبصر بين يديه كثيرين من الأغنياء (المحكوم عليهم بالفقر بعد غنى) فأفقر أحدهم أي كان سبب فقره بغدره ومكره أو ببطشه ونفوذ كلمته.

وإذا دققت وبحثت عن ثروات بعض أولئك الذين اعتدي عليهم فافتقروا، أدركت شيئاً من حكمة الله تعالى وعدله. فإذا قلت رأيت كثيرين من الأغنياء يفتقرون وهم لم يظلموا ولم يعتدوا، قلت لك: ألم أذكر أنَّ الفقر عقاب من عند الله تعالى في الزهرة؟

وإني أزيد على هذا وأقول: إنَّ كثيرين من البشر عندكم يتزيون بأزياء العادلين وهم ظالمون وأنتم لا تعلمون. إنَّ الله تعالى يعلم الخفيات وما في تلك القلوب والضمائر الرديئة المضمرة الغدر والشر وهي ترقب الفرص لتفترصها. فهؤلاء يعاقبون ولو يستطيعوا أن يفقروا غيرهم لأنهم أرادوا وأصروا فما استطاعوا.

أما بعض الصالحين الأتقياء الذي يفتقرون بعد غنى وهم قليلون، فإنهم إذا لم يكونوا أضاعوا ثروتهم بتغفلهم وتوانيهم فقد أضاعوها بالبخل والطمع وهم لا ينتبهون، كالذين يجلبون بضاعاتهم ويرسلونها من غير ضمان فتغرق أو تحترق أو تفقد إلى غير هذا. دققْ ونقّبْ تجد سبباً بل أسباباً. إنَّ الله تعالى قد يحكم في الأرض بالافتقار بعد الغنى ولكن للسبب الذي يجره المفتقر على نفسه وذلك ليعتبر الناس وينتبهوا.

وقلت لوالدي: سمعت كثيرين يقولون: ترى باراً يشقى وشريراً ينعم فما الحكمة في هذا؟ فقال: ألم تعلم مما مر بك أنَّ البار المقيم بالأرض كان حوكم في الزهرة فحكم عليه بأن يشقى بسجنه الأرضي، فإن عاش صالحاً عاد إلى الزهرة بعد نهاية أيامه؟ والشرير قد حكم عليه بأن يسر في الأرض لأنَّ ذنبه كان في الزهرة أخف من ذنب البار، فإذا عاش طالحاً عوقب فيها أيضاً بعد خروجه من الأرض كما علمت.

الفصل السابع منه
ـ في قول بعضهم إنَّ الإنسان ضعيف تستعبده شهواته ـ

وقلت لوالدي: ما رأيك في قول بعضهم إنَّ الإنسان ضعيف تستعبده شهواته فلو خففها الله تعالى لكان تخفيفها أرحم له؟ فقال: يترتب على ذلك أن يخلقه مقيداً غير مطلق الإرادة وغير حر أيضاً فيعد من المعتوهين الذين لا يحاكمون ولا يعاقبون كغيرهم فلا يستدل به على عظمته تعالى وقدرته. فقلت له: لقد ظهر من كلامك أنَّ الإنسان مطلق الإرادة. فقال: إذا أراد الإنسان بنفسه خيراً دله الله تعالى عليه وإذا أراد شراً نبهه ونهاه عنه. فإذا لم يطع تركه على عصيانه. فلو منعه لم يجعل له فضلاً وأجراً في الطاعة وكسر الإرادة وزجر النفس الأمارة بالسوء.

الفصل الثامن منه
ـ في كشف السر والختام ـ

وقلت لوالدي: كم سنة كان عمرك لما أنزلت إلى الأرض؟ فقال: كانت مائتين وخمسين سنة. فقلت: وكم عاماً كان عمرك حينما تزوجت في الزهرة؟ فقال: ستين. فقلت له: بكم زوجة اقترنت؟ فقال: بواحدة هي ابنة عمي. فقلت له: ألك أولاد كثيرون؟ فقال: عندي خمسة من الذكور وخمس إناث.

ثم قال: إنَّ أنجالي الأربعة المقيمين بالزهرة تزوج منهم اثنان. أحدهما وهو الأكبر له بنتان في الأرض، وهما الفتاتان اللتان أحببتهما في وقت واحد وأردت الاقتران بإحداهما وأنت لا تعلم أيتهن تختار، وبعد ذلك تركتهما واقترنت ببنت عمك الأصغر القديم المقيم الآن بالزهرة، وقد زعمت على حسن ودادك وصدق وفائك وإخلاصك الحب لهما أنك مسيء إليهما، لا يسمح لأسرتنا بالزهرة أن يدخل الرجل على ابنة شقيقه ولا على ابنة شقيقته فهذه هي الحقيقة التي خفيت عليك. وأما شقيقك الأصغر المتزوج فله بنت في الأرض وهي التي أحببتها بعد تزوجك.

فلما سمعت منه هذا الكلام عجبت ودهشت وسبحت الله تعالى على حكمته الفائقة التي لا تدركها عقولنا ثم سكت. فقال: سلني. فقلت: ألتمس منك أن تعلمني

أين الآن شقيقتي الصغرى وبناتي الثلاث؟ فقال: في الزهرة. فقلت: أشتهي أن تحضرهن لي الآن فقد اشتقتهن اشتياقاً أذابني أو كاد. فقال: بأية هيئة تريد أن تراهن؟ أبمثل هيئتي هذه أم بهيئتهن الطبيعية في الزهرة. فقلت: أحب أن أراهن كما هن الآن. فغاب هنيهة ثم عاد وفي يده غشاوة سوداء فوضعها على وجهي وقال: إنك تستطيع بهذا الستار أن تنظر إليهن فلا خوف على عينيك من نورهن، وبعد هذا قال: (أسرعن) وقبل مضي دقيقة رأيت أربع فتيات، ما لمحتهن إلا مسني الخبل وانعقد لساني وسكنت جميع حركاتي وصرت كقطعة من جبل راسخة لا حراك بها، وشعرت للحال أنه ليس في عيني قوة يمكنهما بهما أن تبصرا حسنهن، وعلمت أنَّ جمالهن شيء آخر لا يشبه جمالنا وأدركت أنَّ جسمي أضعف من أن يتحمل هذا المنظر الذي هو فوق حواس سكان الأرض، فاحتقرت نفسي وصرت كبعوضة حقيرة وأنا مطرق خجلاً واستحياء.

أما هن فتقدمن إلي ووقعن علي يقبلنني، فطابت نفسي وعاد إلي نشاطي وقوي قلبي، وعقلت أن بين يدي من لا يجب أن أستحيي منهن فجعلت أقبلهن وأضمهن إلى صدري وأنا أقول: لقد غلبني شوقي أنا العفيف فلا أقوى على الإفصاح عما أكابده من لوعات الفراق. آه ما أحرها فإنَّ لها ناراً شديدة الاضطرام تحرق قلبي ولكنها لا تريد أن تفنيه لأنجوَ من عذاب أليم.

لقد ذهبتن إلى النعيم حيث السعادة وأنا مقيم بالأرض أعاني مصائبها ونوائبها، وأزاول مخاوفها ومصاعبها وأقاسي بلاياها وأمارس رزاياها وأتجشم شدائدها وأتكلف مكارهها وأتحمل مكايدها.

إنَّ حزني عليكن شديد وقلبي منه عليل وجسمي به نحيل، فيا أملي خذ بيدي ويا صبري قوّني، ويا ربي لا تنسني وإن شئت فتداركني برحمة منك.

فقلن لي بصوت واحد: إننا نسأل الله سبحانه وتعالى كل يوم أن يرحمنا بك وبوالدتينا فأنتم غصتنا، ولا نسأله أن يقصر أيامكم في الأرض لأنَّ حكمه لا يتغير. لا نسألك عن والدتينا وإخوتنا لأننا أعرف منك بأحوالهم، وإنما نسألك أن لا تسأل عنا فإننا بخير من الله تعالى. كل شيء في الزهرة حسن وكل شيء لذيذ. لا نشكو إلى الله ضيماً ولا ألماً. غمنا على فراقك أقل من غمك على فراقنا، لأننا نعلم أنك ستعود إلينا، فتبْ إلى الله التواب العظيم لئلا تكون أيامك في مدينة التكفير طويلة. إننا نحب ونشتهي أن تكون معنا الآن في الزهرة، ولكن الله العادل لا يحب ما نحبه ونتمناه، فإذاً يجب علينا أن لا نحب ما لا يحبه الله لأننا إن أحببناه خالفناه.

فلما فرغن من كلامهن قلت لوالدي: ألا تأذن لهن بأن يتزوجن؟ فقال: إنهن لا يتزوجن إلا بعد أن يرجع إلى الزهرة آخر سجين في الأرض من أقاربهن.

أما هيئتهن فقد رأيتها تختلف كثيراً عن هيئتنا نحن سكان الأرض. إني رأيت لجسمهن لوناً يأخذ حسنه بالقلوب والعقول، وهو نوع من الزرقة البهجة التي تؤثر في الأبصار. ولشعورهن لون ألطف من الفضة وهي تلمع لمعان البرق وأعظم.

وبعد ربع ساعة قبلنني وقبلتهن ثم ذهبن. فقال والدي: أتريد أن تسألني؟ فقلت: بقي علي سؤال واحد وهو: كم سنة أعيش في الأرض؟

فأجاب: إني لا أستطيع أن أطلعك على المدة المعينة، وإنما أستطيع أن أطلعك على أمر يسرك وهو أنك ستكون قاضياً في مدينة القضاة.

ثم قال: أوصيك بأن تتوب توبة كاملة لتنجو من عذاب الاحتضار، وأوصيك أيضاً بأن تجعل الكلمات الأربعة نصب عينيك، وأحب وأشتهي أن أكررها لك وهي «المحبة» «العفة» «التواضع» «الصدق».

وفي الختام أوصيك بأن تثبت كل ما سمعته مني في كتاب تطبعه لتعم فائدته. فقلت: إني أخاف أن لا أحفظ وأذكر كل ما ذكرته وسردته، فقال: أنا أعلم أنك لا تنسى بإذن الله تعالى شيئاً. ثم قال: إني أريد أن لا تكتب بلغة عالية كما يفعل أكثر كتبة العرب فيحبسون تآليفهم عن العامة مع إنها أولى بها من الخاصة. فقلت: أخشى أن أجمع بين العامي والفصيح فلا أدرك الغاية. فقال: اكتب الكلام والعبارات التي دارت بيننا نفسها وهي لغة قريبة الفهم ما خلا بعض كلمات لا بدَّ منها فاجعل لها شرحاً.

ثم قبلت يديه فباركني وضمني إلى صدره وغاب كأنَّ غمامة وارته وأنا أقول: ألا تحضر علي مرة ثانية؟ فسمعته يقول: إذا شاء الله تعالى حضرت. فانتبهت والليل مظلم أقول: اللهمَّ زدني إيماناً وتداركني برحمتك. ثم أخذتُ أتأمل وأقول في نفسي: ما هذا يا ربي؟ أكل هذا منام؟ إنَّ في الأمر لعجباً! ثم شرعت أكتب هذا الكتاب حتى تمَّ بإذن الله تعالى، فأسأله أن يغفر لي ذنوبي وأن يخفف عني سكرات الموت ويختم لي الخير لأتقرب إليه بالمحبة.

صرت بالدنيا خبيراً   فلذا أعرضت عنها

أحسن الساعات عندي   حينما أخرج منها

صدر في سلسلة كتاب الدوحة

- طبائع الاستبداد .... عبد الرحمن الكواكبي
- برقوق نيسان .... غسان كنفاني
(القميص المسروق) وقصص أخرى
- الأئمة الأربعة .... سليمان فياض
- الفصول الأربعة .... عمر فاخوري
- الإسلام وأصول الحكم .... علي عبدالرازق
بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام
- شروط النهضة .... مالك بن نبيّ
- صلاح جاهين .... محمد بغدادي
أمير شعراء العامية
- نداء الحياة .... أبو القاسم الشابي
مختارات شعرية - الخيال الشعري عند العرب
- حرية الفكر وأبطالها في التاريخ .... سلامة موسى
- الغربال .... ميخائيل نعيمة
- الإسلام بين العلم والمدنية .... الشيخ محمد عبده
- أصوات الشاعر المترجم .... بدر شاكر السياب
مختارات من قصائده وترجماته
- فتنة الحكاية .... ترجمة: غادة حلواني
جون أيديك - سينثيا أوزيك - جيل ماكوركل - باتريشيا هامبل
- امرأتنا في الشريعة والمجتمع .... الطاهر الحداد
- الشيخان .... طه حسين
- ورد أكثر .... محمود درويش
مختارات شعرية ونثرية
- يوميات نائب في الأرياف .... توفيق الحكيم
- عبقرية عمر .... عباس محمود العقاد
- عبقرية الصدّيق .... عباس محمود العقاد
- رحلتان إلى اليابان .... علي أحمد الجرجاوي/صبري حافظ

لطائف السَّمَر

في سكان الزُّهرة والقمر

ميخائيل الصقال

على خيال «ألف ليلة وليلة» تتأسس هذه الرواية المجهولة التي نشرت في القاهرة عام 1907م، وكتبها أديب حلبي آخر هو ميخائيل الصقال، عندما كانت حلب حاضرة عربية زاهرة قدمت العديد من الأدباء من أمثال عبدالرحمن الكواكبي، فرنسيس المراش، عبدالله المراش، جبرائيل الدلال، ورزق الله الحسون.

تنهض رواية «لطائف السمر» على لعبة الحلم، حيث يرى الحالم أباه المتوفى عائداً من كوكب الزهرة «مقام الأبرار الصالحين»، ليصف لابنه الذي لم يزل على الأرض «سجن العاصين» كيف هي الحياة في ذلك البرزخ الفاضل، ومن هذا الباب تأتي المقارنات مع الواقع، ويأتي نقده لكل أوجه الفساد الإداري والاجتماعي.



www.aldohamagazine.com